N A J M W A L I
رواية
NOVEL
نجم والي
الحرب في حي الطرب
صفحة كتب
facebook.com/the.Boooks.

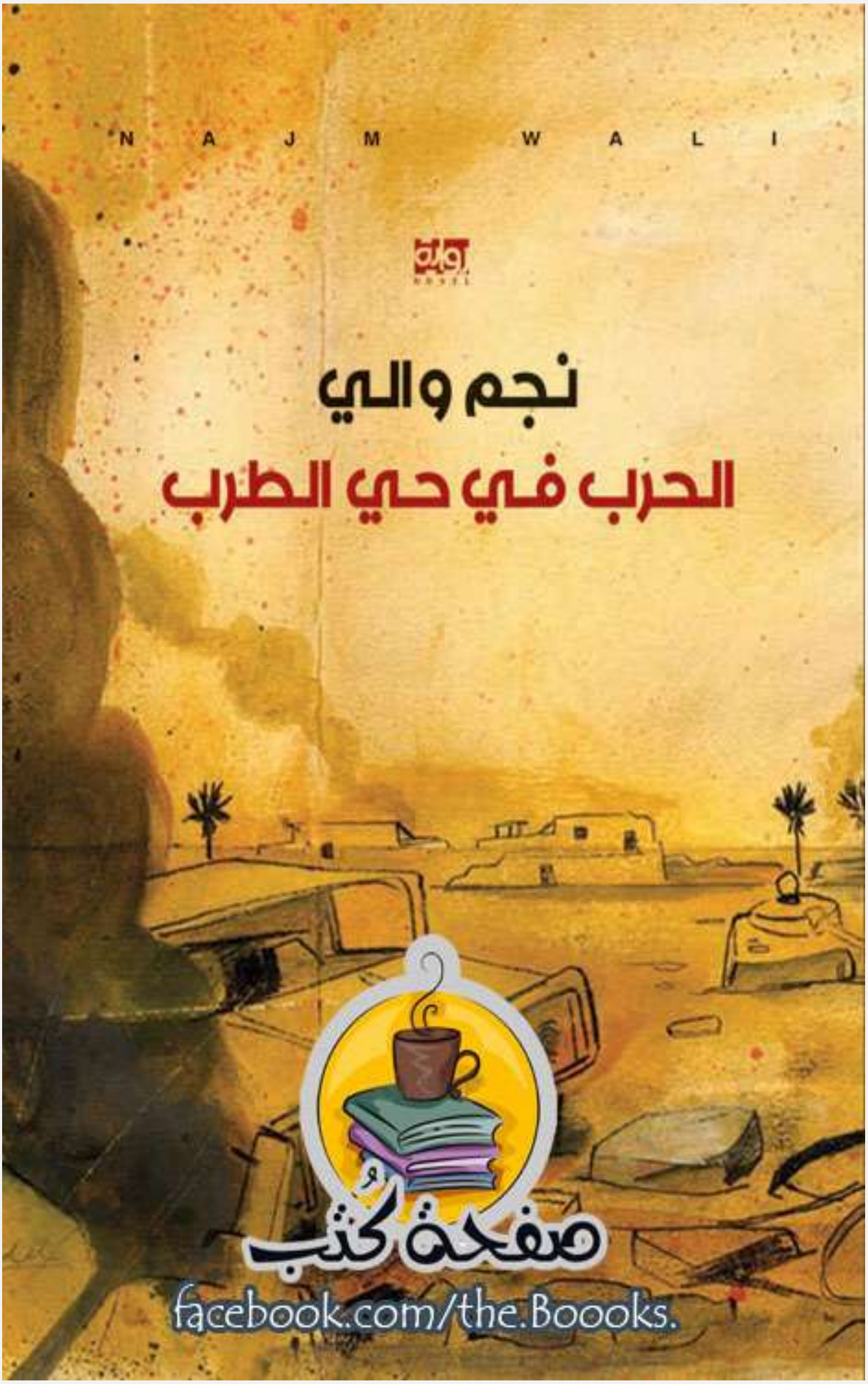

هذا العمل مقدّم من صفحة كتب وبالتعاون مع شبكة طلّاب فلسطين.

رابط صفحة كتب على الفيس بوك :

www.facebook.com/the.boooks

رابط شبكة طلاب :

www.6ollap.ps

الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى!

مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

صفحة كتب

قصة الحرب في حي الطرب

انتهى الروائي العراقي نجم والي من كتابة الرواية هذه عام 1985· وكانت .الحرب في حي الطرب. ليست هي الرواية الأولى للروائي العراقي نجم والي، بل هي أيضاً الرواية العراقية الأولى التي كُتبت عن الحرب العراقية الإيرانية، من وجهة نظر أخرى، ليس من وجهة نظر السلطة التي جندت في حينه عشرات الكتّاب والشعراء لكي يكتبوا روايات وقصائد تعبوية في مديح الحرب العراقية الإيرانية التي راح ضحيتها قرابة مليونين فضلاً عن الجرحى والمعوقين· اليوم لا يُمكن تخيل ذلك، لكن في ذلك الوقت شكل نشر رواية بمثل هذا الشكل خطورة على الكاتب وعلى عائلته التي كانت تعيش في العراق والتي تعرضت مراراً للاعتقال، خاصة وأن الكاتب إعتاد الكتابة تحت اسمه الصريح، وليس كما فعل العديد من المعارضين الذين لجأوا لإستخدام الاسم المستعار (كما فعل بعض الذين يتربعون اليوم على عرش السلطة في العراق)·

كان من المفروض أن تصدر الرواية في صيف 1985 عن طريق دار نشر الأهالي التي أسستها آنذاك رابطة الأدباء والفنانين والصحفيين العراقيين في المنفى· ظروف تعيسة عديدة لا داعي لذكرها الآن حالت دون صدور الرواية· وصل الأمر أن تصدر الرواية أولاً مترجمة للغة الألمانية عام 1989 بترجمة المستشرق الألماني يورغن باول (اليوم هو عميد كلية الدراسات الشرق الأوسطية في مدينة هالة) عن دار نشر بيرسبول فيرلاغ في هامبورغ·

الرواية التي ظهرت في ألمانيا بطبعات عديدة ولاقت نجاحاً ملفتاً للنظر، إذ سجلت أرقاماً عالية بالمبيعات، ظلت تنتظر حبيسة في أدراج الرقابة العربية إلى حين ظهورها في دار صحارى بودابست - دمشق عام 1993·

لقد قيل وكُتب الكثير عن هذه الرواية، خصوصاً في الصحافة الألمانية· اليوم تعيد المؤسسة العربية للدراسات والنشر نشرها بطبعة جديدة منقحة بمقدمة كتبها الصحفي الألماني المشهور، يورغ آرمبروستير الذي عمل سنوات طويلة مديراً لاستوديوهات القناة الأولى للتلفزيون الألماني في الشرق الأوسط والعراق بالتحديد، والذي يقدم اليوم كل مساء من يوم الأحد المجلة الإخبارية الألمانية الشهيرة .مرآة العالم. من على القناة الأولى للتلفزيون الألماني·

fb/the.boooks

مقدمة

في العراق لم يعد هناك حي طرب...

الحرب تواصل طريقها

يورغ آرمبروستير

Jorg Armbruster

عندما اتصل بي نجم - حدث ذلك في ديسمبر 2006 - وقال لي: .اكتب لي مقدمة للطبعة العربية الجديدة لروايتي الحرب في حي الطرب.، لم أعرف في البداية ماذا أقول· لماذا أنا، الألماني؟ شخص غيري، عراقي مثلاً، لابد أن يكون أحسن مني قدرة· شخص ما، عانى من حروب الديكتاتور هذا· في الحقيقة لدى البلاد هذه كتّاب وأدباء رائعون· لماذا لم يختر نجم أحد هؤلاء؟ أو إذا كان غير عراقي، فعلى الأقل كان من المفترض أن يكون كاتباً عربياً؟ أيضاً هنا هناك العديد من الكتّاب المهمين· إذن لماذا أنا؟ لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال فعلاً، لكنني ولقول الحق، كتبت المقدمة بمتعة، طلب نجم شرفني جداً·

قبل 12 عاماً وقعت الرواية بين يدي· عام 1991 على سبيل التحديد· كان الأميركيون قد انتهوا من طرد الوحدات العسكرية العراقية من الكويت· في ذلك الوقت كنت أرسل التقارير الأخبارية عن الحرب من الأردن· لاحقاً سمعنا ونحن في عمان، عن انتفاضة الشيعة في جنوب البلاد ضد الحاكم المستبد في بغداد· سمعنا أيضاً، بأن المنتفضين أعدموا رمياً بالرصاص بالجملة أو أبيدوا جماعياً، من دون رحمة· لكن الوحشية هذه ظلت غريبة علينا، بل بعيدة· في وقت متأخر جداً فقط رأيت بعيني القبور الجماعية، بكل ما حوته من جماجم مثقوبة عن طريق الإعدام رمياً بالرصاص، أو جماجم أخرى مهشمة· هل جاء ذلك نتيجة ضربات جزمات عسكرية؟ في ذلك الوقت، عام 1991 بالتحديد، بدأت بالاهتمام

fb/the.boooks

بهذه البلاد الصعبة على الفهم: العراق. قررت أن أجمع كل شيء، كل ما يمكنني الحصول عليه من معلومات.

أحد الأصدقاء الذي عرف باهتمامي ذاك، أخبرني، أن هناك رواية ظهرت في دار نشر صغيرة في مدينة هامبورغ، تتحدث عن البلاد هذه. الرواية كتبها روائي عراقي، وظهرت مترجمة باللغة الألمانية، بعنوان غريب: .الحرب في حي الطرب. لكن ماذا يعني غريب هنا، الكتّاب يستطيعون غالباً أن يكشفوا عن طريق لغتهم أكثر من العلماء والصحفيين.

الحروب، وهذا ما أعرفه أيضاً، حدث الكثير منها في العراق. من هذه الحروب غذت نفسها الديكتاتورية. الأغنياء والأقوياء أشبعوا بطونهم بغنيمة الحرب، أما قتلى الحرب فهم بمعنى ما عنصر اللحم الأساسي لوجبة الغذاء هذه. وماذا عن الذين بقوا على قيد الحياة في ساحات مذابح الحرب الجماعية؟ لقد تأجل موتهم فقط. .كان يعرف، أنه سيموت...لم يكن ذلك خاطراً عابراً، إنما سيطر عليه هذا التفكير، منذ أن رأى الحرب هذه بوجهها الحقيقي. بهذا الشكل يقدم الجندي .علي. نفسه في رواية نجم، إنه يعرف، بأنه وقود الحرب، مثلما هي حال أغلبية العراقيين على جبهات القتال. هؤلاء كانوا جميعهم من الشيعة تقريباً. تدريجياً يصحو علي، يكتشف نفسه، والأقوياء من حوله. كان ينظر للحرب بصفتها مكاناً للمغامرة، على الأقل حتى تلك اللحظة التي سيرى فيها بعينيه: .يحدثوننا عن الانتصارات...ولكن لا تعرفين كم كانت خسائرنا؟.، يقول الجندي علي للغجرية سليمة، .أي نصر تافه، ثمنه مجزرة بهذا العدد الكبير من البشر.

طوال الحرب في حي الطرب نقرأ الكابوس ذاته دائماً: .حصان مبقور البطن. يصبح الحصان قريباً منه يشمه عند الفخذين. يضع عدنان الكاميرا بين فخذيه. يبكي الحصان ويغادر المكان بأسى..... يرى الشارع وقد غطاه الوحل، بيوت تتهاوى، خيل حزينة تجري مبقورة البطون، رجال انضباط مدججون بالسلاح يدورون بسيارات الجيب واللاندروفر، ومن بيت إلى بيت تخرج نسوة ارتدين السواد يُلصقن بالحائط، شعورهن مشعثة، ملابسهن ممزقة، ظهرت أجسادهن، يطلقون الرصاص عليهن، يسقطن في الوحل. هذا هو كابوس نجم والي الذي يتكرر.

fb/the.boooks

الرسام الألماني جيورج غروس رسم مشاهد مثل هذه تصف المشهد بعد الحرب العالمية الأولى: وجوه مخيفة ببذلات عسكرية وبذلات سهرة أنيقة، المنتفعون من الحرب، من الجهة الأخرى، يقابلهم المعوقون بالعكازات، مقطعو الأشلاء، يصلحون بالكاد للحياة· البشر معوقون، وإذا لم يكونوا مجروحين من الخارج، فإنهم مجروحون بالتأكيد من الداخل، ظلت أرواحهم معوقة طوال حياتهم· وإذا انطلقوا ذات مرة باتجاه .حي طرب.، لكي ينسوا الحرب، فإن الحرب هذه ستلحق بهم بالتأكيد إلى هناك· بكلمة أدق: لا يستطيعون تحرير أنفسهم من الحرب أبداً، إنهم يجرونها معهم مثل مرض غير قابل للشفاء· مرض غرس نفسه في داخلهم مثل فيروس، لا يستطيعون الفكاك منه· هذا الفيروس يجلس حتى اليوم عميقاً في الناس في العراق·

نعم، العراق تسيطر عليه ثقافة العنف· الثقافة هذه، تصبح واضحة جداً في روايات نجم والي، فهي ليست هناك منذ احتلال الجيش الأميركي للعراق أولاً، بل كانت موجودة مسبقاً· عراق صدام حسين اكتظ بفساد مدمر، البلاد كانت مسممة برجال الأمن السري من مخبرين ومحتقرين لكل ما له علاقة بحقوق الإنسان· العراق هو بالمحصلة مجتمع، لا يثق فيه الأب بابنه· الجيران يراقب بعضهم بعضاً بشكل مشبوه: هل سيتصرف الجار- الآخر خارج سلطة الديكتاتور ويجعل نفسه بهذا الشكل مثاراً للشبهة؟ مجتمع مليء بالخوف مثل، سيكون لهذا السبب بلا أخلاق· بالنسبة لنجم والي الانتحار هو الطريق الوحيد للخلاص، لكي لا يُجبر المرء على الانتماء لحزب صدام حسين·

نعل حذاء الأقوياء هم الجنود العراقيون، ربما بسطال الديكتاتور نفسه: .هل تعلمون، أننا مجرد بساطيل، يستبدلها رجل حقير، لا يلبسنا فقط متى يشاء، بل ينزعنا أيضاً من قدميه، ويرمي بنا متى أراد.·····

.الرجل الحقير. هذا، هو الآن ميت· أُعدم في محاكمة من الممكن أن يشك المرء في صحتها القانونية· رغم ذلك، فإن أغلبية ضحاياه لم يملكوا حتى فرصة أن يحصلوا ولو على محاكمة قصيرة· .إذا انتهى مجرم بالطريقة نفسها التي أراد لها أن ينتهي إليها ضحاياه.، كتب نجم في الصحيفة السويسرية .نوير تزوريشير تزايتزنغ. مباشرة بعد إعدام صدام، .فمن الصعب على المرء أن يأسف لموته، لأن المرء يعرف، أن نهايته···هي أيضاً نهاية لكل تهديد ممكن أن يشكله المجرم للناس وللمحيط من حوله.

fb/the.boooks

روايات نجم والي ساعدتني أن أفهم العراق واستبداد صدام حسين بشكل أفضل.

الآن نشأت تهديدات جديدة للعراق. ليس هناك حي طرب..الحرب تواصل طريقها.

إلى كل الهاربين من خدمة العلم.... إلى كل الفراريّة

fb/the.boooks

علي محمد

فجأة توقفت سيارة الأرزاق. وعندما رفع علي رأسه ليرى ما حصل، لم يجد أمامه سوى فضاء أسود يمتد بلا نهاية، تشع فيه، في البعيد التماعات متقطعة تحدث دوياً ترتج له لا السيارة وحدها، بل الخشبة التي جلس فوقها، لم يكن بحاجة إلى مهارة العارف، فلقد اعتادت عيناه هذه المشاهد التي تستمر وقتاً غير قصير. ارتعش جسده مثلما يرتعش كل مرة عند حدوث قصف مركّز. وسيان عنده قنبلة مَن، تلك التي تُلقى هناك؛ بل إنّه لا يريد أن يسأل نفسه، وهو قد تكوّر حول سلاحه، يمسكه، وكأنه يحتضن حقيبة مدرسية. ما يعرفه وبدقة، أنه لا يريد أن يموت. كلا. . لا أريد أن أموت. قذف فمه تلك الجملة بصوتٍ مسموع، وعيناه مسمّرتان في نقطة ما في الفضاء، في مكان ما، حيث يأتي الدوي، عيناه تلكما اللتان ارتجفتا قليلاً، لم تلمحا جلال الذي تأوه :

-هه. علي إنزل بسلاحك. هناك قصف مركّز .

لم يرد بادىء الأمر، إنما ظلّ مواظباً على تكوره كمن رأى أفعى تحت قدميه.

-علي. لا ينفع إلا الانبطاح.

كذلك صرخ به جلال والذي قفز إليه في الوقت ذاته ليسحبه من مكانه حيث جلس بجانب الأرزاق، ولم ينسَ أثناء سحبه له أن يأخذ قسماً من اللفائف معه، وعلّق ساخراً:

-قد تطول جلستنا تحت.

وإذ أصبحا على الأرض في مكان يبعد عن السيارة، حيث انبطح الآخرون، تذكر جلال أنه قد نسي شيئاً ما في السيارة فهمس لنائب الضابط الذي استقر على بعد متر منه.

-العرَق. أخ كيف نسيته؟

ركض إلى السيارة مرة أخرى. فتح بابها بسرعة، وسحب من صندوق الحاجيات قنينة العرق. ثم رجع بها فرِحاً دافعاً إلى فمه جرعةً منها فوراً. وبصوتٍ يفوق أصوات القصف الذي ازدادت حدته الآن، صاح به الجندي الأول سلام:

fb/the.boooks

-أرجوك اعطيني...

فقاطعه جلال قبل أن يكمل جملته، فيما بصق باتجاهه:

-آخ يا جلف اعطيك عيري.

ولكي يغيظه دفع إلى فمه جرعة أخرى وتمتم:

-طيب يسلم على الروح.

ثم دفع القنينة إلى نائب الضابط.

-خذ أبو ماجد. هدئ أعصابك.

كان نائب الضابط حميد مستسلماً إلى خوفه، حتى إنه لم يجرؤ على رفع رأسه فتمتم من مكانه:

-ليس الآن

أجابه جلال:

-مثلما تحب.

زحف باتجاه علي الذي دفن رأسه بين يديه، وقد ألصق جبهته إلى الأرض وكأنه يريد إدخالها بها:

-هه. علي. خذ. عرق.

لم يجبه علي. بل لم يصغ إليه. لم يسأله جلال مرة أخرى، إنما وضع القنينة بجانبه وراح ينتظر نهاية القصف كالآخرين وهو يعلم أنها ليست المرة الأولى التي لم يصغ فيها إليه أحد. وحتى هذاك المخبول. سلام ليس جاداً في طلبه. لقد حاول ذات مرة أن يمنحه بعضاً من العرَق إلا أنه أجاب:

-ليس الآن أرجوك.

فيما كان يرتجف خوفاً

fb/the.boooks

لقد ركنوا جميعاً إلى صمتهم. لم يهدأ القصف. أصبحت السماء كقطع من الصفائح الساخنة، وتلك الالتماعات البعيدة أصبحت الآن قريبة، أقرب من النجوم، التي بدت وكأنها تبحث عن مكانها لتجعل تلك الإطلاقات تفترس الفضاء الذي أخذ يسخن بسرعة. شرعت الالتماعات تقترب كنصالٍ حادّة، بإمكان علي الذي رفع رأسه الآن قليلاً أن يستحضر صوراً أخرى في رأسه، صور سيوف لمّاعة، نيران بعيدة، هزّات أرضية سمع بها فقط. النصال تقترب وتصبح أكثر قرباً من السيارة التي شخصت في مكانها وكأنها تسخر من أولئك الذين انبطحوا على بطونهم. فهي أيضاً مثلهم اعتادت الدوي المتكرر والقصف الشديد. واقفة في مكانها كثورٍ خرافي كبير، وكأنها تصغي إلى جملة جلال التي قالها ذات ليلة :سيارتي وأعرفها. تأخذ وضع انبطاح على طريقتها. صحيح أن جلال قد جعل منها .عروس. كما يتبجح، فقد زينها من الداخل بصور مختلفة لفنانين مصريين ولاعبي كرة قدم وبصوره هو أيضاً، وبمسجل صنع له خصيصاً علبة لوضع الأشرطة. صحيح أنها أيضاً سيارته ويعرفها كما يقول. إلا أن .حظها الحسن. وليس .العوذة .التي عملتها له أمه. وعلقها لتتدلى أمامه هي ما يجعل القنابل تنشطر أمامها من دون أن تلحق بها ضرراً، بل تحيط بها، وبهم، وبالهواء.

ومع دوي القنابل تدوي أفكار مضطربة في رؤوسهم فيما راح بعضهم ينشب أصابعه في الأرض وكأنه يود الاختفاء تحتها. كذلك فعل علي فيما بدأ يتمتم بكلمات، أياً كانت، فإنها ضاعت وسط لعلعات المدفعية التي واظبت على ضجتها لفترة غير قصيرة.

لبرهة خفّ قصف المدفعية تدريجياً، ثم سكن كماكنة تعبة. ومن بعيد انبعثت رشقات خفيفة لبنادق من أماكن متناثرة. ليهدأ بعدها، كل شيء، ثم ليرتفع صوت جلال الذي أحدث نهوضه صوتاً:

-هذه الجولة الأولى.

وبعد أن انتهى من جملته، دفع القنينة إلى فمه. نهض نائب الضابط حميد:

-أراد الفرس أن يتمنوا لنا ليلة سعيدة.

ثم صاح بالاثنين اللذين ظلاّ بوضعهما بجلافة.

-انهضا.

fb/the.boooks

ثم غمز لجلال بعينه مشيراً إلى سلام:

-من القصف الثاني لا يخاف.

وقبل أن يكمل جملته فهم جلال ما يعنيه فقاطعه مشيراً إلى مؤخرة سلام:

-يرتاح للقصف المركّز.

نهض سلام وقد أدرك ما يعنيه جلال، فضربه بخفة على ظهره:

-دائماً تمزح.

نهض علي أيضاً، وقف قريباً منهما. لفّ ذراعيه حول صدره. تمتم:

-برد.

اتجه إلى مؤخرة السيارة، وبدون أن يلتفت إليهم، تشبثت يده بالباب الخلفي لقمارة السيارة. صعد واتجه إلى زاوية هناك. انتشرت تحت قدميه كارتونات معدودة. وضعت فيها لفائف من الخبز والكباب. فاحت رائحة الأكل التي أخذت تدريجياً تستفز معدته، رغم أنه قد أكل هذا العصر عند أهله، فقد لفّت له أمه دجاجة مع الخبز والطماطم والخيار. لقد بدأت معدته تضطرب وكأنها فارغة منذ أيام. هل هو الخوف؟ لا يدري. إنه أشبه بالتعلق بشيء ما يدرك المرء أنه لن يراه بعد الآن، بل حتى لن يشمه، لن

-هه. علي إنزل بسلاحك. هناك قصف مركّز .

لم يرد بادىء الأمر، إنما ظلّ مواظباً على تكوره كمن رأى أفعى تحت قدميه.

-علي. لا ينفع إلا الانبطاح.

كذلك صرخ به جلال والذي قفز إليه في الوقت ذاته ليسحبه من مكانه حيث جلس بجانب الأرزاق، ولم ينسَ أثناء سحبه له أن يأخذ قسماً من اللفائف معه، وعلّق ساخراً:

-قد تطول جلستنا تحت.

fb/the.boooks

وإذ أصبحا على الأرض في مكان يبعد عن السيارة، حيث انبطح الآخرون، تذكر جلال أنه قد نسي شيئاً ما في السيارة فهمس لنائب الضابط الذي استقر على بعد متر منه.

-العرَق. أخ كيف نسيته؟

ركض إلى السيارة مرة أخرى. فتح بابها بسرعة، وسحب من صندوق الحاجيات قنينة العرق. ثم رجع بها فرِحاً دافعاً إلى فمه جرعةً منها فوراً. وبصوتٍ يفوق أصوات القصف الذي ازدادت حدته الآن، صاح به الجندي الأول سلام:

-أرجوك اعطيني...

فقاطعه جلال قبل أن يكمل جملته، فيما بصق باتجاهه:

-آخ يا جلف اعطيك عيري.

ولكي يغيظه دفع إلى فمه جرعة أخرى وتمتم:

-طيب يسلم على الروح.

ثم دفع القنينة إلى نائب الضابط.

-خذ أبو ماجد. هدئ أعصابك.

كان نائب الضابط حميد مستسلماً إلى خوفه، حتى إنه لم يجرؤ على رفع رأسه فتمتم من مكانه:

-ليس الآن

أجابه جلال:

-مثلما تحب.

زحف باتجاه علي الذي دفن رأسه بين يديه، وقد ألصق جبهته إلى الأرض وكأنه يريد إدخالها بها:

-هه. علي. خذ. عرق.

fb/the.boooks

لم يجبه علي. بل لم يصغ إليه. لم يسأله جلال مرة أخرى، إنما وضع القنينة بجانبه وراح ينتظر نهاية القصف كالآخرين وهو يعلم أنها ليست المرة الأولى التي لم يصغ فيها إليه أحد. وحتى هذاك .المخبول. سلام ليس جاداً في طلبه. لقد حاول ذات مرة أن يمنحه بعضاً من العرَق إلا أنه أجاب:

-ليس الآن أرجوك.

فيما كان يرتجف خوفاً

لقد ركنوا جميعاً إلى صمتهم. لم يهدأ القصف. أصبحت السماء كقطع من الصفائح الساخنة، وتلك الالتماعات البعيدة أصبحت الآن قريبة، أقرب من النجوم، التي بدت وكأنها تبحث عن مكانها لتجعل تلك الإطلاقات تفترس الفضاء الذي أخذ يسخن بسرعة. شرعت الالتماعات تقترب كنصالٍ حادّة، بإمكان علي الذي رفع رأسه الآن قليلاً أن يستحضر صوراً أخرى في رأسه، صور سيوف لمّاعة، نيران بعيدة، هزّات أرضية سمع بها فقط. النصال تقترب وتصبح أكثر قرباً من السيارة التي شخصت في مكانها وكأنها تسخر من أولئك الذين انبطحوا على بطونهم. فهي أيضاً مثلهم اعتادت الدوي المتكرر والقصف الشديد. واقفة في مكانها كثورٍ خرافي كبير، وكأنها تصغي إلى جملة جلال التي قالها ذات ليلة :سيارتي وأعرفها. تأخذ وضع انبطاح على طريقتها. صحيح أن جلال قد جعل منها .عروس. كما يتبجح، فقد زينها من الداخل بصور مختلفة لفنانين مصريين ولاعبي كرة قدم وبصوره هو أيضاً، وبمسجل صنع له خصيصاً علبة لوضع الأشرطة. صحيح أنها أيضاً سيارته ويعرفها كما يقول. إلا أن .حظها الحسن. وليس .العوذة .التي عملتها له أمه. وعلقها لتتدلى أمامه هي ما يجعل القنابل تنشطر أمامها من دون أن تلحق بها ضرراً، بل تحيط بها، وبهم، وبالهواء.

ومع دوي القنابل تدوي أفكار مضطربة في رؤوسهم فيما راح بعضهم ينشب أصابعه في الأرض وكأنه يود الاختفاء تحتها. كذلك فعل علي فيما بدأ يتمتم بكلمات، أياً كانت، فإنها ضاعت وسط لعلعات المدفعية التي واظبت على ضجتها لفترة غير قصيرة.

لبرهة خفّ قصف المدفعية تدريجياً، ثم سكن كماكنة تعبة. ومن بعيد انبعثت رشقات خفيفة لبنادق من أماكن متناثرة. ليهدأ بعدها، كل شيء، ثم ليرتفع صوت جلال الذي أحدث نهوضه صوتاً:

fb/the.boooks

-هذه الجولة الأولى.

وبعد أن انتهى من جملته، دفع القنينة إلى فمه. نهض نائب الضابط حميد:

-أراد الفرس أن يتمنوا لنا ليلة سعيدة.

ثم صاح بالاثنين اللذين ظلاّ بوضعهما بجلافة.

-انهضا.

ثم غمز لجلال بعينه مشيراً إلى سلام:

-من القصف الثاني لا يخاف.

وقبل أن يكمل جملته فهم جلال ما يعنيه فقاطعه مشيراً إلى مؤخرة سلام:

-يرتاح للقصف المركّز.

نهض سلام وقد أدرك ما يعنيه جلال، فضربه بخفة على ظهره:

-دائماً تمزح.

نهض علي أيضاً، وقف قريباً منهما. لفّ ذراعيه حول صدره. تمتم:

-برد.

اتجه إلى مؤخرة السيارة، وبدون أن يلتفت إليهم، تشبثت يده بالباب الخلفي لقمارة السيارة. صعد واتجه إلى زاوية هناك. انتشرت تحت قدميه كارتونات معدودة. وضعت فيها لفائف من الخبز والكباب. فاحت رائحة الأكل التي أخذت تدريجياً تستفز معدته، رغم أنه قد أكل هذا العصر عند أهله، فقد لفّت له أمه دجاجة مع الخبز والطماطم والخيار. لقد بدأت معدته تضطرب وكأنها فارغة منذ أيام. هل هو الخوف؟ لا يدري. إنه أشبه بالتعلق بشيء ما يدرك المرء أنه لن يراه بعد الآن، بل حتى لن يشمه، لن يلمسه. الخوف أن تكون تلك هي اللحظات الأخيرة. ربما. وإذا لم يكن الأمر كذلك فلماذا تستفزه هذه الرائحة التي تدخل إلى خياشيمه وتحاصره وتجعله لا يتنفس. مدّ يده إلى إحدى اللفائف، سحبها بدون أن يفتش في محتواها في ذلك الظلام، وكأنه لم يأكل منذ زمن طويل. أتاه صوت جلال من خلف غطاء السيارة:

fb/the.boooks

-هه· علي· أخذت مكانك؟

وبلهجة خطابية أكمل:

-حسناً· سننطلق أيها الإخوة والأخوات·

سمعهم يصعدون إلى مقدمة السيارة، التي تحركت بعد دقيقة· سرت في جسده رجفة· فمع كل متر تقطعه السيارة يظهر أنه يتجه إلى طريق غامض· ومع نفسه يقول: .نسير باتجاه الموت. سيموت هذا ما يدركه· غداً، أو بعد غد· لا يهم فهو سيموت· وهذه الحرب ليست كباقي الحروب التي قرأ عنها في كتبه المدرسية ·ويبدو أنها لن تنتهي عاجلاً·

لماذا التحق مرة أخرى؟ وككل مرة يقسم أنّه لن يلتحق هذه المرة· ما الذي يشده إلى هنا· هل أصبحت الحرب روتيناً· لقد قال له أبوه للمرة العاشرة :

-ممكن أن تختبئ عند أقاربنا في الميمونة·

لكنه لم يرد، إنما كان دائماً يصمت· أو يجيبه:

-أعتقد أنّها الأيام الأخيرة للحرب·

كان يحاول أن يلقي الجملة بقناعة مزيفة· وهو يرى وجه أبيه الذي ينم عن ضحكة استهزاء مكتومة بصعوبة، ربما لأنه لا يريد أن يستفز ابنه· تلك الأيام التي عناها علي أصبحت شهوراً· وستكون شهوراً أخرى، لكنها لن تؤجل موته ·سيموت وإذ يتردد صدى الجملة في ذهنه، يخفق قلبه بسرعة، وترمش عيناه، فيما تضيق أنفاسه وتتداخل ذراعاه مع رجليه، يغرق في دوّامة تلفه وتلف الأرض معه، ولا يصحو إلا على صوت ريح أو دندنة جندي، فهو لا يحتاج إلى قصف شديد لكي يستيقظ· كل شيء قابل لاستفزازه في تلك اللحظة· دبيب نملة· سقوط نجمة في الفضاء المتباعد، وكأنه لا يود أن يباغت بما هو طارئ وغير متوقع· لا يريد أن يموت من دون أن يدري· يريد أن يعرف كيف، ومتى، ومن أية جهة يأتيه· فضول تاريخي قديم· متحفز كأرنب· يقفز من مكانه لمفاجأة حتى وإن كانت عابرة أو سخيفة· هكذا فعل عندما توقفت السيارة فجأة· فعندما رمى بصره بعيداً كان كل شيء قد بدا هادئاً باستثناء ليل يصهل في تلك البرية· لم يسمع هذه المرة دمدمة لجندي أو حركة غامضة غير عادية، إنما أتته من مقدمة السيارة أصواتهم متقطعة ومرتجفة يتخللها بين ثانية وأخرى صوت

fb/the.boooks

أجّش لمطربة عراقية. بعد برهة سمعهم ينزلون ويصفقون باب السيارة. راحت أصواتهم تقترب، حتى أصبح صوت جلال قريباً منه:

-علي إنزل، لقد أضعنا الطريق.

وضع لقمة الخبز إلى جانبه. نهض، قفز إليهم، وعندما أصبح بقربهم انتزع جملة من فمه بصعوبة:

-كيف. ضعنا؟

لم يأته أيما جواب، فقد كانوا منشغلين ببعضهم، أما هو فلم ينظر إليهم عندما ألقى جملته تلك، إنما زاغت عيناه بعيداً، وانفتح فمه:

-سيان، هنا أو في مكان آخر. تقصدون ضعنا؟ لقد ضعنا منذ زمن. لا فرق أن أموت هنا أم في مكان آخر. كل الأرض ميدان حرب ــ الموت من أمامكم والموت من ورائكم.

تطلع جلال إلى علي، وبدا بوجهه غير الحليق وفمه الذي انفتح بعرضه، بدا كأبله، أو كمن لا يريد أن يصدق. اقترب من علي وهمس :

-علي

وقبل أن يكمل قاطعه علي:

-أنظر أمامك. إنّهم في كل مكان، أنا أضحك لكلمة ضعنا. أنظر. إنها ساعة الموت تقترب. سيان لي أن أموت هنا أو في مكان آخر. لكني لا أريد أن أموت. أريد أن أعيش.

ابتسم جلال، فبدا مضحكاً في بزّته التي تهدل ذراعاها لانقطاع أزرارها. زجّ قميصه داخل بنطاله، همس لعلي :

-اصعد إلى مقدمة السيارة. بعد لحظة نتحرك.

ثم التفت إلى سلام :

-أنت اصعد خلف السيارة.

علّق سلام بصوت مائع:

fb/the.boooks

-لماذا· أنا أقدم منه· وهو جندي مكلّف· أما أنا فجندي متطوع ·

صرخ به جلال:

-اسمع ليس هناك الآن جندي مكلّف أو متطوع· أنا أقود السيارة· أنا من يقرر· خراي عليك وعلى رتبتك·

فردّ عليه مستفزاً:

-تشتم الشرف العسكري·

همّ جلال بالهجوم عليه، إلا أنّ نائب الضابط حميد أوقفه:

-يكفي· المهم الآن أن نجد الطريق·

هدأ جلال وتنفس ثم خاطب نائب الضابط:

-تعرف أبو ماجد كم هو .مخبل. هذا ·

صمتوا جميعاً وكأنّ شيئاً لم يحصل· أو كأن الذين تشاجروا قبل قليل آخرون غيرهم· لقد اعتادوا على هذه المعارك الصغيرة·

اتجه علي إلى مقدمة السيارة، وأخذ يراقبهم من مكانه· كانت أصواتهم تصله متقطعة، وكأنها قطرات تسقط من صنبور ماء في ليل هادئ· يصمتون عند كل اقتراح ليفكروا بعمق· كان هو بين لحظة وأخرى يحدق فيهم ثم يركن إلى نفسه ·ويتذكر البارحة· ألم يفكر أيضاً أنه سيموت· لا تزال ذكرى اليوم الفائت عالقة في ذهنه· والآن تبدو كلمات أمه بعيدة كتلك النجوم التي ومضت متألقة ·لقد نام ساعتها في حضنها وراحت هي تداعب شعره الأسود المجعد . يمه علي ــ منذ سنين وأنا أفكر متى يصبح علي سعيداً ومرتاحاً· امرأة صالحة وأطفال· يمه حياتك كانت دائماً هادئة وأنا مرتاحة منها. وتصمت برهة ثم:

ــ الحرب يا يمة تعذب روحي· كلما تذهب إلى الجبهة أفكر هل أشوفك مرة ثانية؟ وأفكر ماذا يفعل هناك؟ هل هو عطشان؟ جوعان؟ جريح يطلب المساعدة ·نائم· يمة تعرف كم أصرخ بإخوانك الصغار عندما يلعبون وأنت نائم· والآن أفكر، لا يمكن أن أعمل له شيئاً في الجبهة· مرات أفز يا يمة في وسط الليل وأصرخ مثل المجنونة علي لا تموت أوصّيك يمة لا تموت·

fb/the.boooks

وإذ تصمت فإنما لتدفع دمعة تحاول أن تشق طريقاً إلى الوجه الدائري، الذي حفرت تجاعيد الخمسين أخاديد عميقة فيه. وهو لا يستطيع حراكاً - يلامس أطراف ثوبها مستسلماً لحديث النفس الطويل، متمنياً لنفسه إغفاءة طويلة - كان بوده أن يغفو سنين في هذا الحضن ليس في البيت فقط، إنما في الجبهة. لم يقل لها إنه هو الآخر قد فزّ وسط الليل مرات كثيرة صارخاً باسمها. لم يقل لها إنه لا يريد أن يموت وهي بعيدة عنه. هو الآخر كان يسائل نفسه ما الذي تفعله الآن؟ هل نهضت من نومها؟ هل ذهبت إلى السوق؟ هل... هل؟ ولكثرة ما يتحدث عنها أطلق عليه الجنود اسماً مركّباً : .أهلاً بالوالدة. البارحة اقترحت عليه :

-يمة علي أنا خايفة هذه المرة. خذ نصيحة والدك واذهب إلى الميمونة. هناك لن يصلك أحد .

وككل مرة لم يحاول أن يقنعها ويقنع أباه وحسب إنما نفسه أيضاً فيقول :

-سيكون ذلك متعباً لكم ولي ــ زائداً المشاكل المترتبة على ذلك ــ لقد سمعت قصصاً عن استفزاز عوائل الجنود الهاربين. إنها مجرد أسابيع وستنتهي .

مع نفسه يدرك أن الأمر لا يتعلق بانتهاء الحرب أم تواصلها. إنما يعرف أيضاً أنه مهدد بالموت إذا ما هرب، سيعيدونه إلى هناك وسيعدمونه كما أعدموا الكثيرين. وهو لا يريد أيضاً ــ هكذا يقنع نفسه على الأقل ــ أن يسبب المصاعب لأهله. كان ذلك الشعور يلدغه، ويثقل عليه كحجر. فهو يعرف أنه سيموت طالما بقي في وحدته على خطوط التماس. سيموت حتى وإن استمرت الحرب أسبوعاً آخر لا غير، بل يوماً واحداً. ربما سيموت بعد ساعة. إنه ليس حدساً عابراً، بل يقيناً راسخاً منذ أن رأى الحرب بوجهها الحقيقي. فلقد ظنّ آنذاك أنّها حرب تشبه الحروب التي قرأ عنها في الكتب، في الأيام الأولى من التحاقه في وحدته العسكرية ظلّ معبئاً بالفضول. فكر، ليذهب إلى الجبهة ليرى ما يحصل .بعدها عرف أنه سيموت. ترى لماذا التحق مرة أخرى؟ وكأنّ قوة خفية تدفعه إلى هناك. أحياناً ينعت نفسه بالمغفل ويقول: .هل صحيح أنّك لا تريد أن تسبب لأهلك المشاكل. أم أنك ساذج لا أكثر ولا أقّل. ثم يجيب نفسه: .حسناً أنا ساذج ولكن أنا وحدي من له الحق في الشتيمة. هل هو مشدود إلى البشر هناك؟

وبلهجة خطابية أكمل:

fb/the.boooks

-حسناً. سننطلق أيها الإخوة والأخوات.

سمعهم يصعدون إلى مقدمة السيارة، التي تحركت بعد دقيقة. سرت في جسده رجفة. فمع كل متر تقطعه السيارة يظهر أنه يتجه إلى طريق غامض. ومع نفسه يقول: .نسير باتجاه الموت. سيموت هذا ما يدركه. غداً، أو بعد غد. لا يهم فهو سيموت. وهذه الحرب ليست كباقي الحروب التي قرأ عنها في كتبه المدرسية .ويبدو أنها لن تنتهي عاجلاً.

لماذا التحق مرة أخرى؟ وككل مرة يقسم أنّه لن يلتحق هذه المرة. ما الذي يشده إلى هنا. هل أصبحت الحرب روتيناً. لقد قال له أبوه للمرة العاشرة :

-ممكن أن تختبئ عند أقاربنا في الميمونة.

لكنه لم يرد، إنما كان دائماً يصمت. أو يجيبه:

-أعتقد أنّها الأيام الأخيرة للحرب.

كان يحاول أن يلقي الجملة بقناعة مزيفة. وهو يرى وجه أبيه الذي ينم عن ضحكة استهزاء مكتومة بصعوبة، ربما لأنه لا يريد أن يستفز ابنه. تلك الأيام التي عناها علي أصبحت شهوراً. وستكون شهوراً أخرى، لكنها لن تؤجل موته .سيموت وإذ يتردد صدى الجملة في ذهنه، يخفق قلبه بسرعة، وترمش عيناه، فيما تضيق أنفاسه وتتداخل ذراعاه مع رجليه، يغرق في دوّامة تلفه وتلف الأرض معه، ولا يصحو إلا على صوت ريح أو دندنة جندي، فهو لا يحتاج إلى قصف شديد لكي يستيقظ. كل شيء قابل لاستفزازه في تلك اللحظة. دبيب نملة. سقوط نجمة في الفضاء المتباعد، وكأنه لا يود أن يباغت بما هو طارئ وغير متوقع. لا يريد أن يموت من دون أن يدري. يريد أن يعرف كيف، ومتى، ومن أية جهة يأتيه. فضول تاريخي قديم. متحفز كأرنب. يقفز من مكانه لمفاجأة حتى وإن كانت عابرة أو سخيفة. هكذا فعل عندما توقفت السيارة فجأة. فعندما رمى بصره بعيداً كان كل شيء قد بدا هادئاً باستثناء ليل يصهل في تلك البرية. لم يسمع هذه المرة دمدمة لجندي أو حركة غامضة غير عادية، إنما أتته من مقدمة السيارة أصواتهم متقطعة ومرتجفة يتخللها بين ثانية وأخرى صوت أجّش لمطربة عراقية. بعد برهة سمعهم ينزلون ويصفقون باب السيارة. راحت أصواتهم تقترب، حتى أصبح صوت جلال قريباً منه:

-علي إنزل، لقد أضعنا الطريق.

fb/the.boooks

وضع لقمة الخبز إلى جانبه. نهض، قفز إليهم، وعندما أصبح بقربهم انتزع جملة من فمه بصعوبة:

-كيف. ضعنا؟

لم يأته أيما جواب، فقد كانوا منشغلين ببعضهم، أما هو فلم ينظر إليهم عندما ألقى جملته تلك، إنما زاغت عيناه بعيداً، وانفتح فمه:

-سيان، هنا أو في مكان آخر. تقصدون ضعنا؟ لقد ضعنا منذ زمن. لا فرق أن أموت هنا أم في مكان آخر. كل الأرض ميدان حرب ــ الموت من أمامكم والموت من ورائكم.

تطلع جلال إلى علي، وبدا بوجهه غير الحليق وفمه الذي انفتح بعرضه، بدا كأبله، أو كمن لا يريد أن يصدق. اقترب من علي وهمس :

-علي

وقبل أن يكمل قاطعه علي:

-أنظر أمامك. إنّهم في كل مكان، أنا أضحك لكلمة ضعنا. أنظر. إنها ساعة الموت تقترب. سيان لي أن أموت هنا أو في مكان آخر. لكني لا أريد أن أموت. أريد أن أعيش.

ابتسم جلال، فبدا مضحكاً في بزّته التي تهدل ذراعاها لانقطاع أزرارها. زجّ قميصه داخل بنطاله، همس لعلي :

-اصعد إلى مقدمة السيارة. بعد لحظة نتحرك.

ثم التفت إلى سلام :

-أنت اصعد خلف السيارة.

علّق سلام بصوت مائع:

-لماذا. أنا أقدم منه. وهو جندي مكلّف. أما أنا فجندي متطوع .

صرخ به جلال:

fb/the.boooks

-اسمع ليس هناك الآن جندي مكلّف أو متطوع. أنا أقود السيارة. أنا من يقرر. خراي عليك وعلى رتبتك.

فردّ عليه مستفزاً:

-تشتم الشرف العسكري.

همّ جلال بالهجوم عليه، إلا أنّ نائب الضابط حميد أوقفه:

-يكفي. المهم الآن أن نجد الطريق.

هدأ جلال وتنفس ثم خاطب نائب الضابط:

-تعرف أبو ماجد كم هو .مخبل. هذا .

صمتوا جميعاً وكأنّ شيئاً لم يحصل. أو كأن الذين تشاجروا قبل قليل آخرون غيرهم. لقد اعتادوا على هذه المعارك الصغيرة.

اتجه علي إلى مقدمة السيارة، وأخذ يراقبهم من مكانه. كانت أصواتهم تصله متقطعة، وكأنها قطرات تسقط من صنبور ماء في ليل هادئ. يصمتون عند كل اقتراح ليفكروا بعمق. كان هو بين لحظة وأخرى يحدق فيهم ثم يركن إلى نفسه .ويتذكر البارحة. ألم يفكر أيضاً أنه سيموت. لا تزال ذكرى اليوم الفائت عالقة في ذهنه. والآن تبدو كلمات أمه بعيدة كتلك النجوم التي ومضت متألقة .لقد نام ساعتها في حضنها وراحت هي تداعب شعره الأسود المجعد . يمه علي ــ منذ سنين وأنا أفكر متى يصبح علي سعيداً ومرتاحاً. امرأة صالحة وأطفال. يمه حياتك كانت دائماً هادئة وأنا مرتاحة منها. وتصمت برهة ثم:

ــ الحرب يا يمة تعذب روحي. كلما تذهب إلى الجبهة أفكر هل أشوفك مرة ثانية؟ وأفكر ماذا يفعل هناك؟ هل هو عطشان؟ جوعان؟ جريح يطلب المساعدة .نائم. يمة تعرف كم أصرخ بإخوانك الصغار عندما يلعبون وأنت نائم. والآن أفكر، لا يمكن أن أعمل له شيئاً في الجبهة. مرات أفز يا يمة في وسط الليل وأصرخ مثل المجنونة علي لا تموت أوصّيك يمة لا تموت.

وإذ تصمت فإنما لتدفع دمعة تحاول أن تشق طريقاً إلى الوجه الدائري، الذي حفرت تجاعيد الخمسين أخاديد عميقة فيه. وهو لا يستطيع حراكاً -

fb/the.boooks

يلامس أطراف ثوبها مستسلماً لحديث النفس الطويل، متمنياً لنفسه إغفاءة طويلة - كان بوده أن يغفو سنين في هذا الحضن ليس في البيت فقط، إنما في الجبهة. لم يقل لها إنه هو الآخر قد فزّ وسط الليل مرات كثيرة صارخاً باسمها. لم يقل لها إنه لا يريد أن يموت وهي بعيدة عنه. هو الآخر كان يسائل نفسه ما الذي تفعله الآن؟ هل نهضت من نومها؟ هل ذهبت إلى السوق؟ هل... هل؟ ولكثرة ما يتحدث عنها أطلق عليه الجنود اسماً مركّباً : .أهلاً بالوالدة. البارحة اقترحت عليه :

-يمة علي أنا خايفة هذه المرة. خذ نصيحة والدك واذهب إلى الميمونة. هناك لن يصلك أحد .

وككل مرة لم يحاول أن يقنعها ويقنع أباه وحسب إنما نفسه أيضاً فيقول :

-سيكون ذلك متعباً لكم ولي ــ زائداً المشاكل المترتبة على ذلك ــ لقد سمعت قصصاً عن استفزاز عوائل الجنود الهاربين. إنها مجرد أسابيع وستنتهي .

مع نفسه يدرك أن الأمر لا يتعلق بانتهاء الحرب أم تواصلها. إنما يعرف أيضاً أنه مهدد بالموت إذا ما هرب، سيعيدونه إلى هناك وسيعدمونه كما أعدموا الكثيرين. وهو لا يريد أيضاً ــ هكذا يقنع نفسه على الأقل ــ أن يسبب المصاعب لأهله. كان ذلك الشعور يلدغه، ويثقل عليه كحجر. فهو يعرف أنه سيموت طالما بقي في وحدته على خطوط التماس. سيموت حتى وإن استمرت الحرب أسبوعاً آخر لا غير، بل يوماً واحداً. ربما سيموت بعد ساعة. إنه ليس حدساً عابراً، بل يقيناً راسخاً منذ أن رأى الحرب بوجهها الحقيقي. فلقد ظنّ آنذاك أنّها حرب تشبه الحروب التي قرأ عنها في الكتب، في الأيام الأولى من التحاقه في وحدته العسكرية ظلّ معبئاً بالفضول. فكر، ليذهب إلى الجبهة ليرى ما يحصل .بعدها عرف أنه سيموت. ترى لماذا التحق مرة أخرى؟ وكأنّ قوة خفية تدفعه إلى هناك. أحياناً ينعت نفسه بالمغفل ويقول: .هل صحيح أنّك لا تريد أن تسبب لأهلك المشاكل. أم أنك ساذج لا أكثر ولا أقّل. ثم يجيب نفسه: .حسناً أنا ساذج ولكن أنا وحدي من له الحق في الشتيمة. هل هو مشدود إلى البشر هناك؟ فالبارحة كما في المرات السابقة يكتشف أنّ أيام الإجازة باستثناء فرحه لمنظر أهله ــ مملة ولا تكون ممتعة إلا حين يفكر بالعودة إلى خطوط النار ــ لا يدري ما إذا كان يشعر بشيء من الصفاء مع جنود حظيرته أو بطّاريته على العموم ــ هناك حيث يتقاسم مع الآخرين .كعكة الموت. كما

fb/the.boooks

يسميها· نوع من التضامن البشري ــ ربما؟ التضامن مع من تراه ضائعاً مثلك· كيف؟ ولماذا؟ تلك أسئلة يزيحها حالما تتواتر في ذهنه ــ بالنسبة إليه كلهم ميتون، يسخر من أولئك الذين يعتقدون أنهم لا يزالون أحياء· والآن تنغرس تلك الفكرة في أعماقه، الآن يعرف أكثر من ذي قبل أنهم ميتون لا محالة ·

طفق الهواء يهب الآن من الشمال، فبدا لذيذاً وهو يدخل من نافذة السيارة· وبعيداً مع الهواء خفق الظلام كثوباً من القطيفة السوداء، حاملاً إليه أصواتهم التي أخذت تقترب منه· انفتح باب السيارة وبرز جلال حاسر الرأس بدون بيرية يخاطب نائب الضابط الذي فتح الباب من الجهة الأخرى ·

-نسوق بهذا الاتجاه·

أشار باتجاه معين، وبقي مستقراً خلف المقود دون حراك بادئ الأمر كأنه يود أن ينتهي من الأمر نهائياً، فيما تلاشى صوته الذي اختلف عما كانه قبل أن يفقدوا الطريق، فيه رنة حزن كرنة ناي، وخزت قلب علي عميقاً· كذلك بدا جلال هادئاً حتى إنه ردّ بخفوت على سلام الذي تردد صوته في جنبات الليل:

-انتهى· صعدت· بإمكانك أن تنطلق ·

وقال مرة أخرى :

-نسير بدون هدف ثابت·

لا يدري علي لماذا بدا له جلال كشجرة عملاقة ولكن متآكلة بعض الشيء، تعبث بأغصانها ريح عاتية· وبغتة جلجل صوته متفوقاً على صوت الماكنة التي صخبت الآن ·

-واحد· اثنان· ثلاثة ·

وعندما انتهى من الرقم الأخير ضغطت قدمه على دوّسة البنزين لتنطلق السيارة بسرعة مطردة كسهم يريد اختراق الليل، الهواء، التيه ·

استمر الطريق هادئاً وفارغاً· كان صعباً على جلال قيادة السيارة بدون إنارة· وإن لم يبح بذلك، إلا أنّ من السهل ملاحظة ضيقه، فقد كان يدفع

fb/the.boooks

بصدره إلى الأمام ليلاصق مقود السيارة بعض الأحيان، وبعينين ذئبيتين متوثبتين يحاول تمييز الطريق، فيما كان علي ينظر إليه بين لحظة وأخرى، في الوقت الذي ظهر فيه نائب الضابط هادئاً ومتسمّراً في مكانه. أخرج نائب الضابط علبة سجائر، قدّم إلى جلال واحدة، فيما امتنع علي قائلاً:

-لا أدخن.

فأجابه:

-أكثر اقتصادية.

أشعل الاثنان السيجارتين. قال جلال:

-إذا وصلنا فالويل من الآمر. فهو لا يثق بنا ودائماً يتهمنا باللهو في البصرة.

فأجابه نائب الضابط حميد:

-أبداً. لن يهتم أحد في حضرتي. ثم المهم أن نجد الطريق الآن.

خرج علي عن صمته:

-لا فرق. اليوم أو غداً. لقد تساوت الأمور. وأنا لا أهتم بالتحاقي. كان من الأفضل ألاّ ألتحق.

نفث جلال الدخان بقوة وقال:

-أنت جندي مكلّف. كان عليك ألاّ تلتحق فعلاً. هل تدري عندما شاهدتك اليوم في سوق الخضار حاولت أن أشيح بوجهي عنك. كنت أدري أنك تنتظرنا لتصعد معنا. ولكني لم أستطع...

سكت ليعب نفساً آخر من الدخان:

-هناك شئ دفعني لأن أصيح بك. أنا أحياناً لا أستطيع تصور الكتيبة دون جنود مكلّفين. فعندما أرى جندياً مكلّفاً يتسرح أعيش نشوة التسريح من هذا الخرة الذي غطست فيه .

ثم التفت إلى نائب الضابط حميد:

fb/the.boooks

-تمام أبو ماجد.

وبدون أن ينظر إلى وجهه سخر منه نائب الضابط:

-إن موتك هو بهذا الشرف الذي تسميه خرة. ثانياً لم يجبرك أحد على التطوع.

أجاب جلال :

-أجبرني الفقر والجوع. الحب. كن نأكل وجبة طعام واحدة. مرقة بدون لحم. تصور عشرة أفراد وكان والدي معيلنا الوحيد. وعندما مرض. وبصراحة أيضاً في وقتها كنت أرغب في الزواج. في ذلك الوقت لم أجد غير الجيش ملاذاً. فقد حدثت نفسي آنذاك بأنه طالما سأساق إلى الخدمة العسكرية فلأتطوع خمس سنوات .والخمس سنوات اتضح أنها لا تنتهي إلا بالتقاعد إن لم يكن بالموت. هذا هو حال المتطوعين جميعاً. وتأتي أنت لتقول لي من أجبرك على التطوع. لو سألني جندي مكلف لفهمته. أما أنت يا أبو ماجد فلا.

فردّ عليه نائب الضابط:

-والآن شبعت بطنك فتريد أن تتسرح.

شعر جلال بالإهانة. أتى على بقية سيجارته. فتح النافذة ورماها بعيداً. ثم أغلق النافذة وقال :

-هل تريد أن تجرحني بهذه الجملة. إذا كنت أنت مرتاحاً للجيش فأتمنى لك جنازة حلوة. وبحركة بدت تمثيلية ومفتعلة لعلي أدار نائب الضابط رأسه إلى جلال وقال:

-أهلاً ومرحباً بالموت. فكلنا فداء للحزب والثورة. نحن جند القائد ندافع عن شرف الأمة.

تمتم جلال مع نفسه:

-خراي على هذه الأمة.

قالها بصوت خافت، هامس، فلم يسمعها سوى علي. سأله نائب الضابط: ماذا قلت؟

fb/the.boooks

فأجابه وقد تقلصت سحنته واجتاحته رغبة قوية في ألا يجد الطريق:

-لا شيء· لا شيء سوى أنني قلت سيكون جيداً لو نجد الطريق ·

سكت نائب الضابط وارتسم على وجهه تصميم واضح كمن يقول:

. -سألقنك درساً.

وفعلاً هذا ما فكر به، عندما رمى سيجرته بعيداً·

سرت في علي نشوة لذيذة، وأراد أن يلتفت إلى جلال ليحتضنه، فردد:

-آخ· إنّ ما يفرحنى هو أننا سنبقى حتى الفجر اليوم بدون وحدة عسكرية · إننا بلا شك بعيدون عن الجبهة· لدي شعور بأننا نسير باتجاه أقضية أو نواحٍ·

ثم قال لجلال مغتبطاً:

-إذا وصلنا ناحية أو قضاء سألبس ملابس مدنية· علّق جلال:

-إذاً لديك بعض منها·

هزّ علي رأسه كطفل· فقال جلال:

-عظيم· دعنا نحتفل الآن·قنينة العرق عند قدمك· أشار جلال له باتجاه الأسفل· ثم باليد نفسها أدار أزرار المسجل ليصدح صوت المطرب:

.نخل السماوة يكَول طرتني سمرة

سعف وكرب ظليت ما بيّة ثمرة.

ناوله علي القنينة فدفعها جلال مرة أخرى باتجاهه:

-هذه المرة أحلف بشرفي بأنّي لن أشرب قطرة إذا لم تشرب أنت أولاً·

تردد بعض الشيء· كان كمن يقبل على قرار خطير· إنها المرة الأولى له· وإذ لاحظ جلال تردده هتف به:

fb/the.boooks

-كن رجلاً وخذ جرعة.

وبسرعة دفع القنينة إلى فمه. وما إن نزلت قطرات العرق إلى جوفه، حتى شعر بسهام تقطع أوصاله. شهق. سعل ودمعت عيناه فردّد ضاحكاً:

-نار.

أخذ جلال القنينة. خفض صوت المسجل. صكّ أسنانه على فم القنينة، فيما لم يكفّ علي عن سعاله. ضحك نائب الضابط:

-إنه عرق وليس ماء.

وإذ هدأ أردف يقول:

-كلا لن أشرب بعد.

فرد جلال:

-لا تحتاج إلى أن تقسم إنها القنينة الأخيرة وستنتهي عاجلاً أم آجلاً. إذا لم يوصلنا الطريق إلى وحدتنا فأتمنى أن ننتهي إلى إحدى النواحي .وسنجد عرقاً هناك. وداعيك أنا مثل السمكة لا أقدر أن أعيش بدون عرق.

أغلق القنينة. ناولها إلى علي الذي أرجعها إلى مكانها السابق. ثم طلب من جلال أن يفتح النافذة. شعر بالهواء لذيذاً رغم أنه قد برد بعض الشيء . اخترقت لسعات الهواء قميصه ولذعت مسامات جلده. شعر برأسه يدور فامتدت يده ليخفض صوت المسجل إلى أدنى حد. لم يعترض جلال عليه. ومع الوقت أحسّ بلهيب يرتفع من أسفل بطنه، يصعد إلى فوق، يستقر عند البلعوم. لقد دوخته تلك القطرات القليلة بالفعل. أصبح رأسه من الثقل حتى تخيل أنّ ما يستقر فوق رقبته سندان ثقيل. لقد تحدث له الكثيرون عن تأثير العرق، ولكنه لم يكن يعرف أنه يفتح صمّامات الرأس بهذه القوة ويلوي لسانه بادئ الأمر، ثم يدب في جسمه خدر يبدو ثقيلاً أول وهلة، إلا أنه بعد دقائق أخرى يسري بإيقاع لذيذ يجعل ظهره مسترخياً، ويرجع قليلاً إلى الوراء ويسند رأسه إلى الخلف، وأمام عينيه تتراقص نقاط أو خيوط فضية، كما تتزاحم حزمة من أشعة الشمس في كوّة صغيرة أو كارتطام هذا الشعاع في منتصف النهار على زجاج نافذة أو على صفحة نهر. مع تلك التشكيلات المختلفة تتراءى لعينيه هيئات غريبة وعديدة. هيئات بإمكانه الآن أن يشكل منها ما يريد، أن يلعب بها كما يشاء. هيئات

fb/the.boooks

أجمل من تلك التي تأتيه في الأحلام. تلك هيئة أمه التي تتحرك بسرعة عجيبة أمامه، تبدأ كبيرة ثم تصغر. تصغر لكنها لا تختفي إنما تنقلب إلى هيئة أخرى. وجه أبيه يظهر الآن كاملاً. يستطيع أن يعاين ملامحه وتجاعيده الخمسينية. قريب هذا الوجه لعينيه حتى إنّه بوسعه أن يعرف كم من التعب مرّ بهذا الوجه. فجأة يصغر هذا الوجه، يصغر، فتتقافز هيئات إخوته وأخواته أمامه، تختلط أعمارهم، فلا يمكنه تحديد من فيهم الأكبر سناً ويجد نفسه معهم في حديقة المدينة فوق عشب غسلته شمس العيد التي احتضنت أشجار المتنزة، والتي التمعت أوراقها تعكس ارتجاجات فضية راحت تنافس التماعات عينيه. وفجأة يظهر وجه جارتهم بتول التي لم يجرؤ أن يصارحها بحبه، والتي اختفت بسرعة عجيبة كما تختفي عندما يلمحها خلف باب دارهم واقفة. كلا لم يكن العرق. لقد كان أمراً أبعد. وإلاّ لماذا يختفي هذا الليل المقفر والمهجور أمامه. ولماذا يشعر كما لو أنه نام ساعات، حتى إنه استيقظ متعباً، ليفتح جفنيه وكأنه يرفع عُصابة سميكة شُدّت إليهما. وبالفعل بعد أن فرك عينيه تطلّع فيما حوله بجانبه فوجد نفسه وحيداً في السيارة. لم يصدق أول الأمر. أخذه الذعر، حتى سمع أصواتاً تأتيه من النافذة. كان جسمه قد استقر في مقعد السيارة. رفع جذعه. فتح النافذة .كانت السيارة تقف عند جدول صغير. تثاءب الفجر أمامه وألقت شمسه لهباً من الضياء الأشهب، فيما بدت له شجيرات النخيل ضاحكة. لا يدري لماذا خطرت هذه الفكرة في ذهنه. وكان كمن لم يرَ نخلة منذ زمن طويل. كذاك الذي يهتف بعد ضياع طويل .تلك هي القرية:.

بدا له الجدول الصغير، حيث انتشرت الشجيرات على ضفافه مغرياً بالسباحة، لا سيّما عندما سمع طرطشات الماء التي أحدثها الآخرون عند سباحتهم. فتح باب السيارة ونزل. استقبلته نسائم الفجر التي لم تلمس العشب الذي امتد أمامه، إنما حاولت أن ترخي جفنيه اللذين كان من الصعب إغلاقهما هذه المرة، واللذين لم يصدقا أنهما يريان فجراً في هذا العراء بدون أن تكون في القرب وحدة عسكرية.

شرع يتأمل المكان أمامه، لا يدري كيف اختفى اللون الكاكي من ذهنه . كذلك الحرب. في بطارّيته كان يقول لنفسه: .هل أصبت بعمى الألوان. إنني لا أرى أمامي سوى الكاكي؟. وقف كنخلة، فرك وجهه أمام الشمس كأنه يود الاغتسال تحتها. وقف بزهو.كأن ما من حرب هناك، أو كأن الحرب قد وقعت منذ سنين. وحتى هذرهم أصبح بعيداً عن أذنيه، قذفه الهواء بعيداً. وكان مع نفسه يطلق زفرات. :ربما هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها الفجر؟. عند تلك الجملة أصبح كل شيء مدعاة إلى

fb/the.boooks

الارتياب. أبصر فوق الشجيرات لوناً كامداً. بل شعر بما يشبه السعي إلى لون كهذا، كما لو أن شمس الصباح التي برزت من بين الشجيرات تخفق بشعاع متردد، أقبلت تحط على الأشجار كطيور تهم بمغادرة المكان بسرعة. لقد ارتاب من الريح ذاتها التي بدت غير أليفة الهبوب وكأنها كالحرب تود طرد بخار الفجر على نحو غير ملحوظ. لقد كانت حركاتها تثيره. داهمه خوف كثيف، واستحوذت الحرب مرة أخرى على تفكيره. فحدق في السماء. وكان على يقين بأنّ أمراً ما يحدث. لم يكن يتصور أنّ هذه السماء ستبقى صافية. هناك ما بعث على الريبة فيها. ولم تعد الشمس التي برزت الآن بوضوح تشبك خيوطها الفضية، تبعث في نفسه تطميناً. صحيح أنّ الطقس غداً جميلاً وبإمكانه الآن أن يبصر عموداً من نور الشمس يشق طريقاً أمامه وسط النخلات، إلا أنّ هاجساً ما فتئ يعذبه. وقف هنيهة أخرى فوق المرج. توهجت خصلات من العشب تحت أقدامه، فيما بدت الحمائم التي استقرت فوق الشجيرات أمامه كائنات عصية. كم تمنى لو يعرف لغتها الآن، لقال لها: .لا أريد أن أموت أيتها الحمائم. أريد أن أرى كل فجر معكن. ولكن الحمائم بدت منشغلة مع بعضها على عجلة من أمرها وكأنها لا تود أن تترك ظلالها هناك.

ومن قرب سمع ثرثرتهم التي بدأت تقترب أكثر. وأتاه صوت يختلط مع خبطات الأيادي بالماء:

-علي انزل إلى الماء.

لم يكن في النهر سوى جلال وسلام. فيما جلس نائب الضابط حميد على ضفة النهر ساهماً. حدّق علي فيه وتساءل مع نفسه فيما إذا كان نائب الضابط يلعنهم في سريرته، وبأنّ الأمر بالنسبة إليه لم يعد يطاق. لقد كان وجهه يثبت هذا الاحتمال. فهو كعسكري محترف يرتاب بما يقوله جلال. .فلربما يدور في ذهن المجنون شيء آخر.، وهو لديه من القناعة ما يكفي ألاّ يرتهن لقرارات جلال. لقد عاش حروباً كثيرة، من حرب الأردن مروراً بحرب الأكراد ــ كما يسميها ــ إلى هذه الحرب. وعرف جنوداً كثيرين ومنهم جلال. وناس مثل جلال لا يملكون ــ كما يعتقد ــ ذرّة من المسؤولية. وهم ليسوا جنوداً أصيلين. وإلا لما بقي جلال مجرد جندي عادي طوال هذه المدة بدون ترقية. كان نائب الضابط حميد يعتقد أنّ الجندي كغيمة في السماء أو ورقة يابسة فوق الأرض تكتسحها الريح متى تشاء. هكذا ينبغي للجنود، عليهم الإذعان للأعلى مرتبة، لم تغره الحياة اليومية ولم يفكر بها. وفي قريتهم على أطراف سوق الشيوخ يشعر

fb/the.boooks

بالزهو عندما يأتي ببذلة نائب الضابط، ففي عشيرته آل حسّان لا يوجد رجل أعلى مرتبة منه. لذلك فإنّ لكلمته وزنها. بوسعه أن يحسم مشاكل كثيرة. لا يجادل رأيه أحد. هكذا يظن. ولقد أشاع هذه الروح عند أبنائه ماجد وحسّان(ابنته حسنية زوّجها من نائب عريف وهي في الرابعة عشرة) إنهم الآن يعرفون عن العسكرية أكثر مما يعرف هذا المجنون جلال. إنه فخور بذلك، لا سيما إذا ما فكر بأنهما سيصبحان ضابطين يوماً ما، وأحياناً يضحك في سره ويتخيلهم ضابطين في كتيبته، مدّ يده إلى شاربيه وابتسم. هزّ رأسه منتشياً كديك رومي. إنهم محظوظون لأن الحرب ــ كما يعتقد ــ لم تندلع وهم كبار، إنما أشعلت الآن .بعدها سيأتي زمان آخر. وحتى إذا ما نشبت حرب أخرى. فليكن، فهو لا يستطيع أن يتصور عالماً بلا حروب. وهل خلق الرجال لعمل آخر غير الحرب؟ لقد قال لماجد الذي بلغ الآن الحادية عشرة:

-منذ آدم والرجل خُلق ليقاتل. وإلاّ فلماذا هو أقوى من المرأة.

كان نائب الضابط حميد على قناعة بأن لديه قوة كافية للتفوق على زوجته، رغم نحافته التي تشبه نحافة المصابين بالتدرن. إلا أنّ فكرة واحدة في ذهنه، هي ما تجعل ذلك الجسد الناحل الهش، الذي يشبه جسد رجل السيرك، يشعر بالتفوق، وهي أنه عندما ينام مع زوجته فإنها تضطجع تحته. وطالما أنّ المرأة(تنسدح) تحت الرجل والرجل(يطحن) ــ كما يسمي المضاجعة ــ طالما أنّ المرأة ترفع رجليها وتفتح فخذيها وهو الذي يطعن بخنجره ــ كما يسمي عضوه ــ فهي إذن أدنى منه. ابتسم هنا أيضاً ومدّ يده إلى عضوه الذي تصلب بعض الشيء، ثم تراخى بعد برهة ما إن خطرت في رأسه فكرة أن يكون جلال فعلاً قد ضحك عليه. يعرف أنه هو وحده من يتحمل المسؤولية، وسيتعرض للعقاب ــ ربما ــ وأية عقوبة تعني شيئين بالنسبة إليه. أولهما الطعن بكبريائه العسكري وسجل انضباطه الذي احتفظ به نظيفاً ورعاه سنينَ. وثانيهما أنه سيستلم راتباً أقّل، والأمران خراب. خصوصاً إذا علم أحد من آل حسّان، وتلك مصيبة يجب تداركها. مسّد شاربه مرة أخرى وأنشأ يفكر بحل. عزم على النهوض فوراً وبالإلحاح على جلال لعله يعترف بالأمر. نهض من مكانه بهمة وقد خطرت له فكرة أخرى، ذلك لأنه على يقين من أنّ جلال: .ابن قحبة. ولن يبوح بنواياه، لذا فكّر أن يستدرج علياً. وفي تلك اللحظة بالضبط كان علي يتأمّل نائب الضابط حميد في جلسته، محاولاً أن يحرز ما يجول في خاطر هذا الرجل الذي جاوز الأربعين، والذي بدا لعلي غير مقنع بحماسته العسكرية التي تفوق حماسة جنرال. حتى إنّ علياً هزأ في

fb/the.boooks

داخلـه وقـال: . وكأنّـه المخطـط الأول لكـل حـروب العـراق. كـان علـي قـد أسـند جسـمه إلـى جـذع إحـدى الـنخلات وأمسـك بيريّتـه بيـده ·تقـدم نائـب الضـابط بـبطء منـه· كـان يـدوس الحشـائش بقدميـه كأنـه أرنـب يهـم بقفـزة مفاجئـة· وعندما أصبح بجانبه سأل:

-لم تسبح لحد الآن؟

فـوجئ علـي بسـؤاله؛ لقـد أزاح عينيـه قبـل قليـل عـن نائـب الضـابط· أصـبح أكثر انشغالاً في تفحص سريرته:

-بعـد دقـائق· هـل تعتقـد بأننـا سنرى جـداول مـرة أخـرى· علـى حـد علمـي لـيس هناك نهر قريب من وحدتنا·

ردّ عليه بصوت متملق:

-بالتأكيـد· إنهـا مسـألة وقـت· لا تقلـق سيخضـع المجـوس لشـروطنا فهـم جبناء· لا يستطيعون مقاومة اقتدارنا العالي·

-كن رجلاً وخذ جرعة·

وبسـرعة دفـع القنينـة إلـى فمـه· ومـا إن نزلـت قطـرات العـرق إلـى جوفـه، حتـى شعر بسهام تقطع أوصاله· شهق· سعل ودمعت عيناه فردّد ضاحكاً:

-نار·

أخـذ جـلال القنينـة· خفـض صـوت المسـجل· صـكّ أسـنانه علـى فـم القنينـة، فيمـا لم يكفّ علي عن سعاله· ضحك نائب الضابط:

-إنه عرق وليس ماء·

وإذ هدأ أردف يقول:

-كلا لن أشرب بعد·

فرد جلال:

fb/the.boooks

-لا تحتاج إلى أن تقسم إنها القنينة الأخيرة وستنتهي عاجلاً أم آجلاً. إذا لم يوصلنا الطريق إلى وحدتنا فأتمنى أن ننتهي إلى إحدى النواحي .وسنجد عرقاً هناك. وداعيك أنا مثل السمكة لا أقدر أن أعيش بدون عرق.

أغلق القنينة. ناولها إلى علي الذي أرجعها إلى مكانها السابق. ثم طلب من جلال أن يفتح النافذة. شعر بالهواء لذيذاً رغم أنه قد برد بعض الشيء . اخترقت لسعات الهواء قميصه ولذعت مسامات جلده. شعر برأسه يدور فامتدت يده ليخفض صوت المسجل إلى أدنى حد. لم يعترض جلال عليه. ومع الوقت أحسّ بلهيب يرتفع من أسفل بطنه، يصعد إلى فوق، يستقر عند البلعوم. لقد دوخته تلك القطرات القليلة بالفعل. أصبح رأسه من الثقل حتى تخيل أنّ ما يستقر فوق رقبته سندان ثقيل. لقد تحدث له الكثيرون عن تأثير العرق، ولكنه لم يكن يعرف أنه يفتح صمّامات الرأس بهذه القوة ويلوي لسانه بادئ الأمر، ثم يدب في جسمه خدر يبدو ثقيلاً أول وهلة، إلا أنه بعد دقائق أخرى يسري بإيقاع لذيذ يجعل ظهره مسترخياً، ويرجع قليلاً إلى الوراء ويسند رأسه إلى الخلف، وأمام عينيه تتراقص نقاط أو خيوط فضية، كما تتزاحم حزمة من أشعة الشمس في كوّة صغيرة أو كارتطام هذا الشعاع في منتصف النهار على زجاج نافذة أو على صفحة نهر. مع تلك التشكيلات المختلفة تتراءى لعينيه هيئات غريبة وعديدة. هيئات بإمكانه الآن أن يشكل منها ما يريد، أن يلعب بها كما يشاء. هيئات أجمل من تلك التي تأتيه في الأحلام. تلك هيئة أمه التي تتحرك بسرعة عجيبة أمامه، تبدأ كبيرة ثم تصغر. تصغر لكنها لا تختفي إنما تنقلب إلى هيئة أخرى. وجه أبيه يظهر الآن كاملاً. يستطيع أن يعاين ملامحه وتجاعيده الخمسينية. قريب هذا الوجه لعينيه حتى إنّه بوسعه أن يعرف كم من التعب مرّ بهذا الوجه. فجأة يصغر هذا الوجه، يصغر، فتتقافز هيئات إخوته وأخواته أمامه، تختلط أعمارهم، فلا يمكنه تحديد من فيهم الأكبر سناً ويجد نفسه معهم في حديقة المدينة فوق عشب غسلته شمس العيد التي احتضنت أشجار المتنزة، والتي التمعت أوراقها تعكس ارتجاجات فضية راحت تتنافس التماعات عينيه. وفجأة يظهر وجه جارتهم بتول التي لم يجرؤ أن يصارحها بحبه، والتي اختفت بسرعة عجيبة كما تختفي عندما يلمحها خلف باب دارهم واقفة. كلا لم يكن العرق. لقد كان أمراً أبعد. وإلاّ لماذا يختفي هذا الليل المقفر والمهجور أمامه. ولماذا يشعر كما لو أنه نام ساعات، حتى إنه استيقظ متعباً، ليفتح جفنيه وكأنه يرفع عُصابة سميكة شُدّت إليهما. وبالفعل بعد أن فرك عينيه تطلّع فيما حوله بجانبه فوجد نفسه وحيداً في السيارة. لم يصدق أول الأمر. أخذه الذعر، حتى سمع أصواتاً

fb/the.boooks

تأتيه من النافذة. كان جسمه قد استقر في مقعد السيارة. رفع جذعه. فتح النافذة .كانت السيارة تقف عند جدول صغير. تثاءب الفجر أمامه وألقت شمسه لهباً من الضياء الأشهب، فيما بدت له شجيرات النخيل ضاحكة. لا يدري لماذا خطرت هذه الفكرة في ذهنه. وكان كمن لم يرَ نخلة منذ زمن طويل. كذاك الذي يهتف بعد ضياع طويل .تلك هي القرية:.

بدا له الجدول الصغير، حيث انتشرت الشجيرات على ضفافه مغرياً بالسباحة، لا سيّما عندما سمع طرطشات الماء التي أحدثها الآخرون عند سباحتهم. فتح باب السيارة ونزل. استقبلته نسائم الفجر التي لم تلمس العشب الذي امتد أمامه، إنما حاولت أن ترخي جفنيه اللذين كان من الصعب إغلاقهما هذه المرة، واللذين لم يصدقا أنهما يريان فجراً في هذا العراء بدون أن تكون في القرب وحدة عسكرية.

شرع يتأمل المكان أمامه، لا يدري كيف اختفى اللون الكاكي من ذهنه . كذلك الحرب. في بطاريّته كان يقول لنفسه: .هل أصبت بعمى الألوان. إنني لا أرى أمامي سوى الكاكي؟. وقف كنخلة، فرك وجهه أمام الشمس كأنه يود الاغتسال تحتها. وقف بزهو.كأن ما من حرب هناك، أو كأن الحرب قد وقعت منذ سنين. وحتى هذرهم أصبح بعيداً عن أذنيه، قذفه الهواء بعيداً. وكان مع نفسه يطلق زفرات. :ربما هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها الفجر؟. عند تلك الجملة أصبح كل شيء مدعاة إلى الارتياب. أبصر فوق الشجيرات لوناً كامداً. بل شعر بما يشبه السعي إلى لون كهذا، كما لو أن شمس الصباح التي برزت من بين الشجيرات تخفق بشعاع متردد، أقبلت تحط على الأشجار كطيور تهم بمغادرة المكان بسرعة. لقد ارتاب من الريح ذاتها التي بدت غير أليفة الهبوب وكأنها كالحرب تود طرد بخار الفجر على نحو غير ملحوظ. لقد كانت حركاتها تثيره. داهمه خوف كثيف، واستحوذت الحرب مرة أخرى على تفكيره. فحدق في السماء. وكان على يقين بأنّ أمراً ما يحدث. لم يكن يتصور أنّ هذه السماء ستبقى صافية. هناك ما بعث على الريبة فيها. ولم تعد الشمس التي برزت الآن بوضوح تشبك خيوطها الفضية، تبعث في نفسه تطميناً. صحيح أنّ الطقس غداً جميلاً وبإمكانه الآن أن يبصر عموداً من نور الشمس يشق طريقاً أمامه وسط النخلات، إلا أنّ هاجساً ما فتئ يعذبه. وقف هنيهة أخرى فوق المرج. توهجت خصلات من العشب تحت أقدامه، فيما بدت الحمائم التي استقرت فوق الشجيرات أمامه كائنات عصية. كم تمنى لو يعرف لغتها الآن، لقال لها: .لا أريد أن أموت أيتها الحمائم. أريد

fb/the.boooks

أن أرى كل فجر معكن. ولكن الحمائم بدت منشغلة مع بعضها على عجلة من أمرها وكأنها لا تود أن تترك ظلالها هناك.

ومن قرب سمع ثرثرتهم التي بدأت تقترب أكثر. وأتاه صوت يختلط مع خبطات الأيادي بالماء:

-علي انزل إلى الماء.

لم يكن في النهر سوى جلال وسلام. فيما جلس نائب الضابط حميد على ضفة النهر ساهماً. حدّق علي فيه وتساءل مع نفسه فيما إذا كان نائب الضابط يلعنهم في سريرته، وبأنّ الأمر بالنسبة إليه لم يعد يطاق. لقد كان وجهه يثبت هذا الاحتمال. فهو كعسكري محترف يرتاب بما يقوله جلال. .فلربما يدور في ذهن المجنون شيء آخر.، وهو لديه من القناعة ما يكفي ألاّ يرتهن لقرارات جلال. لقد عاش حروباً كثيرة، من حرب الأردن مروراً بحرب الأكراد ــ كما يسميها ــ إلى هذه الحرب. وعرف جنوداً كثيرين ومنهم جلال. وناس مثل جلال لا يملكون ــ كما يعتقد ــ ذرّة من المسؤولية. وهم ليسوا جنوداً أصيلين. وإلا لما بقي جلال مجرد جندي عادي طوال هذه المدة بدون ترقية. كان نائب الضابط حميد يعتقد أنّ الجندي كغيمة في السماء أو ورقة يابسة فوق الأرض تكتسحها الريح متى تشاء. هكذا ينبغي للجنود، عليهم الإذعان للأعلى مرتبة، لم تغره الحياة اليومية ولم يفكر بها. وفي قريتهم على أطراف سوق الشيوخ يشعر بالزهو عندما يأتي ببذلة نائب الضابط، ففي عشيرته آل حسّان لا يوجد رجل أعلى مرتبة منه. لذلك فإنّ لكلمته وزنها. بوسعه أن يحسم مشاكل كثيرة. لا يجادل رأيه أحد. هكذا يظن. ولقد أشاع هذه الروح عند أبنائه ماجد وحسّان(ابنته حسنية زوّجها من نائب عريف وهي في الرابعة عشرة) إنهم الآن يعرفون عن العسكرية أكثر مما يعرف هذا المجنون جلال. إنه فخور بذلك، لا سيما إذا ما فكر بأنهما سيصبحان ضابطين يوماً ما، وأحياناً يضحك في سره ويتخيلهم ضابطين في كتيبته، مدّ يده إلى شاربيه وابتسم. هزّ رأسه منتشياً كديك رومي. إنهم محظوظون لأن الحرب ــ كما يعتقد ــ لم تندلع وهم كبار، إنما أشعلت الآن .بعدها سيأتي زمان آخر. وحتى إذا ما نشبت حرب أخرى. فليكن، فهو لا يستطيع أن يتصور عالماً بلا حروب. وهل خلق الرجال لعمل آخر غير الحرب؟ لقد قال لماجد الذي بلغ الآن الحادية عشرة:

-منذ آدم والرجل خُلق ليقاتل. وإلاّ فلماذا هو أقوى من المرأة.

fb/the.boooks

كان نائب الضابط حميد على قناعة بأن لديه قوة كافية للتفوق على زوجته، رغم نحافته التي تشبه نحافة المصابين بالتدرن. إلا أنّ فكرة واحدة في ذهنه، هي ما تجعل ذلك الجسد الناحل الهش، الذي يشبه جسد رجل السيرك، يشعر بالتفوق، وهي أنه عندما ينام مع زوجته فإنها تضطجع تحته. وطالما أنّ المرأة(تنسدح) تحت الرجل والرجل(يطحن) ــ كما يسمي المضاجعة ــ طالما أنّ المرأة ترفع رجليها وتفتح فخذيها وهو الذي يطعن بخنجره ــ كما يسمي عضوه ــ فهي إذن أدنى منه. ابتسم هنا أيضاً ومدّ يده إلى عضوه الذي تصلب بعض الشيء، ثم تراخى بعد برهة ما إن خطرت في رأسه فكرة أن يكون جلال فعلاً قد ضحك عليه. يعرف أنه هو وحده من يتحمل المسؤولية، وسيتعرض للعقاب ــ ربما ــ وأية عقوبة تعني شيئين بالنسبة إليه. أولهما الطعن بكبريائه العسكري وسجل انضباطه الذي احتفظ به نظيفاً ورعاه سنينَ. وثانيهما أنه سيستلم راتباً أقّل، والأمران خراب. خصوصاً إذا علم أحد من آل حسّان، وتلك مصيبة يجب تداركها. مسّد شاربه مرة أخرى وأنشأ يفكر بحل. عزم على النهوض فوراً وبالإلحاح على جلال لعله يعترف بالأمر. نهض من مكانه بهمة وقد خطرت له فكرة أخرى، ذلك لأنه على يقين من أنّ جلال: .ابن قحبة. ولن يبوح بنواياه، لذا فكّر أن يستدرج علياً. وفي تلك اللحظة بالضبط كان علي يتأمّل نائب الضابط حميد في جلسته، محاولاً أن يحرز ما يجول في خاطر هذا الرجل الذي جاوز الأربعين، والذي بدا لعلي غير مقنع بحماسته العسكرية التي تفوق حماسة جنرال. حتى إنّ علياً هزأ في داخله وقال: . وكأنّه المخطط الأول لكل حروب العراق. كان علي قد أسند جسمه إلى جذع إحدى النخلات وأمسك بيريّته بيده .تقدم نائب الضابط ببطء منه. كان يدوس الحشائش بقدميه كأنه أرنب يهم بقفزة مفاجئة. وعندما أصبح بجانبه سأل:

-لم تسبح لحد الآن؟

فوجئ علي بسؤاله؛ لقد أزاح عينيه قبل قليل عن نائب الضابط. أصبح أكثر انشغالاً في تفحص سريرته:

-بعد دقائق. هل تعتقد بأننا سنرى جداول مرة أخرى. على حد علمي ليس هناك نهر قريب من وحدتنا.

ردّ عليه بصوت متملق:

fb/the.boooks

-بالتأكيد. إنها مسألة وقت. لا تقلق سيخضع المجوس لشروطنا فهم جبناء. لا يستطيعون مقاومة اقتدارنا العالي.

صمت. حدّق في علي الذي بدا ساهماً. تنحنح ثم أردف:

-بالمناسبة. فأنا كما أعلم، أعرف أننا ننسحب إلى الخطوط الخلفية. انسحاب استراتيجي. لقد أخبرني الآمر قبل أيام.

ألقى نائب الضابط جملته دون أن تغادر عيناه وجه علي، وكأنه يفحص تأثير الجملة على سحنته التي لم تظهر عليها أمارة اهتمام. وبعد صمت قصير أضاف بمكر:

-المهم أن نصل إلى البطّارية بسرعة. ربما نستطيع أن ننسحب بسلام إن شاء الله. ولكني في حيرة. لا أدري إذا كان جلال فعلاً لا يستدل على الطريق .أنا أجيء معه للمرة الأولى. هل تعرف أنت الطريق؟

سحب علي جسده من جذع النخلة. أحنى قامته إلى الأرض. رفع حجراً صغيراً ليرميه وسط النهر. حدقت عيناه بدوائر المياه التي أحدثتها رمية الحجر، والتي أخذت تتسع أمامه.

-لا أعرف. ثم سيّان بالنسبة لي. رغم أنني لا أعرف سوى طريق واحد مليء بالجثث. لقد عرفته في المرة السابقة. وكنا نمر فقط بجثث ووحدات عسكرية. ثم إنّ طريقي لم يكن متشابهاً دائماً. لقد كنت أنتظر جلال في سوق الخضرة؛ فإذا لم يأتِ. صعدت مع سيارات عسكرية بعد أن أسالهم عن وحداتهم، إذا ما كانت قريبة من وحدتنا. ولكن ثق كل مرة... كنا نمر بجثث... الجثث ذاتها .أعتقد أنّ الجثث لا ترفع من أماكنها. تبقى تتعفن إلى فترات طويلة. هذه المرة فعل جلال أمراً حسناً. بالتأكيد اكتشف طريقاً آخر. لا أدري. المهم ألاّ أموت أنا. ألاّ تموتوا أنتم.

اقتربت منه أصوات جلال وسلام، واقترب معها لهاثهم الذي اختلط مع ضحكات عالية وزفرات للماء. فكر نائب الضابط أن يحسم الأمر بسرعة:

-فكر في الأمر جيداً. حاول أن تعصر ذاكرتك. فإن لم تستطع اسأل جلال .أنت الوحيد الذي يستطيع أن يساعدنا في الخروج من هذه المحنة. أنت جندي جيد يا علي. وأمامك مستقبل باهر.

fb/the.boooks

أراد أن يضحك من كلمة .باهر. التي أطلقها نائب الضابط. امتلأت نفسه بسخرية مُرّة. وأدرك للمرة الأولى كم هو معتم مستقبله، وكل ما خطط له قد انتهى في .أيلول 1980.. ولم يعد للثلاث سنوات التي درسها في إعدادية الصناعة معنى. وحلمه في أن يدرس في الجامعة التكنولوجية قد انتهى تماماً .وما يعرفه الآن أنه سيموت اليوم أو غداً أو بعد غد. والورطة الكبيرة هي هذه الحرب التي لم يفكر بشاكلتها العجيبة هذه. ترى من أي طينة جُبل هذا النائب ضابط؟ حدّق فيه بعينين متسائلتين وتفحص وجهه جيداً وقال :

-أنت نائب ضابط. حدثني كيف نخرج من ورطة الحرب. لقد مرّت شهور كثيرة ونحن بنفس... .أراد أن يقول. .الخرة. إلاّ أنه عدل، وحرّك رأسه، وتنفس بعمق كأنه مقدم على فعل كبير:

-حاول أن تعصر مخك أنت أيضاً أو إسأله أنت. هل أنت خائف؟

كزّ نائب الضابط على أسنانه وكتم غضبه. ومع نفسه كان يقول: .سألقنكم درساً ما إن نصل. ولكنه لم يشأ أن يستسلم، بل كان مصراً في التأثير على علي، مدّ يده ليقرصه من خده. نزع بيريته ومسح عرقاً تصبب على صلعته التي ظهرت الآن كصحن مفلطح وقال:

-حسناً اهدأ. لقد عنيت أمراً واحداً فقط. إنّ جلال يحترمك وسيقول لك كل شيء. لا يمكن أن نكون قد أضعنا الطريق.

هدأ ليكمل بعدها:

-عندما نصل سأحصل لك على إجازة فوراً. ما رأيك؟ إجازة لمدة أسبوع؟

دفع على يده بعيداً وصاح به:

-طز. اتركني لحالي أرجوك.

ومرة أخرى جاءه صوت جلال:

-علي ماذا تنتظر؟ إنزل إلى النهر.

لم يتردد هذه المرة، إنما نزع ملابسه بسرعة، وركض باتجاه النهر، طرطش الماء عندما ارتطم جسده به. شرع علي يسبح على ظهره، أسلم

fb/the.boooks

رأسه إلى النهر وراح يحرك قدميه. منح جسده حرية أن ينساب مع تيار الماء الذي كان بطيئاً كبطء أفكاره التي أخذت تتحرك في ذاكرته. ضحك عندما فكر في الإجازة التي يريد نائب الضابط منحه إياها. وكأنّ الأمر بهذه البساطة! ترى من أين أتت هذه القناعة لنائب الضابط؟ هل فقد الرجل عقله؟ إنه يعرف جيداً منذ أن كانوا في معسكر المحاويل. ورغم أنه هجر بعضاً من قسوته إلا أنه لم يتخلَّ عن مكره. من ذا الذي لا يعرف هذا الثعلب حميد جادر الذي لا يرى أمامه غير اللون الكاكي. فهو يود أن تكون السماء، الأرض، النهر، الأشجار، الغيوم، الريح والنباتات... كل شئ فيه حياة، بلون الكاكي، حتى لو عصبت عيناه فسوف لن يرى غير الكاكي. سرت في علي رجفة خفيفة فأدرك كم هو شرير هذا الرجل وتساءل مع نفسه، إذا كان من أشعل الحرب شريراً أيضاً ؟ أو أكثر شراً منه؟ وارتعب من هذه الفكرة التي مرت في ذهنه، وازداد خوفاً عندما عبرت في ذهنه صورة .القائد. سريعة، وخاطفة مثل ومضة برق أو طلقة سريعة. صورة واحدة من آلاف الصور، وهي عندما ألقى خطابه بعد أسبوع من الحرب. وكان للمرة الأولى يضع نظارة، لقد أثاره ذلك الأمر بلا شك، وظنّ أنّ هناك ما يريد أن يخفيه من خلال النظارات، أو أراد أن يضفي على نفسه وقاراً لا يملكه. وعندما توقف عند جملة ما، حاول أن يترك انطباعاً لدى المشاهدين بأنه يبكي، فمد يده إلى قدح الماء معلناً عن غصة، الآن تتضح لعلي كم كانت مقيتة. لا الغصة وحدها بل اللعبة. ففي اليوم الثاني بثّ رجال الأمن والحزب بحماسة فائقة الجملة التالية: .لقد بكى القائد عندما ردّد أسماء أبنائه الشهداء.، والآن يدرك علي كم بدا مقيتاً ظهور هذا الرجل على شاشة التلفزيون بنياشينه وبإشرافه على إخراج تلك التمثيلية، وكم هو مجاني موت علي أو حسين أو رضا. وكل ما قيل بعدها من أغانٍ وأهازيج وقصائد ساذجة لن يعزي دمعة أمه. قلب علي جسده وأخذ يسبح بوضع آخر. لم يستطع أن يمنع تساؤلاته التي أخذت تنثال عليه بوتيرة سريعة. بضيق سأل نفسه لماذا لم يدرك هذا الأمر في حينه. لماذا أحجم عن الصراخ ساعتها في حانوت الكتيبة:

-إنه يكذب.

هل كان غبياً ؟ أم أنّ الخوف جعله أبله؟ ما الذي يخاف فقدانه؟

توقف برهة وزاغ بعيداً من مكانه، كأنه يهرب من تساؤلاته. قلب جسده كمن يتقلب فوق فراش ولكن الفراش هذه المرة لين، فيه طراوة ولزوجة. دفن رأسه في الماء كبطة، أخرجه ونكث الماء العالق بشعره الأسود

fb/the.boooks

المجعد. لقد نفض الماء بقوة وكأنه يريد أن يخرج كل الأسئلة التي أخذت تتعبه وتزيد من اضطرابه .فجأة صاح: .طز. وراح يسبح بلا هدف.

كان شعاع الصباح ينهمر على شعره المجعد، فيشكل انعكاسات تكسره . استحوذت عليه كآبة راحت تثقل عليه. وبدا له الزمن كسولاً. ومع نفسه فكر. :كم كسول هو النهار بعمله. استمر يفكر كم هي غريبة الساعات والأيام. إنها تتلاشى في عد متكاسل. عكس أن يكون المرء في وضع سعيد، حينها لا يستطيع عد الساعات التي تختلس الوقت منه وتندلق كالماء بين الأصابع لتختفي في الزمن المتجمد. في الحرب، أو في الخدمة العسكرية على العموم، تغدو الساعة سنة .لقد راقب عقارب الساعة مرات كثيرة في المعسكر. وفي بعض الأحيان، وإن لم تتقدم ببطء شديد، فإنها بدت وكأنها تقف لتمعن في تعذيبه. ناهيك عن الملل الذي تبثه والذي يجعل الشرايين تتصلب مع العضلات، فيصبح الجسد ثقيلاً أثقل من خدمة الجيش نفسها. فكر مع نفسه ماذا لو ألغت البشرية الجيوش؟ ألاّ يصبح للزمن إيقاعاً آخراً ؟ ضرب الماء بقوة وسخر من تلك الفكرة. وفجأة أيقظه صوت جلال وسلام اللذين صاحا بصوت واحد، وهما يسرعان باتجاه الضفة:

-يا إلهي، من هذا القادم؟

وقبل أن تميز عيناه الكتل التي لم يشك في أنها جثث حملها جاري الماء، فاضت برائحة عفنة، بحثت عيناه عن الآخرين، كانوا قد اختفوا جميعاً ــ ظلّ متشبثاً بمكانه، فيما بدأت قدماه تضربان الماء بوهن وحذر. وكشخص مسرع يلقي عليه التحية مرت به ثلاث جثث لم يتبين ملامحها جيداً، ذلك لأنه لم يتعمد فحصها، إنما كانت عيناه، اللتان اندفعتا بعفوية، صحيح أنهما كانتا تريان، إلا أنهما لم تريا الجثث بتفاصيلها، إنما مجرد كتل عائمة أحاطت به بادئ الأمر ثم دارت دورة سريعة لا يعرف مغزاها، وتحركت مبتعدة ساحبة معها رائحتها التي أخذت تتلاشى تتدريجياً. جثث لثلاث بشر. هل تحجر قلبه إلى تلك الدرجة بحيث أنّ منظر الجثث لم يعد يثيره. كيف؟ قبل سنوات كثيرة. عندما كان صبياً جلب أقاربه من الريف جثة أحدهم وأودعوها عندهم في البيت. حدث ذلك ليلاً، وذهب أبوه مع الآخرين ليستأجروا سيارة لنقل الجثة إلى النجف. كانت أمه حينذاك مريضة ترقد في المستشفى. فيما لم يدرك إخوته الصغار الأمر. وظلّ لوحده في ساحة الدار مع تلك الجثة التي استقرت في التابوت، كانت ليلة صيفية، وكان المساء صافياً والنجوم تتدلى كعناقيد فضية. كان نور النجوم

fb/the.boooks

واضحاً لدرجة أنه استطاع تمييز من يرقد في التابوت، ذلك لأنهم لم يقفلوه بإحكام؛ إذ كان عليهم أن يعرضوه في المستشفى أولاً من أجل الحصول على شهادة الوفاة ــ كانت جثة فلاح في الخمسين، ولم يكن الوجه غريباً عليه فهو يعرف كاظم البنية ابن عمة أبيه. لكنه عرفه حياً والآن يرقد جثة. وبفضول أزاح غطاء التابوت جانباً. كان ضوء القمر ينعكس على هيئته، فبدا وجهه شاحباً)بلون الطين)كمعدن أبيض. في تلك الليلة لم يرد أن يحمل ما حدث محمل الجد .فلقد ظنّ أنه حلم، أو أنه أمر عابر سينتهي بعد لحظات. ولكنه راح يقلق وأخذت جبهته تتصبب عرقاً، فيما غزت ذهنه أفكار غريبة. وأخذ يفكر: ترى ما الذي سيحصل لكاظم البنية؟ ثم بدأ يحاول أن يحصي حسنات وسيئات كاظم. تملكته الحيرة، إذ لم يجد معياراً محدداً للقياس، زائداً أنه لا يعرف حياة كاظم بالضبط. كان من الصعب عليه أن يحدد مكاناً لكاظم سواء في الجنة أم في النار. واختلط عليه الأمر، حتى إنه تحول بدون أن يدري بتفكيره من كاظم إلى نفسه وراح ينبش في مخه عما سيحدث له لو مات. تخيل نفسه يرقد في تابوت .فداهمه خوف كبير. لقد بكى من رعبه. كان آنذاك في الرابعة عشرة من عمره. عصر مخه ليستخرج سيئة واحدة. لم يجد واحدة رغم أنه قد انقطع عن الصلاة قبل أشهر، بعد أن مارسها أسابيع قليلة، وبعد أن ضاق إمام الجامع بأسئلته المتشككة بوجود الله. فأمره أن ينتهي من الأمر في البيت وبعدها يستطيع القدوم؛ إذ ليس من الصحيح أن يؤثر على الآخرين الذين بدأ الشك يغزوهم ببطء .صحيح أنه لم يُصلّ بعد ذلك، وأنه قرر أن يفعل ذلك تباعاً. إلا أنه استسلم لفكرة وجود الله. وفسر القضية آنذاك بشكل بسيط مستسلماً لحل منطقي أغراه جداً، إذ فكر: لا فرق إن كان الله موجوداً من عدمه، فلقد آمنت به وسوف لن يحاسبني على ذلك، وإن لم يكن موجوداً فلن أخسر شيئاً. هكذا تمّ الأمر .ولذلك عندما جلس أمام تابوت كاظم ليفكر بالمعاصي التي ارتكبها، لم يفكر بشكه كمعصية، إنما أتى على حادثة صغيرة واحدة، وهي عندما أدرك ابنة عمته أن سناء عندهم، وألقى بجسدها على سُلّم الدار فمانعت أول الأمر إلا أنه أقنعها: . ما رأيك بقبلة فرنسية. وهو قد تعلم تلك القبلة من أحد الأفلام الفرنسية. وبفضول سألته: .كيف؟. فقال لها:

-سأريك:

ألقى بجسده فوقها وهمس لها:

-افتحي فمك.

fb/the.boooks

ففتحته، ثم أعقب يأمرها:

-هات لسانك ·

دفعت بلسانها إليه فأخذه بين شفتيه، فيما أخذ يرهز. عليها حتى أحسّ بعضوه يخترق ثوبها ويستقر بين فخذيها، ومع ازدياد أنينها ازدادت حماسته ولهاثه، حتى قذف أخيراً داخل ملابسه، فدفعته سناء عنها بعد أن بلل ثوبها أيضاً وقالت له:

-ابن خالي يفسدني·

-بالمناسبة· فأنا كما أعلم، أعرف أننا ننسحب إلى الخطوط الخلفية· انسحاب استراتيجي· لقد أخبرني الآمر قبل أيام·

ألقى نائب الضابط جملته دون أن تغادر عيناه وجه علي، وكأنه يفحص تأثير الجملة على سحنته التي لم تظهر عليها أمارة اهتمام· وبعد صمت قصير أضاف بمكر:

-المهم أن نصل إلى البطّارية بسرعة· ربما نستطيع أن ننسحب بسلام إن شاء الله· ولكني في حيرة· لا أدري إذا كان جلال فعلاً لا يستدل على الطريق ·أنا أجيء معه للمرة الأولى· هل تعرف أنت الطريق؟

سحب علي جسده من جذع النخلة· أحنى قامته إلى الأرض· رفع حجراً صغيراً ليرميه وسط النهر· حدقت عيناه بدوائر المياه التي أحدثتها رمية الحجر، والتي أخذت تتسع أمامه·

-لا أعرف· ثم سيّان بالنسبة لي· رغم أنني لا أعرف سوى طريق واحد مليء بالجثث· لقد عرفته في المرة السابقة· وكنا نمر فقط بجثث ووحدات عسكرية· ثم إنّ طريقي لم يكن متشابهاً دائماً· لقد كنت أنتظر جلال في سوق الخضرة؛ فإذا لم يأتِ· صعدت مع سيارات عسكرية بعد أن أسالهم عن وحداتهم، إذا ما كانت قريبة من وحدتنا· ولكن ثق كل مرة··· كنا نمر بجثث··· الجثث ذاتها ·أعتقد أنّ الجثث لا ترفع من أماكنها· تبقى تتعفن إلى فترات طويلة· هذه المرة فعل جلال أمراً حسناً· بالتأكيد اكتشف طريقاً آخر· لا أدري· المهم ألاّ أموت أنا· ألاّ تموتوا أنتم·

اقتربت منه أصوات جلال وسلام، واقترب معها لهاثهم الذي اختلط مع ضحكات عالية وزفرات للماء· فكر نائب الضابط أن يحسم الأمر بسرعة:

fb/the.boooks

-فكر في الأمر جيداً. حاول أن تعصر ذاكرتك. فإن لم تستطع اسأل جلال .أنت الوحيد الذي يستطيع أن يساعدنا في الخروج من هذه المحنة. أنت جندي جيد يا علي. وأمامك مستقبل باهر.

أراد أن يضحك من كلمة .باهر. التي أطلقها نائب الضابط. امتلأت نفسه بسخرية مُرّة. وأدرك للمرة الأولى كم هو معتم مستقبله، وكل ما خطط له قد انتهى في .أيلول 1980.. ولم يعد للثلاث سنوات التي درسها في إعدادية الصناعة معنى. وحلمه في أن يدرس في الجامعة التكنولوجية قد انتهى تماماً .وما يعرفه الآن أنه سيموت اليوم أو غداً أو بعد غد. والورطة الكبيرة هي هذه الحرب التي لم يفكر بشاكلتها العجيبة هذه. ترى من أي طينة جُبل هذا النائب ضابط؟ حدّق فيه بعينين متسائلتين وتفحص وجهه جيداً وقال :

-أنت نائب ضابط. حدثني كيف نخرج من ورطة الحرب. لقد مرّت شهور كثيرة ونحن بنفس... .أراد أن يقول. .الخرة. إلاّ أنه عدل، وحرّك رأسه، وتنفس بعمق كأنه مقدم على فعل كبير:

-حاول أن تعصر مخك أنت أيضاً أو إسأله أنت. هل أنت خائف؟

كزّ نائب الضابط على أسنانه وكتم غضبه. ومع نفسه كان يقول: .سألقنكم درساً ما إن نصل. ولكنه لم يشأ أن يستسلم، بل كان مصراً في التأثير على علي، مدّ يده ليقرصه من خده. نزع بيريته ومسح عرقاً تصبب على صلعته التي ظهرت الآن كصحن مفلطح وقال:

-حسناً اهدأ. لقد عنيت أمراً واحداً فقط. إنّ جلال يحترمك وسيقول لك كل شيء. لا يمكن أن نكون قد أضعنا الطريق.

هدأ ليكمل بعدها:

-عندما نصل سأحصل لك على إجازة فوراً. ما رأيك؟ إجازة لمدة أسبوع؟

دفع على يده بعيداً وصاح به:

-طز. اتركني لحالي أرجوك.

ومرة أخرى جاءه صوت جلال:

fb/the.boooks

-علي ماذا تنتظر؟ إنزل إلى النهر.

لم يتردد هذه المرة، إنما نزع ملابسه بسرعة، وركض باتجاه النهر، طرطش الماء عندما ارتطم جسده به. شرع علي يسبح على ظهره، أسلم رأسه إلى النهر وراح يحرك قدميه. منح جسده حرية أن ينساب مع تيار الماء الذي كان بطيئاً كبطء أفكاره التي أخذت تتحرك في ذاكرته. ضحك عندما فكر في الإجازة التي يريد نائب الضابط منحه إياها. وكأنّ الأمر بهذه البساطة! ترى من أين أتت هذه القناعة لنائب الضابط؟ هل فقد الرجل عقله؟ إنه يعرف جيداً منذ أن كانوا في معسكر المحاويل. ورغم أنه هجر بعضاً من قسوته إلا أنه لم يتخلَّ عن مكره. من ذا الذي لا يعرف هذا الثعلب حميد جادر الذي لا يرى أمامه غير اللون الكاكي. فهو يود أن تكون السماء، الأرض، النهر، الأشجار، الغيوم، الريح والنباتات... كل شئ فيه حياة، بلون الكاكي، حتى لو عصبت عيناه فسوف لن يرى غير الكاكي. سرت في علي رجفة خفيفة فأدرك كم هو شرير هذا الرجل وتساءل مع نفسه، إذا كان من أشعل الحرب شريراً أيضاً ؟ أو أكثر شراً منه؟ وارتعب من هذه الفكرة التي مرت في ذهنه، وازداد خوفاً عندما عبرت في ذهنه صورة .القائد. سريعة، وخاطفة مثل ومضة برق أو طلقة سريعة. صورة واحدة من آلاف الصور، وهي عندما ألقى خطابه بعد أسبوع من الحرب. وكان للمرة الأولى يضع نظارة، لقد أثاره ذلك الأمر بلا شك، وظنّ أنّ هناك ما يريد أن يخفيه من خلال النظارات، أو أراد أن يضفي على نفسه وقاراً لا يملكه. وعندما توقف عند جملة ما، حاول أن يترك انطباعاً لدى المشاهدين بأنه يبكي، فمد يده إلى قدح الماء معلناً عن غصة، الآن تتضح لعلي كم كانت مقيتة. لا الغصة وحدها بل اللعبة. ففي اليوم الثاني بثّ رجال الأمن والحزب بحماسة فائقة الجملة التالية: .لقد بكى القائد عندما ردّد أسماء أبنائه الشهداء.، والآن يدرك علي كم بدا مقيتاً ظهور هذا الرجل على شاشة التلفزيون بنياشينه وبإشرافه على إخراج تلك التمثيلية، وكم هو مجاني موت علي أو حسين أو رضا. وكل ما قيل بعدها من أغانٍ وأهازيج وقصائد ساذجة لن يعزي دمعة أمه. قلب علي جسده وأخذ يسبح بوضع آخر. لم يستطع أن يمنع تساؤلاته التي أخذت تنثال عليه بوتيرة سريعة. بضيق سأل نفسه لماذا لم يدرك هذا الأمر في حينه. لماذا أحجم عن الصراخ ساعتها في حانوت الكتيبة:

-إنه يكذب.

هل كان غبياً ؟ أم أنّ الخوف جعله أبله؟ ما الذي يخاف فقدانه؟

fb/the.boooks

توقف برهة وزاغ بعيداً من مكانه، كأنه يهرب من تساؤلاته. قلب جسده كمن يتقلب فوق فراش ولكن الفراش هذه المرة لين، فيه طراوة ولزوجة. دفن رأسه في الماء كبطة، أخرجه ونكث الماء العالق بشعره الأسود المجعد. لقد نفض الماء بقوة وكأنه يريد أن يخرج كل الأسئلة التي أخذت تتعبه وتزيد من اضطرابه .فجأة صاح: .طز. وراح يسبح بلا هدف.

كان شعاع الصباح ينهمر على شعره المجعد، فيشكل انعكاسات تكسره . استحوذت عليه كآبة راحت تثقل عليه. وبدا له الزمن كسولاً. ومع نفسه فكر. :كم كسول هو النهار بعمله. استمر يفكر كم هي غريبة الساعات والأيام. إنها تتلاشى في عد متكاسل. عكس أن يكون المرء في وضع سعيد، حينها لا يستطيع عد الساعات التي تختلس الوقت منه وتندلق كالماء بين الأصابع لتختفي في الزمن المتجمد. في الحرب، أو في الخدمة العسكرية على العموم، تغدو الساعة سنة .لقد راقب عقارب الساعة مرات كثيرة في المعسكر. وفي بعض الأحيان، وإن لم تتقدم ببطء شديد، فإنها بدت وكأنها تقف لتمعن في تعذيبه. ناهيك عن الملل الذي تبثه والذي يجعل الشرايين تتصلب مع العضلات، فيصبح الجسد ثقيلاً أثقل من خدمة الجيش نفسها. فكر مع نفسه ماذا لو ألغت البشرية الجيوش؟ ألاّ يصبح للزمن إيقاعاً آخراً ؟ ضرب الماء بقوة وسخر من تلك الفكرة. وفجأة أيقظه صوت جلال وسلام اللذين صاحا بصوت واحد، وهما يسرعان باتجاه الضفة:

-يا إلهي، من هذا القادم؟

وقبل أن تميز عيناه الكتل التي لم يشك في أنها جثث حملها جاري الماء، فاضت برائحة عفنة، بحثت عيناه عن الآخرين، كانوا قد اختفوا جميعاً ــ ظلّ متشبثاً بمكانه، فيما بدأت قدماه تضربان الماء بوهن وحذر. وكشخص مسرع يلقي عليه التحية مرت به ثلاث جثث لم يتبين ملامحها جيداً، ذلك لأنه لم يتعمد فحصها، إنما كانت عيناه، اللتان اندفعتا بعفوية، صحيح أنهما كانتا تريان، إلا أنهما لم تريا الجثث بتفاصيلها، إنما مجرد كتل عائمة أحاطت به بادئ الأمر ثم دارت دورة سريعة لا يعرف مغزاها، وتحركت مبتعدة ساحبة معها رائحتها التي أخذت تتلاشى تتدريجياً. جثث لثلاث بشر. هل تحجر قلبه إلى تلك الدرجة بحيث أنّ منظر الجثث لم يعد يثيره. كيف؟ قبل سنوات كثيرة. عندما كان صبياً جلب أقاربه من الريف جثة أحدهم وأودعوها عندهم في البيت. حدث ذلك ليلاً، وذهب أبوه مع الآخرين ليستأجروا سيارة لنقل الجثة إلى النجف. كانت أمه حينذاك

fb/the.boooks

مريضة ترقد في المستشفى. فيما لم يدرك إخوته الصغار الأمر. وظلّ لوحده في ساحة الدار مع تلك الجثة التي استقرت في التابوت، كانت ليلة صيفية، وكان المساء صافياً والنجوم تتدلى كعناقيد فضية. كان نور النجوم واضحاً لدرجة أنه استطاع تمييز من يرقد في التابوت، ذلك لأنهم لم يقفلوه بإحكام؛ إذ كان عليهم أن يعرضوه في المستشفى أولاً من أجل الحصول على شهادة الوفاة ــ كانت جثة فلاح في الخمسين، ولم يكن الوجه غريباً عليه فهو يعرف كاظم البنية ابن عمة أبيه. لكنه عرفه حياً والآن يرقد جثة. وبفضول أزاح غطاء التابوت جانباً. كان ضوء القمر ينعكس على هيئته، فبدا وجهه شاحباً)بلون الطين)كمعدن أبيض. في تلك الليلة لم يرد أن يحمل ما حدث محمل الجد .فلقد ظنّ أنه حلم، أو أنه أمر عابر سينتهي بعد لحظات. ولكنه راح يقلق وأخذت جبهته تتصبب عرقاً، فيما غزت ذهنه أفكار غريبة. وأخذ يفكر: ترى ما الذي سيحصل لكاظم البنية؟ ثم بدأ يحاول أن يحصي حسنات وسيئات كاظم. تملكته الحيرة، إذ لم يجد معياراً محدداً للقياس، زائداً أنه لا يعرف حياة كاظم بالضبط. كان من الصعب عليه أن يحدد مكاناً لكاظم سواء في الجنة أم في النار. واختلط عليه الأمر، حتى إنه تحول بدون أن يدري بتفكيره من كاظم إلى نفسه وراح ينبش في مخه عما سيحدث له لو مات. تخيل نفسه يرقد في تابوت .فداهمه خوف كبير. لقد بكى من رعبه. كان آنذاك في الرابعة عشرة من عمره. عصر مخه ليستخرج سيئة واحدة. لم يجد واحدة رغم أنه قد انقطع عن الصلاة قبل أشهر، بعد أن مارسها أسابيع قليلة، وبعد أن ضاق إمام الجامع بأسئلته المتشككة بوجود الله. فأمره أن ينتهي من الأمر في البيت وبعدها يستطيع القدوم؛ إذ ليس من الصحيح أن يؤثر على الآخرين الذين بدأ الشك يغزوهم ببطء .صحيح أنه لم يُصلّ بعد ذلك، وأنه قرر أن يفعل ذلك تباعاً. إلا أنه استسلم لفكرة وجود الله. وفسر القضية آنذاك بشكل بسيط مستسلماً لحل منطقي أغراه جداً، إذ فكر: لا فرق إن كان الله موجوداً من عدمه، فلقد آمنت به وسوف لن يحاسبني على ذلك، وإن لم يكن موجوداً فلن أخسر شيئاً. هكذا تمّ الأمر .ولذلك عندما جلس أمام تابوت كاظم ليفكر بالمعاصي التي ارتكبها، لم يفكر بشكه كمعصية، إنما أتى على حادثة صغيرة واحدة، وهي عندما أدرك ابنة عمته أن سناء عندهم، وألقى بجسدها على سُلّم الدار فمانعت أول الأمر إلا أنه أقنعها: . ما رأيك بقبلة فرنسية. وهو قد تعلم تلك القبلة من أحد الأفلام الفرنسية. وبفضول سألته: .كيف؟. فقال لها:

-سأريك:

ألقى بجسده فوقها وهمس لها:

fb/the.boooks

-افتحي فمك.

ففتحته، ثم أعقب يأمرها:

-هات لسانك .

دفعت بلسانها إليه فأخذه بين شفتيه، فيما أخذ يرهز عليها حتى أحسّ بعضوه يخترق ثوبها ويستقر بين فخذيها، ومع ازدياد أنينها ازدادت حماسته ولهاثه، حتى قذف أخيراً داخل ملابسه، فدفعته سناء عنها بعد أن بلل ثوبها أيضاً وقالت له:

-ابن خالي يفسدني.

لم يجبها، إنما استحوذ عليه خجل مفاجئ ولم يرفع رأسه، وظلّ منذ ذلك اليوم لا يجرؤ على النظر إليها. حدث ذلك قبل أسابيع من ليلة موت كاظم البْنَيّة. وفي تلك الليلة فكر بحجم المعصية التي ارتكبها. ازداد ارتجافه ونزلت دموعه. ولم تتوقف إلا عندما سمع ضجة أبيه وأقاربه تقترب. لقد سمع من الكثيرين روايات عن الموت. إلا أنه لم يلتق به هكذا وجهاً لوجه. لقد رأى جثثاً في أفلام الكاوبوي والجريمة، إلا أنّ الحالة تختلف هناك. فأن تعلم أنّ الأمر مجرد تمثيل شيء وأن ترى الموت حقيقة بحت موجودة أمامك بمادتها شئ آخر. ولقد أكدت له جثة كاظم البْنَيّة حقيقة أخرى. كم هو هش وصغير ذلك الكائن الذي اسمه الإنسان. ومنذ تلك الليلة غزته كوابيس شتى، تكتظ بجثث تشق طريقها في شوارع مكتظة هي الأخرى بجثث أخرى. والآن يتذكر علي كيف أنّ هذه الكوابيس لم تغادره إلى فترة طويلة. ولكن الغريب أنّ الأمر اختلف بعد اندلاع الحرب؛ إذ بدأت تغزوه أحلام جنسية واختفت من ذهنه كل مشاهدات الحرب اليومية، لتحل محلها وجوه مختلفة لأجساد عارية لا يستطيع تمييزها الآن .وجوه تتجاذب الآن أمام وجهه كالنخل الذي شرع يتحرك بتجاذب الريح. يتذكر علي أيضاً أنّه، منذ اندلاع الحرب، ومنذ أن رأى أولى الجثث على الجبهة، كفّ عن عد حسنات الميت وسيئاته. أولاً لأنه لا يعرف الميت، وثانياً حتى إذا عرفه فإنّ المعصيات تبدو هزيلة، قميئة، بالقياس إلى واقع الحرب. هل هناك معصية أكبر من الحرب؟ هل هناك أسوأ من سقوط الإنسان دون اختياره قرار الحرب؟ ترى أين الله إذن؟ ما هي السيئات التي ارتكبها هذا الرهط من البشر ليسقط بالآلاف مجاناً كل يوم؟ هل صحيح أنّ الله يريد هذه الحرب؟ وإذا كان الله موجوداً، فما هي مرتبة القائد بالنسبة إليه؟ مرة أخرى ارتجف. وتحرك من مكانه، ليدفع بيده إلى الأمام. دائماً، هرباً من

fb/the.boooks

أسئلة، قد لا يستطيع الإجابة عنها أو كما يردد الآن .طز.، وعندما تتملكه هذه الحالة فلأنه لا يعرف مخرجاً آخر· يعرف أنه سيموت في أية لحظة، اليوم، بعد لحظات، غداً ·سيموت· وفي لحظة واحدة يتحول وجه كاظم البْنَيّة إلى وجه ملاك الموت في رأسه، فتصحو كل المخاوف، ويتخيل العالم فقط جحيماً، جحيماً تتقاذفه فيه جثث من هنا وهناك· وتلك الجنة التي وُعد بها و.التي عرضها السموات والأرض .تتحول إلى مزبلة من الجثث· جثث لا تدرك ما فُعل بها وكيف قادتها الخديعة إلى جحيم لم تختره· مرة أخرى يصرخ السؤال في ذهنه: .أين الله؟. هل تسأل الجثث السؤال ذاته؟ ويسخر من هذا السؤال في داخله ليقول: .حتى لو كان الله موجوداً فلن أحترمه. لو قال تلك الجملة قبل الحرب لضحك الجميع منه· ولكن حتى أباه الذي سمع منه تلك الجملة قبل أيام ضحك، ثم قال له :

-أنظر سأفعل ما يرضيك·

ثم نهض من مكانه وسار باتجاه أمه التي كانت تصلي في تلك اللحظة· كانت قد وقفت باتجاه القبلة، فعندما كانت تردد دعاءً معيناً وكفّاها مضمومتان إلى الأمام· تحرك أبوه ببطء تناول في يديه زوجاً من النعل· لم يتصور أنّ أباه من الجرأة بحيث يضعهما في كفيّ أمه المفتوحتين للدعاء وليقول لها:

-هذا رزق من ربك·

فصرخت على الفور منذهلة:

-الله أكبر، الله أكبر·

ثم قطعت صلاتها· جلست، وبعد أن هدأت قالت:

-إذا ما تخاف من الله، فحاول أن تخاف على ابنك·

لم يرد أبوه، إنما استمر يضحك بهستيريا، وأشار إليه برأسه كي يرد عليها·

فأجابت:

-في هذا البيت لا يمكن لأحد أن يصلّي· من يتحمل الذنب غيرك يا أبو علي·

fb/the.boooks

حينها فكر علي بجدّية في قول أمه. وتساءل فيما إذا كانت الرغبة في الصلاة قد انتهت عند أمه، فراحت تبحث عن عذر لكي تقنع نفسها أنها ليست مذنبة، وأنها ما تزال تؤمن بالله. هل غزاها الشك أيضاً ؟ لقد كفّت فعلاً عن الصلاة. أما هو فلم يكتف بفكرة عدم احترام الله، إنما استقرت فكرة عدم وجوده كما تستقر صورة الله في ذهن فلاح .

اختفت الجثث تماماً مع رائحتها، بينما انطلقت أصوات الطائرات. ومن مكانه لمح كيف أنّ الحمائم هرعت مغادرة قمم النخيل باضطراب، وراحت تحلق بجنون مقتربة من بعضها وكأنّ الفضاء لم يعد يتسع لها. ومن الجهة الأخرى لأطراف النخيل هدرت أصوات المدفعية، وهناك اتجهت الطائرات أيضاً. سبح باتجاه الضفة. وفوراً راح يبحث عن ملجأ آمن؛ إذ من الممكن عند رجوع الطائرات أن تفرغ حمولتها فوق رؤوسهم. لقد اعتادت الطائرات المُطاردة ذلك .لقد فعلها الطيارون العراقيون والإيرانيون على السواء. لمح سدّة ترابية عالية. صاح:

-جلال. سلام. نائب ضابط حميد.

ضاع صوته مع هدير المدفعية التي بدأت عملها مع النهار. ومن أطراف النخيل تصاعد دخان كثيف. أخذ ملابسه واتجه إلى السدّة التي علت النهر بمترين. وعندما استقر في الجانب الآخر من السدّة، جلس فوق العشب، وبدأ يرتدي ملابسه. وعندما رفع وجهه إلى الأمام، كان من السهولة لعينيه أن تلمحا جلال وسلام اللذين اختفيا وراء نخلة. ليس أحدهما بجانب الآخر، إنما استقر جلال فوق سلام. كانا عاريين. وعندما فتح عينيه أكثر رأى بوضوح كيف أنّ جلال قد كشف مؤخرة سلام ليدفع بعضوه إليها، وهو يصيح:

-أبو العيورة، هاك عيري.

كان كمن يرى جثة للمرة الأولى. كان يرى مؤخرة جلال السمراء التي راحت تتحرك إلى فوق وتحت، وكأنها تضغط على إسفنج تحتها. فيما استمر سلام يئن:

-على كيفك جلال.

ومع ازدياد أصوات المدفعية يزداد لهاثهما، ليهدأ بعد ذلك تماماً، مع هدوء المدفعية. كان علي قد انتهى من ارتداء ملابسه، وعندما لمحهما قد انفصلا

fb/the.boooks

عن بعضهما، غادر مكانه بسرعة لأنه لم يرد أن يرياه. وإذ تحرك خطوات أسند يده إلى نخلة قريبة. شعر أنه يدوخ، وأنّ الأرض تدور به، كل شيء يدور، جثث، مياه، نخيل، طائرات، قنابل، مؤخرة جلال، لهاث سلام. يثقل عليه هذا الدوران، يضغط على معدته. وبدون رغبة منه راح يتقيأ، حتى إنه شعر بمعدته تنخلع من مكانها. ولقد بدت تلك المعدة الخاوية في تلك اللحظة مليئة ومضطربة. استمر لوقت غير قصير، ولو تُرك لوحده لأخذ يتقيأ ويتقيأ، فقد كان مخدّراً لا يعرف ما الذي حلّ به. ولحسن حظه وجده نائب الضابط الذي أمسكه من يده:

-ما الذي حلّ بك. تعال إلى السيارة.

وبعد قليل انضم إليهما سلام وجلال اللذان لبسا ملابسهما وقد انفتحت أسارير وجه جلال، وبدا وجهه مشعاً وكأنه قد حلق ذقنه للتو، أو أتاه خبر مفرح. وحتى عندما تقلصت عضلات وجهه، عندما حاول مواساة علي، إلا أنّه لم يخفِ ابتسامة رقيقة انتشرت فوق شفتيه العريضتين، لم يكتف بذلك، إنما ربت على كتفه وقال له:

-حاول أن تأكل شيئاً. معدتك خاوية.

كان علي قد ارتاح بعض الشيء، كأنّ معدته لم تتقيأ إلا عذاباً سرياً قديماً. فأجاب:

-إنّ الأمر أبعد من الأكل. أنا كمن أفرغ برميلاً من البارود في جوفه. كنت أتقيا الموت. هل تفهمون.

سلام لم يحاول أن يفهم على الإطلاق، إنما كان يود أن يرد عليه:

. -إنها فلسفة عمياء لا تشبع خبزاً.

أما نائب الضابط فكعادته يهرب من الجواب لينهال عليهم بتعليقات أخرى . وسيحمد حظه إذا لم تنتهِ بمواعظ وجمل طنّانة كتلك التي تعود سماعها كل ليلة في نشرات الأخبار والتعليقات السياسية أو الصباحية، وكانت تبدو لعلي سمجة ومملة، حتى إنها جعلته يفتقد كلمات جدته وجده اللذين كانا يقصان على أحفادهما ما جادت به ذاكرتهما. لقد افتقد تلك اللغة بشكل صميمي منذ أن بدأ يتفحص معاني التعليقات الصحافية. وتصور كم هو بليد وسخيف عندما كان يسخر من أجداده، لا سيّما من بعض الجمل التي تضمنتها حكاياتهم! الآن يعرف كم هي حكيمة تلك الجمل. والآن يفتش في

fb/the.boooks

رأسه عن حكمة باقية كتاجر خاسر يبحث في دفتر حساباته القديمة. لا شيء. لقد أضاع الكثير. فكر أن يقول لنائب الضابط الآن:

-كم أنت سخيف ومتملق.

حاول أن يفتح فمه. تردد لحظات، ثم أغلقه عندما سمع نائب الضابط، والذي ربما لاحظ تردده:

-هل تريد أن تقول شيئاً ؟

أشار برأسه أن لا. حينها عرف إلى أي مدى يكره نائب الضابط وردّد مع نفسه: .سأقتله. تحرك من مكانه واتجه إلى مؤخرة السيارة. تشبث بالباب ليصعد .تأخر للحظات عندما سمع جلال يناديه:

-ألا تريد أن تجلس في مقدمة السيارة.

-كلا.

وصعد هذه المرة وكأنه لا يريد سماع أي شيء آخر. حتى حديثهم الذي وصله متقطعاً بدا له غثاً وسخيفاً. ولم تعن أسئلة نائب الضابط لجلال بأي اتجاه يسيرون، ولا جواب جلال الذي قال له:

-من الأفضل أن نسير بموازاة النهر.

ربما كان علي يهجس في داخله أنّ جلالاً يقودهم إلى مكان آخر. لم يقلقه هذه المرة أنّهم قد تاهوا، على العكس تملّكه شعور بالإرتياح. وعندما تحركت السيارة ألقى رأسه إلى الخلف وتمنى أن ينتهوا حقاً إلى قرية قريبة.

لم يتوقف القصف إلا قريباً منهم؛ فلقد ظلّت بعض الأصوات المتقطعة تسمع من بعيد. ومن المؤكد، كما بدأ النهار في عمله، فقد بدأ الجيشان بعملهما الروتيني. مع اشتداد أشعة الشمس وقوتها يشتد قصف الطرفين، وكلما اتجه النهار إلى عمقه، عمّق الطرفان قصفهما. ولا يحتاج الأمر إلى معرفة كبيرة؛ فبإمكانهم أن يحددوا مكان القصف وزمانه. فمثلاً الآن لا يمكن أن يحدث ذلك إلا بمسافة لا تقل عن عشرين كيلومتر على يسار ضفة النهر. وكذلك الأمر مع الطائرات فهم يعرفونها من لونها؛ فإذا كانت معتمة فهي عراقية أمّا الرمادية فهي إيرانية.

fb/the.boooks

ثم قطعت صلاتها. جلست، وبعد أن هدأت قالت:

-إذا ما تخاف من الله، فحاول أن تخاف على ابنك.

لم يرد أبوه، إنما استمر يضحك بهستيريا، وأشار إليه برأسه كي يرد عليها.

فأجابت:

-في هذا البيت لا يمكن لأحد أن يصلّي. من يتحمل الذنب غيرك يا أبو علي.

حينها فكر علي بجدّية في قول أمه. وتساءل فيما إذا كانت الرغبة في الصلاة قد انتهت عند أمه، فراحت تبحث عن عذر لكي تقنع نفسها أنها ليست مذنبة، وأنها ما تزال تؤمن بالله. هل غزاها الشك أيضاً ؟ لقد كفّت فعلاً عن الصلاة. أما هو فلم يكتف بفكرة عدم احترام الله، إنما استقرت فكرة عدم وجوده كما تستقر صورة الله في ذهن فلاح .

اختفت الجثث تماماً مع رائحتها، بينما انطلقت أصوات الطائرات. ومن مكانه لمح كيف أنّ الحمائم هرعت مغادرة قمم النخيل باضطراب، وراحت تحلق بجنون مقتربة من بعضها وكأنّ الفضاء لم يعد يتسع لها. ومن الجهة الأخرى لأطراف النخيل هدرت أصوات المدفعية، وهناك اتجهت الطائرات أيضاً. سبح باتجاه الضفة. وفوراً راح يبحث عن ملجأ آمن؛ إذ من الممكن عند رجوع الطائرات أن تفرغ حمولتها فوق رؤوسهم. لقد اعتادت الطائرات المُطاردة ذلك .لقد فعلها الطيارون العراقيون والإيرانيون على السواء. لمح سدّة ترابية عالية. صاح:

-جلال. سلام. نائب ضابط حميد.

ضاع صوته مع هدير المدفعية التي بدأت عملها مع النهار. ومن أطراف النخيل تصاعد دخان كثيف. أخذ ملابسه واتجه إلى السدّة التي علت النهر بمترين. وعندما استقر في الجانب الآخر من السدّة، جلس فوق العشب، وبدأ يرتدي ملابسه. وعندما رفع وجهه إلى الأمام، كان من السهولة لعينيه أن تلمحا جلال وسلام اللذين اختفيا وراء نخلة. ليس أحدهما بجانب الآخر، إنما استقر جلال فوق سلام. كانا عاريين. وعندما فتح عينيه أكثر رأى بوضوح كيف أنّ جلال قد كشف مؤخرة سلام ليدفع بعضوه إليها، وهو يصيح:

fb/the.boooks

-أبو العيورة، هاك عيري.

كان كمن يرى جثة للمرة الأولى. كان يرى مؤخرة جلال السمراء التي راحت تتحرك إلى فوق وتحت، وكأنها تضغط على إسفنج تحتها. فيما استمر سلام يئن:

-على كيفك جلال.

ومع ازدياد أصوات المدفعية يزداد لهاثهما، ليهدأ بعد ذلك تماماً، مع هدوء المدفعية. كان علي قد انتهى من ارتداء ملابسه، وعندما لمحهما قد انفصلا عن بعضهما، غادر مكانه بسرعة لأنه لم يرد أن يرياه. وإذ تحرك خطوات أسند يده إلى نخلة قريبة. شعر أنه يدوخ، وأنّ الأرض تدور به، كل شيء يدور، جثث، مياه، نخيل، طائرات، قنابل، مؤخرة جلال، لهاث سلام. يثقل عليه هذا الدوران، يضغط على معدته. وبدون رغبة منه راح يتقيأ، حتى إنه شعر بمعدته تنخلع من مكانها. ولقد بدت تلك المعدة الخاوية في تلك اللحظة مليئة ومضطربة. استمر لوقت غير قصير، ولو تُرك لوحده لأخذ يتقيأ ويتقيأ، فقد كان مخدّراً لا يعرف ما الذي حلّ به. ولحسن حظه وجده نائب الضابط الذي أمسكه من يده:

-ما الذي حلّ بك. تعال إلى السيارة.

وبعد قليل انضم إليهما سلام وجلال اللذان لبسا ملابسهما وقد انفتحت أسارير وجه جلال، وبدا وجهه مشعاً وكأنه قد حلق ذقنه للتو، أو أتاه خبر مفرح. وحتى عندما تقلصت عضلات وجهه، عندما حاول مواساة علي، إلا أنّه لم يخفِ ابتسامة رقيقة انتشرت فوق شفتيه العريضتين، لم يكتف بذلك، إنما ربت على كتفه وقال له:

-حاول أن تأكل شيئاً. معدتك خاوية.

كان علي قد ارتاح بعض الشيء، كأنّ معدته لم تتقيأ إلا عذاباً سرياً قديماً. فأجاب:

-إنّ الأمر أبعد من الأكل. أنا كمن أفرغ برميلاً من البارود في جوفه. كنت أتقيا الموت. هل تفهمون.

سلام لم يحاول أن يفهم على الإطلاق، إنما كان يود أن يرد عليه:

fb/the.boooks

. -إنها فلسفة عمياء لا تشبع خبزاً.

أما نائب الضابط فكعادته يهرب من الجواب لينهال عليهم بتعليقات أخرى . وسيحمد حظه إذا لم تنتهِ بمواعظ وجمل طنّانة كتلك التي تعود سماعها كل ليلة في نشرات الأخبار والتعليقات السياسية أو الصباحية، وكانت تبدو لعلي سمجة ومملة، حتى إنها جعلته يفتقد كلمات جدته وجده اللذين كانا يقصان على أحفادهما ما جادت به ذاكرتهما. لقد افتقد تلك اللغة بشكل صميمي منذ أن بدأ يتفحص معاني التعليقات الصحافية. وتصور كم هو بليد وسخيف عندما كان يسخر من أجداده، لا سيّما من بعض الجمل التي تضمنتها حكاياتهم! الآن يعرف كم هي حكيمة تلك الجمل. والآن يفتش في رأسه عن حكمة باقية كتاجر خاسر يبحث في دفتر حساباته القديمة. لا شيء. لقد أضاع الكثير. فكر أن يقول لنائب الضابط الآن:

-كم أنت سخيف ومتملق.

حاول أن يفتح فمه. تردد لحظات، ثم أغلقه عندما سمع نائب الضابط، والذي ربما لاحظ تردده:

-هل تريد أن تقول شيئاً ؟

أشار برأسه أن لا. حينها عرف إلى أي مدى يكره نائب الضابط وردّد مع نفسه: .سأقتله. تحرك من مكانه واتجه إلى مؤخرة السيارة. تشبث بالباب ليصعد .تأخر للحظات عندما سمع جلال يناديه:

-ألا تريد أن تجلس في مقدمة السيارة.

-كلا.

وصعد هذه المرة وكأنه لا يريد سماع أي شيء آخر. حتى حديثهم الذي وصله متقطعاً بدا له غثاً وسخيفاً. ولم تعن أسئلة نائب الضابط لجلال بأي اتجاه يسيرون، ولا جواب جلال الذي قال له:

-من الأفضل أن نسير بموازاة النهر.

ربما كان علي يهجس في داخله أنّ جلالاً يقودهم إلى مكان آخر. لم يقلقه هذه المرة أنّهم قد تاهوا، على العكس تملّكه شعور بالإرتياح. وعندما

fb/the.boooks

تحركت السيارة ألقى رأسه إلى الخلف وتمنى أن ينتهوا حقاً إلى قرية قريبة.

لم يتوقف القصف إلا قريباً منهم؛ فلقد ظلّت بعض الأصوات المتقطعة تسمع من بعيد. ومن المؤكد، كما بدأ النهار في عمله، فقد بدأ الجيشان بعملهما الروتيني. مع اشتداد أشعة الشمس وقوتها يشتد قصف الطرفين، وكلما اتجه النهار إلى عمقه، عمّق الطرفان قصفهما. ولا يحتاج الأمر إلى معرفة كبيرة؛ فبإمكانهم أن يحددوا مكان القصف وزمانه. فمثلاً الآن لا يمكن أن يحدث ذلك إلا بمسافة لا تقل عن عشرين كيلومتر على يسار ضفة النهر. وكذلك الأمر مع الطائرات فهم يعرفونها من لونها؛ فإذا كانت معتمة فهي عراقية أمّا الرمادية فهي إيرانية.

سمع علي أصوات طائرات تقترب من السيارة. اتجه إلى حافة السيارة. مسك بعمود الحديد من الأعلى ومدّ رأسه ليعاين أي طائرات تلك التي تحلق الآن فوقه قبل أن تختفي. ميّز لونها فهمهم في ذاته: .غربان سود. ثم ردّد: .طز .إن كانت سوداء أم رمادية. لم يعد الأمر يثيره إلى هذه الدرجة فهو يعرف أنه سيموت اليوم، غداً. بعد لحظات. وأيّاً كان اللون، فلن ينقذه من موت محّتم، ومن رعب يشعه ذلك المعدن. وكأخته الصغيرة ذات الأربع سنوات، والتي ترتجف لمنظر أية طائرة تحلق فوق. لا ينفع أبداً عندما كان يوضح لها أبوها ألاّ داعي للخوف لأن الطائرات عراقية.

لقد رأى علي كيف أنها كانت تلتصق بالحائط، كأنها تدافع عن نفسها من طلقة تستهدفها. لم تكتف بذلك إنما كانت ترتعش ارتعاشات مذهلة لتسقط دمعة من عينها. دمعة واحدة. كلا لم تسقط إنما نطّت كقط يقفز من العلّية، وفي تلك اللحظة اتجه علي كالمجنون إلى الأرض ليرى أين سالت الدمعة. ترى هل سالت منها كما سالت قطرة العرق إلى جوفه تباعاً ؟ هل كانت مرّة لاهبة؟ يقيناً أنّ جوف أخته ربما قد التهب تلك اللحظة. من المؤكد أنّ حريقاً شبّ في داخلها. لن يعزيه أن تكون الطائرة عراقية أم إيرانية. من يعيد تلك الدمعة التي قذفتها كبركان يقذف حممه فجأة؟ لن تستطيع كل معابد العالم وكنائسه أن تمنحها العزاء. لقد احتضنها ساعتها، وأجهش معها في بكاء خفيف. استغربت الصغيرة فقالت لأمها:

-علي بكى من الطائرات. ثم حدّقت بوجهه، ولم تتوقف عن ارتعاشاتها:

-أمي تقول الصغار وحدهم يخافون. هذا مو صحيح الكل يريد الحياة.

fb/the.boooks

لعلها لو قالت تلك الجملة في زمن آخر لقال إنّ معجزة قد حصلت. فأن تنطق تلك الصغيرة بتلك الجملة، يعني أنّ أموراً كثيرة قد تغيرت. أجابها:

-لا أحد يريد أن يموت يا ريما.

استقرت في حضنه طيعة لينة ودفنت رأسها بين ذراعيه لتنام بعدها، دون أن تدري فيما إذا كفّت الطائرات عن التحليق أم لا. كم بدت حالتها له غريبة تلك الأيام. فلقد اعتادت أن تنام بين ذراعيه بعد كل قصف. وكان هو في فترات إجازته يهتم بها كثيراً. كم تمنى أن ينام مثلها بسرعة. لقد كان يشعر مراراً برغبة قوية في أن يغفو طويلاً كلما حدث قصف شديد. وعبثاً يحاول طرد فكرة النوم الملحّة من أعماقه. لقد حدث له ذلك مراراً على خطوط الجبهة. ففي الوقت الذي يحتمي معظم الجنود بسلاحهم يحتمي هو بالنوم. سيّان أكان ذلك نهاراً أم ليلاً. المهم أن يكون قصفاً أو تحليقاً، إيرانياً كان أم عراقياً. ولكنه أيضاً يعرف أنه لم يستطع أن ينام ولو مرة واحدة. لقد كان الصحو دائماً. كم كان يحسد أولئك الجنود الذين إذا ما ناموا راحوا يشخرون بحيث لا يستطيع أي قصف أن يوقظهم.

رجع علي إلى مكانه. وحاول هذه المرة الاستلقاء فوق خشبة السيارة. وما إن وضع رأسه بين كفّيه حتى فزّ على صوت نائب الضابط الكريه، الذي صاح بنبرة احتفالية ضاع جزء منها مع محرك السيارة وسمع الباقي عندما توقفت السيارة:

-مذبحة. اعتقد أنهم فرس.

نهض علي. تقدم بحذر وكأنه يخمّن ما سيراه. وبطء قفز من السيارة. تقدم بصمت.

لم يكن وحده الذي وقف هناك كتمثال من حجر. إنما وقف الآخرون أيضاً . حدّق أحدهم بالآخر. وباستثناء وجه نائب الضابط الذي جاهد أن يخفي اضطرابه، فقد بدا الاضطراب واضحاً على وجوه الآخرين.

لقد كان مشهداً غريباً. لقد انتشرت، وعلى مسافات متباعدة، جثث لعدد كبير من الجنود. وعلى الجوانب توزعت سيارات و(شفلات) حفر معطوبة لا تزال تتثاءب بدخانها. لم يسأل علي نفسه إن كانت جثثاً عراقية أم إيرانية. رغم أنه استطاع تمييز سحنتهم العراقية. ورغم أنه عرف أنهم بالتأكيد يعودون إلى إحدى البطّاريات التي تتولى شق طرق اسفلتية؛ فذلك

fb/the.boooks

واضح من شفلات الحفر ومن الطريق الذي بُدئ بشقه، زائداً القير الذي ما يزال يبعث حرارته. وهو يعرف أنّ الإيرانيين اعتادوا أيام الحرب الأولى ضرب خطوط التموين والإمدادات الخلفية.

خلع علي بيريته. مسح العرق الذي تصبب فوق جبينه واتجه بلا وعي إلى الجثث. وفجأة وكأنه تذكر شيئاً وبسرعة البرق سارع إلى نائب الضابط ليمسكه من كّم قميصه ويصرخ به:

-كم أنت كريه. وكم كريهة هي أفكارك. سيّان إن كانوا عراقيين أم إيرانيين. ألا ترى أنهم جثث فقط. أنت أيضاً جثة. حدّق بنفسك جيداً. ألا تدري أنك ميّت منذ زمن.

لم يحاول أي من الآخرين أن يمنعه من الصراخ بوجه نائب الضابط. فلقد انشغل كل منهم مع نفسه. وإذ حاول نائب الضابط أن يبعده، بادره علي بقيء مفاجئ. انسحب علي إلى الخلف وراح يفرغ جوفه. في الوقت الذي لطخ بعض القيء أطراف بنطال نائب الضابط وحذاءه. لم ينبس نائب الضابط بأية كلمة، إنما جلس إلى الأرض وراح يلقي بعضاً من التراب فوق أطراف بنطاله والحذاء، في الوقت الذي نهض فيه علي. مسح فمه بأطراف قميصه وخاطب نائب الضابط:

-إنك تستحق أكثر من القيء. أيها المسكين الذي لا يعرف أنه جثّة.

ثم استدار إلى جلال وسأله:

-ما رأيك يا جلال؟

فقال له جلال:

-إهدأ. اتركه.

-ثم حدّق بنائب الضابط باحتقار وسحب علي نحوه.

اتجهت الشمس إلى كبد السماء. راحت تلقي بصهدها الحار إليهم. وفي تلك الحرارة اللاهبة هاجت رائحة الجثث المتراكمة هناك. وبين تلك الجثث راح علي يشق طريقه مع جلال. يقلبان بعضها. ومع نفسه كان يفكر: كيف يجرؤ على معاينة الجثث في نومتها الأبدية. وإذ كان جلال في

fb/the.boooks

الغالب هو من يفحص الجثث، إلا أنّ علي قد فعل ذلك أيضاً بعض الأحيان. لم يشعر بالخوف. وعندما سمع سلام يقول:

-كم عددهم؟

سحر منه في نفسه. إنهم الآن جنود ميتون. بلا عدد. ولن ينفعه أن يحصيهم. ماذا يعني إن كانوا واحداً أم عشرة أم مائة. إنهم قتلى لا غير . والفعل هو واحد في كل الحالات. القتل. والصاروخ ذاته الذي ألقته إحدى الطائرات، والذي ما تزال شظاياه متناثرة لم يعرف كم عددهم هنا، بل لم يفرق بينهم وبين السيارات والشفلات. لقد قُضي عليهم كلهم. إنهم قتلى لا غير .وبعد برهة أصبحوا خلف تلة صغيرة، وهناك فوجئوا بشخص يقلب الجثث. وقف الاثنان في مكانهما. حدّق أحدهما بالآخر، وقبل أن يسألا بعضهما انتبه الآخر إلى قدومهما، ودون أن ينهض من مكانه ــ حيث كان جالساً ــ صاح:

-تقدما. لا تخافا. حاولا أن تجدا معي المصابين في رؤوسهم.

ثم نهض وأكمل قائلاً:

-منذ بداية الحرب وأنا لا أهتم إلا بالمصابين في رؤوسهم. هل تفهمان . لقد قطعت الجبهة طولاً وعرضاً في البحث عن المصابين في الرأس. لا يهمني إذا كان أحدهم مصاباً في القدم أو الصدر أو البطن.

اتجه إلى جثث أخرى ومن دون أن ينتظر جواباً منهم تابع القول:

-المصابون بالرأس أهم الجثث بالنسبة لي. أنا طبيب. ألا تعرفان الطبيب أنور عبد المجيد؟ إنّ كل الجبهة تعرفني.

وعندما أنهى تلك الجملة، اقترب منهما. حتى أصبح مواجهاً لهما. لقد كان من السهل لعينيهما أن تريا التاج الذي التمع فوق كتفه. حدّق أحدهم بالآخر وكأنهما يعلنان: .صحيح. إنه رائد. وقبل أن يستمر الصمت طويلاً قال جلال حذراً:

-ولكن قل لنا يا سيدي الرائد ماذا نفعل؟

وعندما نطق بذلك نظر إلى علي وكأنه يقول له: .لا تقاطعني دعنا نرى ما سيحدث.

fb/the.boooks

حكّ الرائد رأسه. فبدا في قامته الصغيرة وصلعته التي التمعت تحت شمس الظهيرة مضحكاً في بزّة الرائد. لقد كان الأمر واحدا بالنسبة إلى علي وجلال، فقد كانا فضوليين. وبغتة داعب جلال شاربه الأسود الغليظ وخاطب الرائد:

-سيدي عندنا لك أحد المصابين بالرأس. لكنه خلفنا الآن. إنه النائب ضابط حميد جادر.

فصاح الرائد فرحاً:

-عظيم خذني إليه.

وعلي الذي فوجئ باقتراح جلال كتم ضحكة ساخرة. استدار الثلاثة باتجاه السيارة. سار جلال إلى الأمام والرائد في الوسط، فيما تبعهم علي، حتى أصبحوا عند الطرف الآخر من التل، حيث يقف نائب الضابط وسلام اللذان فوجئا بالرائد. صاح جلال بهما.

-استعدّا فإنّ السيد الرائد يود أن يسألكما بعض الأسئلة.

أخذا وضع الاستعداد، ومن دون أن يتفوها بشيء. بعد أن لاحظا رتبة الرائد قالا بصوت واحد:

-أمرك سيدي.

فأجابهما.

لقد رأى علي كيف أنها كانت تلتصق بالحائط، كأنها تدافع عن نفسها من طلقة تستهدفها. لم تكتف بذلك إنما كانت ترتعش ارتعاشات مذهلة لتسقط دمعة من عينها. دمعة واحدة. كلا لم تسقط إنما نطّت كقط يقفز من العلّية، وفي تلك اللحظة اتجه علي كالمجنون إلى الأرض ليرى أين سالت الدمعة. ترى هل سالت منها كما سالت قطرة العرق إلى جوفه تباعاً ؟ هل كانت مرّة لاهبة؟ يقيناً أنّ جوف أخته ربما قد التهب تلك اللحظة. من المؤكد أنّ حريقاً شبّ في داخلها. لن يعزيه أن تكون الطائرة عراقية أم إيرانية. من يعيد تلك الدمعة التي قذفتها كبركان يقذف حممه فجأة؟ لن تستطيع كل معابد العالم وكنائسه أن تمنحها العزاء. لقد احتضنها ساعتها، وأجهش معها في بكاء خفيف. استغربت الصغيرة فقالت لأمها:

fb/the.boooks

-علي بكى من الطائرات. ثم حدّقت بوجهه، ولم تتوقف عن ارتعاشاتها:

-أمي تقول الصغار وحدهم يخافون. هذا مو صحيح الكل يريد الحياة.

لعلها لو قالت تلك الجملة في زمن آخر لقال إنّ معجزة قد حصلت. فأن تنطق تلك الصغيرة بتلك الجملة، يعني أنّ أموراً كثيرة قد تغيرت. أجابها:

-لا أحد يريد أن يموت يا ريما.

استقرت في حضنه طيعة لينة ودفنت رأسها بين ذراعيه لتنام بعدها، دون أن تدري فيما إذا كفّت الطائرات عن التحليق أم لا. كم بدت حالتها له غريبة تلك الأيام. فلقد اعتادت أن تنام بين ذراعيه بعد كل قصف. وكان هو في فترات إجازته يهتم بها كثيراً. كم تمنى أن ينام مثلها بسرعة. لقد كان يشعر مراراً برغبة قوية في أن يغفو طويلاً كلما حدث قصف شديد. وعبثاً يحاول طرد فكرة النوم الملحّة من أعماقه. لقد حدث له ذلك مراراً على خطوط الجبهة. ففي الوقت الذي يحتمي معظم الجنود بسلاحهم يحتمي هو بالنوم. سيّان أكان ذلك نهاراً أم ليلاً. المهم أن يكون قصفاً أو تحليقاً، إيرانياً كان أم عراقياً. ولكنه أيضاً يعرف أنه لم يستطع أن ينام ولو مرة واحدة. لقد كان الصحو دائماً. كم كان يحسد أولئك الجنود الذين إذا ما ناموا راحوا يشخرون بحيث لا يستطيع أي قصف أن يوقظهم.

رجع علي إلى مكانه. وحاول هذه المرة الاستلقاء فوق خشبة السيارة. وما إن وضع رأسه بين كفّيه حتى فزّ على صوت نائب الضابط الكريه، الذي صاح بنبرة احتفالية ضاع جزء منها مع محرك السيارة وسمع الباقي عندما توقفت السيارة:

-مذبحة. اعتقد أنهم فرس.

نهض علي. تقدم بحذر وكأنه يخمّن ما سيراه. وبطء قفز من السيارة. تقدم بصمت.

لم يكن وحده الذي وقف هناك كتمثال من حجر. إنما وقف الآخرون أيضاً . حدّق أحدهم بالآخر. وباستثناء وجه نائب الضابط الذي جاهد أن يخفي اضطرابه، فقد بدا الاضطراب واضحاً على وجوه الآخرين.

لقد كان مشهداً غريباً. لقد انتشرت، وعلى مسافات متباعدة، جثث لعدد كبير من الجنود. وعلى الجوانب توزعت سيارات و(شفلات) حفر

fb/the.boooks

معطوبة لا تزال تتثاءب بدخانها. لم يسأل علي نفسه إن كانت جثثاً عراقية أم إيرانية. رغم أنه استطاع تمييز سحنتهم العراقية. ورغم أنه عرف أنهم بالتأكيد يعودون إلى إحدى البطّاريات التي تتولى شق طرق اسفلتية؛ فذلك واضح من شفلات الحفر ومن الطريق الذي بُدئ بشقه، زائداً القير الذي ما يزال يبعث حرارته. وهو يعرف أنّ الإيرانيين اعتادوا أيام الحرب الأولى ضرب خطوط التموين والإمدادات الخلفية.

خلع علي بيريته. مسح العرق الذي تصبب فوق جبينه واتجه بلا وعي إلى الجثث. وفجأة وكأنه تذكر شيئاً وبسرعة البرق سارع إلى نائب الضابط ليمسكه من كّم قميصه ويصرخ به:

-كم أنت كريه. وكم كريهة هي أفكارك. سيّان إن كانوا عراقيين أم إيرانيين. ألا ترى أنهم جثث فقط. أنت أيضاً جثة. حدّق بنفسك جيداً. ألا تدري أنك ميّت منذ زمن.

لم يحاول أي من الآخرين أن يمنعه من الصراخ بوجه نائب الضابط. فلقد انشغل كل منهم مع نفسه. وإذ حاول نائب الضابط أن يبعده، بادره علي بقيء مفاجئ. انسحب علي إلى الخلف وراح يفرغ جوفه. في الوقت الذي لطخ بعض القيء أطراف بنطال نائب الضابط وحذاءه. لم ينبس نائب الضابط بأية كلمة، إنما جلس إلى الأرض وراح يلقي بعضاً من التراب فوق أطراف بنطاله والحذاء، في الوقت الذي نهض فيه علي. مسح فمه بأطراف قميصه وخاطب نائب الضابط:

-إنك تستحق أكثر من القيء. أيها المسكين الذي لا يعرف أنه جثّة.

ثم استدار إلى جلال وسأله:

-ما رأيك يا جلال؟

فقال له جلال:

-إهدأ. اتركه.

-ثم حدّق بنائب الضابط باحتقار وسحب علي نحوه.

اتجهت الشمس إلى كبد السماء. راحت تلقي بصهدها الحار إليهم. وفي تلك الحرارة اللاهبة هاجت رائحة الجثث المتراكمة هناك. وبين تلك

fb/the.boooks

الجثث راح علي يشق طريقه مع جلال. يقلبان بعضها. ومع نفسه كان يفكر: كيف يجرؤ على معاينة الجثث في نومتها الأبدية. وإذ كان جلال في الغالب هو من يفحص الجثث، إلا أنّ علي قد فعل ذلك أيضاً بعض الأحيان. لم يشعر بالخوف. وعندما سمع سلام يقول:

-كم عددهم؟

سحر منه في نفسه. إنهم الآن جنود ميتون. بلا عدد. ولن ينفعه أن يحصيهم. ماذا يعني إن كانوا واحداً أم عشرة أم مائة. إنهم قتلى لا غير . والفعل هو واحد في كل الحالات. القتل. والصاروخ ذاته الذي ألقته إحدى الطائرات، والذي ما تزال شظاياه متناثرة لم يعرف كم عددهم هنا، بل لم يفرق بينهم وبين السيارات والشفلات. لقد قُضي عليهم كلهم. إنهم قتلى لا غير .وبعد برهة أصبحوا خلف تلة صغيرة، وهناك فوجئوا بشخص يقلب الجثث. وقف الاثنان في مكانهما. حدّق أحدهما بالآخر، وقبل أن يسألا بعضهما انتبه الآخر إلى قدومهما، ودون أن ينهض من مكانه ــ حيث كان جالساً ــ صاح:

-تقدما. لا تخافا. حاولا أن تجدا معي المصابين في رؤوسهم.

ثم نهض وأكمل قائلاً:

-منذ بداية الحرب وأنا لا أهتم إلا بالمصابين في رؤوسهم. هل تفهمان . لقد قطعت الجبهة طولاً وعرضاً في البحث عن المصابين في الرأس. لا يهمني إذا كان أحدهم مصاباً في القدم أو الصدر أو البطن.

اتجه إلى جثث أخرى ومن دون أن ينتظر جواباً منهم تابع القول:

-المصابون بالرأس أهم الجثث بالنسبة لي. أنا طبيب. ألا تعرفان الطبيب أنور عبد المجيد؟ إنّ كل الجبهة تعرفني.

وعندما أنهى تلك الجملة، اقترب منهما. حتى أصبح مواجهاً لهما. لقد كان من السهل لعينيهما أن تريا التاج الذي التمع فوق كتفه. حدّق أحدهم بالآخر وكأنهما يعلنان: .صحيح. إنه رائد. وقبل أن يستمر الصمت طويلاً قال جلال حذراً:

-ولكن قل لنا يا سيدي الرائد ماذا نفعل؟

fb/the.boooks

وعندما نطق بذلك نظر إلى علي وكأنه يقول له: .لا تقاطعني دعنا نرى ما سيحدث.

حكّ الرائد رأسه· فبدا في قامته الصغيرة وصلعته التي التمعت تحت شمس الظهيرة مضحكاً في بزّة الرائد· لقد كان الأمر واحدا بالنسبة إلى علي وجلال، فقد كانا فضوليين· وبغتة داعب جلال شاربه الأسود الغليظ وخاطب الرائد:

-سيدي عندنا لك أحد المصابين بالرأس· لكنه خلفنا الآن· إنه النائب ضابط حميد جادر·

فصاح الرائد فرحاً:

-عظيم خذني إليه·

وعلي الذي فوجئ باقتراح جلال كتم ضحكة ساخرة· استدار الثلاثة باتجاه السيارة· سار جلال إلى الأمام والرائد في الوسط، فيما تبعهم علي، حتى أصبحوا عند الطرف الآخر من التل، حيث يقف نائب الضابط وسلام اللذان فوجئا بالرائد· صاح جلال بهما·

-استعدّا فإنّ السيد الرائد يود أن يسألكما بعض الأسئلة·

أخذا وضع الاستعداد، ومن دون أن يتفوها بشيء· بعد أن لاحظا رتبة الرائد قالا بصوت واحد:

-أمرك سيدي·

فأجابهما·

-استريحا·

اتخذ الاثنان وضع الاستراحة· وقف الرائد أمامهما منتصباً بقامته القصيرة، والتي بدت هذه المرة صلبة متماسكة، فيما كفّت صلعته عن صب العرق ·تقدم من نائب الضابط وأمره:

-إخلع بيريتك·

fb/the.boooks

أزاح نائب الضابط بيريته. مدّ الرائد يده التي لم ترتعش على الإطلاق، إنما كانت متلهفة لتتحسس رأساً جديدة. برقت صلعة نائب الضابط، نزّت بعرق غزير حتى إنّ جلال همس في أذن علي الذي أصبح ملاصقاً الآن له:

-هل عنده صلعة أم صينية دهن؟

وإذ ما انتظر الآخرون ما يحدث باغتهم الرائد بصوته:

-يجب إجراء عملية له.

حاول نائب الضابط حميد أن يعبر عن استيائه فصاح به الرائد:

-اخرس. إنّ الأمر لا يستغرق أكثر من ثوان. لو بقي رأسك على وضعه فستصبح حياتك في خطر. إنّ رأسك تالف تماماً.

سحب يده من رأسه. واستعرض راحته أمامه:

-ثانياً عليك أن تطيع أوامر الرائد.

ابتسم نائب الضابط حميد، وقد أجبر نفسه على هذا الفعل، كأنه قد قرر أن يجابه الوضع بسلاح آخر، من الأفضل ألاّ يعاند. هكذا قال لنفسه. هتف الرائد مشيراً إلى علي وجلال وهو ينظر إلى السيارة:

-حاولا أن تقوداه إلى السيارة. سأتبعكما.

حدّق علي وجلال أحدهما بالآخر. وأدركا أنّ اللعبة غدت خطرة. هرول نائب الضابط أمامهما. فتبعاه. وهمس جلال لعلي:

-لا أعتقد أنّ هذا الجبان سيحمل رشاشة.

جلس نائب الضابط حميد عند مقدمة السيارة واحتضن سلاحه بيديه. وعندما أصبح جلال وعلي قريبين منه صاح بهما:

-جلال إصعد وشغّل السيارة. لا تلعب معي أنت الآخر!

ابتسم جلال وقال له:

-لكن الأوامر العسكرية تقضي أن يتحكم بنا الرائد.

fb/the.boooks

كان نائب الضابط حميد قد سبح في عرقه، فيما أخذ جسمه يرتعش. لقد كان خائفاً من أن يفعل جلال ما يأمره الرائد، خائفاً أيضاً من أن تنتهي حياته على يد رائد .مجنون. كما أسماه في داخله. وبحسه الثعلبي فكر أنه ليس من السهل التخلص من الأمر طالما أنّ هذين الشيطانين ضده؛ لذا قرر أن يلين. قال بتوسل:

-اسمع جلال. علي. بشرفكما. أنقذاني من هذه الورطة.

قال ذلك ومدّ رأسه من نافذة السيارة، فيما وقف الإثنان في وضع يمكنهما من رؤية الكلاشنكوف في يده. ساد الصمت لبرهة. قطعه نائب الضابط بتوسله:

-أرجوكما.

لقد لان صوته بصورة مبالغ بها حتى إنه توقف عن الكلام لينخرط في البكاء متوسلاً:

-أرجوكما. إنني صاحب عائلة.

وكرامي رمح، دفع جلال بصقة قوية بوجه نائب الضابط. اخترقت النافذة واستقرت على خده الأيسر فأجاب:

-لا يهم. المهم أن تساعدني.

غادر الإثنان مكانهما واتجها إلى الرائد الذي كان منشغلاً بالحديث مع سلام عن مخاطر الإصابة في الرأس وأنواعها:

-كما قلت الإصابات مختلفة لكنها تتفق مع بعضها في الخطورة. ولكل رأس مقياس معين في التحمل. هناك رؤوس كرؤوس الباجة لا تستطيع التحمل طويلاً .فيما هناك رؤوس تتحمل كل مطارق العالم. ذلك متعلق بحجم الرأس وشكله. هل تعتقد أنّ رؤوس الحمير سيئة لأنها كبيرة. أنت تخطئ إذا اعتقدت ذلك. إنّ معظم رؤوس العظماء هي كبيرة كرؤوس الحمير. وبالمناسبة أقول لك إنّ الحمير هي أذكى الحيوانات في العالم. لماذا؟

وقبل أن يجيب أشار إلى علي وجلال أن يجلسا، ويبدو أنه قد نسي أمر نائب الضابط. ثم استمر:

fb/the.boooks

-لأنها تملك رؤوساً كبيرة. ولأنها وصلت إلى درجة من التفكير بحيث إنها أصبحت من القناعة بأن الكيل قد طفح؛ فلا فائدة من الحديث مع الناس.

سكت مرة أخرى وأضاف:

-هل تعلمون أنّ عدداً كبيراً من الحمير ذهب ضحية هذه الحرب. فأنتم تدرون أنّ أعداداً كبيرة منها تأتي من جهة الكويت. ذلك لأنّ الكويتيين يجمعونها نهاية كل شهر، ويلقون بها عند مثلث الحدود العراقية الإيرانية الكويتية. لقد أضّرت الحرب بتجار الحمير أيضاً. فقد اعتادوا قبل الحرب على تجميعها كل شهر وبيعها في أسواق البصرة.

بدا الجميع ساهمين لا يعرفون ماذا يقولون فتركوه مع تداعياته:

-المهم كلما صغر الرأس ازداد غباؤه.

توقف مرة أخرى ليسحب سيجارة من جيبه. لم يجدها. لم يسأل الآخرين إنما تمتم: .سيّان. ثم تابع:

-أين كنا...

لم يجيبوا وقال:

-آه عند الرؤوس الصغيرة. منذ عام 67 وأنا أتابع المصابين في الرأس. لقد ورثت هذه القصة عندما كنت نائب ضابط في أغوار الأردن.

نظر علي وجلال إلى بعضهما نظرة ذات مغزى وكأنهما يقولان لبعضهما: .إنّ صديقنا قد لبس بذلة رائد ربما.

أكمل الرائد:

-المهم لقد سمعت آنذاك قصة رواها لي شيخ فلسطيني. روى أنه كان هناك ضابط مصري في حرب 48 قد شغف بالبحث عن المصابين برؤوسهم؛ أو الذين يعتقد أنهم أصيبوا في رؤوسهم. يروي الشيخ أنه كان في طريقه إلى مزرعته. يجر حميره عندما رأى الضابط وقد تمزق بنطاله وتهدلت ذراعا بذلته وانقطعت أزرار كثيرة منها، فيما كان ذا وجه معبر كثيف اللحية. لقد أثار منظره الشيخ الفلسطيني الذي سأله بفضول عما حلّ به. فحكى أخونا المصري القصة للشيخ، وأبلغه أنّه يبحث عن المصابين

fb/the.boooks

برؤوسهم. ودار الحديث بين الشيخ والضابط حتى يئس الضابط من إقناع الشيخ بأن يدله على الطريق المؤدي إلى جرحى الرؤوس. ويبدو أنّ الحمير كانت تصغي إلى المحادثة باهتمام، وكانت تجيل النظر بين الشيخ والضابط حتى ــ وهذا تأكيد آخر لذكاء الحمير ــ إنها على ما يبدو فهمت ما دار بين الاثنين.

إذ ما إن انسحب الضابط حتى راحت تنهق بصوت عال لجلب انتباه الرجل، واستمرت تنهق إلى أن استدار الشيخ باتجاهها ثم باتجاه الضابط؛ فاكتشف أنّ جبهة رأس الضابط الخلفية كانت مصابة. أراد أن يعدو باتجاهه ليقول له لكنه عدل عن ذلك. وإذ تحرك الرجل مع حميره راح يتحسس رأسه زهواً، ولم ينتبه إلى الحمير التي كانت تضحك هذه المرة. لقد انتبه الرجل إلى ضحكها عندما حدّق بها. ولكنها طأطأت رؤوسها مباشرة. هكذا حدثني الرجل في عام 76.

صمت الرائد ليلتقط أنفاسه قليلاً ثم ليتابع:

-في ذلك الوقت كان معظم الضباط العراقيين مصابين برؤوسهم. لقد عالجت الكثير منهم. المشكلة أنّ لا أحد يريد أن يصدق جرحه.

اتخذ الاثنان وضع الاستراحة. وقف الرائد أمامهما منتصباً بقامته القصيرة، والتي بدت هذه المرة صلبة متماسكة، فيما كفّت صلعته عن صب العرق .تقدم من نائب الضابط وأمره:

-إخلع بيريتك.

أزاح نائب الضابط بيريته. مدّ الرائد يده التي لم ترتعش على الإطلاق، إنما كانت متلهفة لتتحسس رأساً جديدة. برقت صلعة نائب الضابط، نزّت بعرق غزير حتى إنّ جلال همس في أذن علي الذي أصبح ملاصقاً الآن له:

-هل عنده صلعة أم صينية دهن؟

وإذ ما انتظر الآخرون ما يحدث باغتهم الرائد بصوته:

-يجب إجراء عملية له.

حاول نائب الضابط حميد أن يعبر عن استيائه فصاح به الرائد:

fb/the.boooks

-اخرس· إنّ الأمر لا يستغرق أكثر من ثوان· لو بقي رأسك على وضعه فستصبح حياتك في خطر· إنّ رأسك تالف تماماً·

سحب يده من رأسه· واستعرض راحته أمامه:

-ثانياً عليك أن تطيع أوامر الرائد·

ابتسم نائب الضابط حميد، وقد أجبر نفسه على هذا الفعل، كأنه قد قرر أن يجابه الوضع بسلاح آخر، من الأفضل ألاّ يعاند· هكذا قال لنفسه· هتف الرائد مشيراً إلى علي وجلال وهو ينظر إلى السيارة:

-حاولا أن تقوداه إلى السيارة· سأتبعكما·

حدّق علي وجلال أحدهما بالآخر· وأدركا أنّ اللعبة غدت خطرة· هرول نائب الضابط أمامهما· فتبعاه· وهمس جلال لعلي:

-لا أعتقد أنّ هذا الجبان سيحمل رشاشة·

جلس نائب الضابط حميد عند مقدمة السيارة واحتضن سلاحه بيديه· وعندما أصبح جلال وعلي قريبين منه صاح بهما:

-جلال إصعد وشغّل السيارة· لا تلعب معي أنت الآخر!

ابتسم جلال وقال له:

-لكن الأوامر العسكرية تقضي أن يتحكم بنا الرائد·

كان نائب الضابط حميد قد سبح في عرقه، فيما أخذ جسمه يرتعش· لقد كان خائفاً من أن يفعل جلال ما يأمره الرائد، خائفاً أيضاً من أن تنتهي حياته على يد رائد .مجنون. كما أسماه في داخله· وبحسه الثعلبي فكر أنه ليس من السهل التخلص من الأمر طالما أنّ هذين الشيطانين ضده؛ لذا قرر أن يلين· قال بتوسل:

-اسمع جلال· علي· بشرفكما· أنقذاني من هذه الورطة·

قال ذلك ومدّ رأسه من نافذة السيارة، فيما وقف الإثنان في وضع يمكنهما من رؤية الكلاشنكوف في يده· ساد الصمت لبرهة· قطعه نائب الضابط بتوسله:

fb/the.boooks

-أرجوكما.

لقد لان صوته بصورة مبالغ بها حتى إنه توقف عن الكلام لينخرط في البكاء متوسلاً:

-أرجوكما. إنني صاحب عائلة.

وكرامي رمح، دفع جلال بصقة قوية بوجه نائب الضابط. اخترقت النافذة واستقرت على خده الأيسر فأجاب:

-لا يهم. المهم أن تساعدني.

غادر الإثنان مكانهما واتجها إلى الرائد الذي كان منشغلاً بالحديث مع سلام عن مخاطر الإصابة في الرأس وأنواعها:

-كما قلت الإصابات مختلفة لكنها تتفق مع بعضها في الخطورة. ولكل رأس مقياس معين في التحمل. هناك رؤوس كرؤوس الباجة لا تستطيع التحمل طويلاً .فيما هناك رؤوس تتحمل كل مطارق العالم. ذلك متعلق بحجم الرأس وشكله. هل تعتقد أنّ رؤوس الحمير سيئة لأنها كبيرة. أنت تخطئ إذا اعتقدت ذلك. إنّ معظم رؤوس العظماء هي كبيرة كرؤوس الحمير. وبالمناسبة أقول لك إنّ الحمير هي أذكى الحيوانات في العالم. لماذا؟

وقبل أن يجيب أشار إلى علي وجلال أن يجلسا، ويبدو أنه قد نسي أمر نائب الضابط. ثم استمر:

-لأنها تملك رؤوساً كبيرة. ولأنها وصلت إلى درجة من التفكير بحيث إنها أصبحت من القناعة بأن الكيل قد طفح؛ فلا فائدة من الحديث مع الناس.

سكت مرة أخرى وأضاف:

-هل تعلمون أنّ عدداً كبيراً من الحمير ذهب ضحية هذه الحرب. فأنتم تدرون أنّ أعداداً كبيرة منها تأتي من جهة الكويت. ذلك لأنّ الكويتيين يجمعونها نهاية كل شهر، ويلقون بها عند مثلث الحدود العراقية الإيرانية الكويتية. لقد أضّرت الحرب بتجار الحمير أيضاً. فقد اعتادوا قبل الحرب على تجميعها كل شهر وبيعها في أسواق البصرة.

fb/the.boooks

بدا الجميع ساهمين لا يعرفون ماذا يقولون فتركوه مع تداعياته:

-المهم كلما صغر الرأس ازداد غباؤه.

توقف مرة أخرى ليسحب سيجارة من جيبه. لم يجدها. لم يسأل الآخرين إنما تمتم: .سيّان. ثم تابع:

-أين كنا...

لم يجيبوا وقال:

-آه عند الرؤوس الصغيرة. منذ عام 67 وأنا أتابع المصابين في الرأس. لقد ورثت هذه القصة عندما كنت نائب ضابط في أغوار الأردن.

نظر علي وجلال إلى بعضهما نظرة ذات مغزى وكأنهما يقولان لبعضهما: .إنّ صديقنا قد لبس بذلة رائد ربما.

أكمل الرائد:

-المهم لقد سمعت آنذاك قصة رواها لي شيخ فلسطيني. روى أنه كان هناك ضابط مصري في حرب 48 قد شغف بالبحث عن المصابين برؤوسهم؛ أو الذين يعتقد أنهم أصيبوا في رؤوسهم. يروي الشيخ أنه كان في طريقه إلى مزرعته. يجر حميره عندما رأى الضابط وقد تمزق بنطاله وتهدلت ذراعا بذلته وانقطعت أزرار كثيرة منها، فيما كان ذا وجه معبر كثيف اللحية. لقد أثار منظره الشيخ الفلسطيني الذي سأله بفضول عما حلّ به. فحكى أخونا المصري القصة للشيخ، وأبلغه أنّه يبحث عن المصابين برؤوسهم. ودار الحديث بين الشيخ والضابط حتى يئس الضابط من إقناع الشيخ بأن يدله على الطريق المؤدي إلى جرحى الرؤوس. ويبدو أنّ الحمير كانت تصغي إلى المحادثة باهتمام، وكانت تجيل النظر بين الشيخ والضابط حتى ــ وهذا تأكيد آخر لذكاء الحمير ــ إنها على ما يبدو فهمت ما دار بين الاثنين.

إذ ما إن انسحب الضابط حتى راحت تنهق بصوت عال لجلب انتباه الرجل، واستمرت تنهق إلى أن استدار الشيخ باتجاهها ثم باتجاه الضابط؛ فاكتشف أنّ جبهة رأس الضابط الخلفية كانت مصابة. أراد أن يعدو باتجاهه ليقول له لكنه عدل عن ذلك. وإذ تحرك الرجل مع حميره راح يتحسس رأسه زهواً، ولم ينتبه إلى الحمير التي كانت تضحك هذه المرة.

fb/the.boooks

لقد انتبه الرجل إلى ضحكها عندما حدّق بها. ولكنها طأطأت رؤوسها مباشرة. هكذا حدثني الرجل في عام 76.

صمت الرائد ليلتقط أنفاسه قليلاً ثم ليتابع:

-في ذلك الوقت كان معظم الضباط العراقيين مصابين برؤوسهم. لقد عالجت الكثير منهم. المشكلة أنّ لا أحد يريد أن يصدق جرحه.

كان الرائد يتوقف عن الحديث برهة ليعاود الكرّة أكثر حماسة. ولم يكن يعاين وجوههم عندما كان يتحدث معهم. وكأنّ الأمر سيّان. أراد جلال فجأة استفزازه فسأله:

-هل كنت سيدي نائب ضابط؟

وقبل أن يكمل جلال رفع الرائد يده إليه وقال:

-كلا. ولكن انتبه إلى نهاية حديثي.

ثم زفر بحرقة ليكمل حديثه:

-هل تعرفون الفرق بين 67 والآن. في تلك الأيام كنت نادراً ما أعالج جندياً مصاباً برأسه. كان معظم مرضاي من الضباط. لكن الأمر اختلف في هذه الحرب.

هناك الكثير من جرحى الرؤوس من الجنود. كنت سابقاً أعتقد أنّ معظم الجنود من أصول فلاّحية، ولهم رؤوس كبيرة وذكية كالحمير، ولكن يبدو أنني قد أخطأت. لا يهم.. حتى الحمار يخطئ وأنا مرتاح لفرضيتي كحمار.

ضحك ثم أعقب:

-قد تستغربون هذا مني. ولكن هل حاول أحدكم رؤية حجم رأسه في الظل؟ هل سأل أحدكم الفرق بين رأس قطره عشرة سنتمترات وآخر حجمه مائة سنتمتر؟ كلا .هل تعرفون لماذا؟

وبدون أن ينتظر جواباً منهم:

fb/the.boooks

-أخ. أنا نفسي لا أعرف لماذا. ولكن حاولوا أن تقارنوا بين رأس القائد ورؤوس أركانه.

صمت. وعاين وجوههم للمرة الأولى. وعندما رأى الصمت يسيطر عليهم قال:

-لا تعتقدوا أنّ الأمر خطر عليكم إذا تكلمتم عن هذه الرؤوس. سأروي لكم حادثة.

استجمع قواه. وهيأ نفسه ليبدأ بسرد الحكاية، كان يفعل ذلك كراوي مقهى بغدادي قديم:

-قديماً قال الحاج أرى رؤوساً قد أينعت وحان وقت قطافها. ولكنه لم ينتبه إلى الإعرابي الذي كان يجلس في إحدى الزوايا، والذي ضحك عند ذكر كلمة رؤوس. كان رجلاً طاعناً في السن وتخضرم مع أكثر خلفاء بني أمية. وعندما جلجلت ضحكته قوية في المجلس ثار الحجاج ليسأله لماذا ضحك؟ وبعد أن سأله الأمان، حدثه هذا كيف أنّ الناس صفقوا ليزيد بن معاوية عند قطع رأس الحسين بن علي، وكيف أنهم صفقوا للمختار عندما رفع برمحه رؤوس قتلة الحسين، وكيف أنهم صفقوا لزياد بن أبيه عندما قطع رأس المختار، والآن يصفقون لك لأنك ستقطع رؤوسهم، وسيصفقون عندما يرون رأسك مقطوعاً. هل تعلمون أنّ الحجاج ذو رأس صغير كالقائد.

وفجأة نهض من مكانه وهتف:

-أهم رأس بالنسبة لي أن أحصل عليه الآن هو رأس القائد .

فأجابه جلال من دون أن يخفي ابتسامة رآها علي واضحة:

-سأقودك سيدي إلى هناك. هيا بنا.

كانت الشمس قد بدأت بإلقاء صهدها إلى الجهة الأخرى من الكون. وبدأ النهار يلملم أطرافه بالرحيل ليهيء المكان للمساء الذي أعلن عن قدومه . تحركت نسمة هواء عليلة اخترقت قميص علي. لم تمنحه تلك النسمة الشعور بالراحة فقط، إنما جعلته يطمئن إلى وضعهم الآن. لقد نسي دفعة واحدة أكوام الجثث التي رآها قبل لحظات. ومن تمايل الدخان المتصاعد من بقايا السيارات والحفارات المشتعلة تحرك أمام وجهه الرأس الذي

fb/the.boooks

يبغيه الرائد. تخيله فعلاً بين يدي الرائد. وتمنى لو كان فعلاً باستطاعتهم الوصول الآن إلى القصر الجمهوري، والحصول على ما يريده هذا الرائد الذي كان نائب ضابط ذات يوم .وصفن، فيما إذا كان سادياً إذا ما فكّر بالأمر؟ إذ يؤنب نفسه لهذا اللين الذي يجتاحه الآن أيضاً. كلا ليس هناك إلا سادِّي واحد في العراق؟ هو من صنع هذه الحرب. وإذا لم يعتقد ذات يوم بأنه يستطيع أن يقتل شخصاً في حياته، فإنه على دراية بأنه على استعداد أن يفعل ذلك الآن. كان كمن يحطم جداراً من الخوف. كمن يتسلق جبلاً، جبلاً جثم على صدره كبُر مع خوفه أياماً ولياليَ. نما مع قلقه بأنه لن يرتكب أمراً خاطئاً. وللمرة الأولى يكتشف أنّ رأسه صغير. ويتمنى أن يملك الآن رأس حمار. فلربما واتته الشجاعة لمطاوعة ليس ما قاله أبوه وأمه وحسب، إنما ما كانت تبثه نفسه إليه. ألاّ يلتحق. آه لو كان حماراً لما التحق مرة أخرى ولكان الآن في مكان آخر.

عندما وصلوا إلى السيارة، لم ينتبه نائب الضابط إليهم بادئ الأمر . وعندما رآهم بوقت متأخر يقفون ملاصقين للسيارة أراد سحب أقسام سلاحه، إلا أنّ جلال اقترب منه ليهمس له: ــ لقد نسي الأمر. ولكن غادر مكانك. فهو سيجلس في المقدمة.

نزل نائب الضابط حميد. انتزع ابتسامة من فمه بوجه الرائد الذي لم ينظر إليه، إنما كان سارحاً بعض الشئ، أشار نائب الضابط إلى جلال بأنه سيجلس في مؤخرة السيارة. اتجه فعلاً إلى المؤخرة.

كان زجاج مقدمة السيارة قد بدأ يعكس شمس المساء الباهتة بانشطارات . وعندما أصبح الجميع ــ باستثناء نائب الضابط حميد الذي أصبح الآن في المؤخرة ــ بمواجهة مقدمة السيارة. قال الرائد:

-إنني أكره هذه الرؤوس بقدر ما أحبها.

وضرب مقدمة السيارة وأكمل:

-مقدمات السيارات كرؤوس البشر. لكنها صغيرة رغم كبرها. إنني أكرهها. سأجلس في الخلف خذوا راحتكم. لا تهتموا برتبتي.

لم يعترض أي منهم. ثم همس جلال في أذن علي:

-من الأفضل أن تجلس أنت أيضاً هناك.

fb/the.boooks

فهم علي ما يعنيه. فلقد خرج في إثر الرائد، وفي داخله هاجس بما سيحدث.

فوجئ نائب الضابط بالرائد وهو يصعد. وعندما جلس أمامه حاول تملقه بابتسامة اغتصبها من فمه. ورغم أنه تطامن بعض الشيء عندما رأى علياً يجلس هو الآخر، فإنه أراد أن ينزل، إلا أنّ السيارة كانت قد تحركت. شدّ نائب الضابط على الكلاشنكوف في يده. تفحص علي نائب الضابط لبرهة، ثم عاين الرائد الذي غط في إغفاءة مفاجئة. أراد علي أن يتحدث مع نائب الضابط لكنه عدل عندما أدرك أنّ هذا قد ظهر بعينين متعبتين، رغم محاولته البقاء يقظاً.

نظر علي إلى الطريق الذي تقطعه السيارة. فمع كل متر، تختفي الجثث خلفهم حتى تغدو نقاطاً بعيدة، مجرد مثل قطع قماش متناثرة أو نفايات مرمية هناك في البرية تحت سماء عارية، فوق أرض عارية. بدت له ملقاة هناك مثلما أُلقي المرء منذ القدم. عارياً كآدم، جبهته إلى السماء أو إلى الأرض. هناك، في ذلك الخط الذي لا يفرق المرء عنده السماء من الأرض، كانت عيناه لا تزالان تنظران هناك، كأنه يودع شخصاً ما، جيشاً، بل شعباً. شعباً في البرية. بدت له السيارات والشفلات التي طاردتهم بدخانها لبعض الوقت ناشزة وقبيحة بلا معنى. واختفت من أمام ناظريه بسرعة رغم كبرها حتى تلاشى دخانها، مثلما تلاشت فكرة الموت من ذهنه. إنه لا يخاف الموت كموت مجرد لذاته، إنما لأنه لا يريد أن يموت مجاناً، لا يريد أن يلتصق بجبهته إلى الأرض، مثلما التصقت جبهات تلك الجثث المجهولة هناك، لا يريد أن يُرمى به دون أن يدري . وأخيراً لا يريد أن يفاجأ. كان نهماً لمعرفة ما يحدث. ويزداد نهمه كلما زادت السيارة في سرعتها. هذه المرة لا يريد أن ينام بل أن يبقى يقظاً، يقظاً لدرجة أنه يريد أن يعرف أية طائرة تحلق فوقهم؟ أية قذيفة تلك التي ستقذف؟ من بدأ الحرب؟ من يريد الحرب؟ إنه توّاق الآن لمعرفة كل صغيرة وكبيرة. ومثلما تلتهم السيارة بسرعتها الآن تلك البرية، فإنه يلتهم الفكرة تلو الفكرة، ويريد أن يرمي بكل خوفه وهواجسه خلف السيارة. يريد تحديد كل خطأ مارسه. الآن يعرف مثلاً، أنه كان عليه ألاّ يلتحق. أن يصرخ. بل كان عليه على الأقل ألاّ يسكت، هكذا قرر أن يبقى يقظاً، لأنه لن يسمح لقوة ما أن تقذفه كالحجارة، كتلك الجثث التي رغم اختفائها إلا أنها علقت في رأسه ككتل. وكلما ازدادت يقظته قلّ التباين بين سلام ونائب الضابط حميد، وبين تلك الجثث التي رُميت هناك، صحيح أنّ

fb/the.boooks

الاثنين يتحركان الآن، إلا أنّهما ميتان بالنسبة إليه. إنهما مجرد جثتين. أهي صدفة أيضاً أن يكون رأساهما صغيرين.

التفت علي إلى نائب الضابط حميد. استفزته رؤية الوضع وقد هدأ بين الاثنين. ضحك وصاح بصوت عال أيقظ الرائد من غفوته:

-ها. نائب ضابط حميد. إنّ رأسك غير طبيعي. صغير وجريح. يجب إجراء عملية فورية لك.

ولرعب المفاجأة لم يستطع نائب الضابط أن يسحب رشاشته التي استقرت في حضنه، والتي عندما حاول تناولها خطفها الرائد منه بسرعة. ابتسم الرائد وصوّب الرشاشة إلى نائب الضابط حميد، وراح يحملق بفضول في رأس نائب الضابط الذي بدا له ككرة من المطاط. ثم صاح به:

-يجب أن أجري عملية لك على الفور. إنّ رأسك لا يعجبني.

وقبل أن يعترض نائب الضابط ألقى الرائد بجسده فوقه. وضربه بعقب الرشاشة في بطنه فصرخ متوسلاً بعلي أن يساعده. ضحك علي. وأخذ يتابع الأمر من مكانه. ثم حوّل عينيه عنهما وكأنّ الشجار لا يعنيه. في تلك اللحظة راح يتخيل مرة أخرى رأس .القائد. في يد الرائد. كان مخدراً في تخيلاته؛ فلم ينتبه إلى الاثنين اللذين تدحرجا قريباً من باب مؤخرة السيارة، ولم يسمع صراخ الرائد بنائب الضابط:

-دعني أيها الغبي أفحص رأسك.

حاول نائب الضابط أن يتخلص من قبضة الرائد التي شدّت على رقبته.

شعر علي بالرشاشة تندفع إلى قدميه. فداس عليها، بحيث أصبح صعباً عليهما بلوغها. كان كمن يراقب معركة ديكة. ودون معرفة من يدفع من. من يصرخ بمن. سرح بعيداً. سرح بعيداً، بحيث لم يرَ الكتلتين اللتين سقطتا من السيارة، بعد أن عجز مزلاج باب السيارة عن تحمل قوة دفعهما المتتالية، ثم لتصبحا بعيدتين عن عينيه الآن، مثلما أصبحت تلك الجثث بعيدة أيضاً والتي اختفت نهائياً.

لم يقرع على زجاج النافذة، رغم أنه كان بإمكانه أن يفعل ذلك. كلا .إنما تجمد في مكانه وكأنه ما من قوة في العالم تستطيع أن تحركه من مكانه، بل وكأنه ما من قوة في العالم تستطيع أن تمنع تينك الكتلتين من السقوط

fb/the.boooks

من السيارة. هناك لحظات تمر بصورة خاطفة يصعب الإمساك بها. أشبه بتلك اللحظات التي يجري فيها لاعب سيرك على حبل رفيع، تلك اللحظة التي يصبح فيها احتمال سقوطه غير قابل للإنقاذ. هكذا شعر علي. لقد رغب أن يمنع سقوط الجثتين، ولكنه عندما أراد الإمساك بهما، كان

-هل كنت سيدي نائب ضابط؟

وقبل أن يكمل جلال رفع الرائد يده إليه وقال:

-كلا. ولكن انتبه إلى نهاية حديثي.

ثم زفر بحرقة ليكمل حديثه:

-هل تعرفون الفرق بين 67 والآن. في تلك الأيام كنت نادراً ما أعالج جندياً مصاباً برأسه. كان معظم مرضاي من الضباط. لكن الأمر اختلف في هذه الحرب.

هناك الكثير من جرحى الرؤوس من الجنود. كنت سابقاً أعتقد أنّ معظم الجنود من أصول فلاّحية، ولهم رؤوس كبيرة وذكية كالحمير، ولكن يبدو أنني قد أخطأت. لا يهم.. حتى الحمار يخطئ وأنا مرتاح لفرضيتي كحمار.

ضحك ثم أعقب:

-قد تستغربون هذا مني. ولكن هل حاول أحدكم رؤية حجم رأسه في الظل؟ هل سأل أحدكم الفرق بين رأس قطره عشرة سنتمترات وآخر حجمه مائة سنتمتر؟ كلا .هل تعرفون لماذا؟

وبدون أن ينتظر جواباً منهم:

-أخ. أنا نفسي لا أعرف لماذا. ولكن حاولوا أن تقارنوا بين رأس القائد ورؤوس أركانه.

صمت. وعاين وجوههم للمرة الأولى. وعندما رأى الصمت يسيطر عليهم قال:

-لا تعتقدوا أنّ الأمر خطر عليكم إذا تكلمتم عن هذه الرؤوس. سأروي لكم حادثة.

fb/the.boooks

استجمع قواه. وهيأ نفسه ليبدأ بسرد الحكاية، كان يفعل ذلك كراوي مقهى بغدادي قديم:

-قديماً قال الحاج أرى رؤوساً قد أينعت وحان وقت قطافها. ولكنه لم ينتبه إلى الإعرابي الذي كان يجلس في إحدى الزوايا، والذي ضحك عند ذكر كلمة رؤوس. كان رجلاً طاعناً في السن وتخضرم مع أكثر خلفاء بني أمية. وعندما جلجلت ضحكته قوية في المجلس ثار الحجاج ليسأله لماذا ضحك؟ وبعد أن سأله الأمان، حدثه هذا كيف أنّ الناس صفقوا ليزيد بن معاوية عند قطع رأس الحسين بن علي، وكيف أنهم صفقوا للمختار عندما رفع برمحه رؤوس قتلة الحسين، وكيف أنهم صفقوا لزياد بن أبيه عندما قطع رأس المختار، والآن يصفقون لك لأنك ستقطع رؤوسهم، وسيصفقون عندما يرون رأسك مقطوعاً. هل تعلمون أنّ الحجاج ذو رأس صغير كالقائد.

وفجأة نهض من مكانه وهتف:

-أهم رأس بالنسبة لي أن أحصل عليه الآن هو رأس القائد .

فأجابه جلال من دون أن يخفي ابتسامة رآها علي واضحة:

-سأقودك سيدي إلى هناك. هيا بنا.

كانت الشمس قد بدأت بإلقاء صهدها إلى الجهة الأخرى من الكون. وبدأ النهار يلملم أطرافه بالرحيل ليهيء المكان للمساء الذي أعلن عن قدومه . تحركت نسمة هواء عليلة اخترقت قميص علي. لم تمنحه تلك النسمة الشعور بالراحة فقط، إنما جعلته يطمئن إلى وضعهم الآن. لقد نسي دفعة واحدة أكوام الجثث التي رآها قبل لحظات. ومن تمايل الدخان المتصاعد من بقايا السيارات والحفارات المشتعلة تحرك أمام وجهه الرأس الذي يبغيه الرائد. تخيله فعلاً بين يدي الرائد. وتمنى لو كان فعلاً باستطاعتهم الوصول الآن إلى القصر الجمهوري، والحصول على ما يريده هذا الرائد الذي كان نائب ضابط ذات يوم .وصفن، فيما إذا كان سادياً إذا ما فكّر بالأمر؟ إذ يؤنب نفسه لهذا اللين الذي يجتاحه الآن أيضاً. كلا ليس هناك إلا سادِّي واحد في العراق؟ هو من صنع هذه الحرب. وإذا لم يعتقد ذات يوم بأنه يستطيع أن يقتل شخصاً في حياته، فإنه على دراية بأنه على استعداد أن يفعل ذلك الآن. كان كمن يحطم جداراً من الخوف. كمن يتسلق جبلاً، جبلاً جثم على صدره كبُر مع خوفه أياماً ولياليَ. نما مع قلقه بأنه

fb/the.boooks

لن يرتكب أمراً خاطئاً. وللمرة الأولى يكتشف أنّ رأسه صغير. ويتمنى أن يملك الآن رأس حمار. فلربما واتته الشجاعة لمطاوعة ليس ما قاله أبوه وأمه وحسب، إنما ما كانت تبثه نفسه إليه. ألاّ يلتحق. آه لو كان حماراً لما التحق مرة أخرى ولكان الآن في مكان آخر.

عندما وصلوا إلى السيارة، لم ينتبه نائب الضابط إليهم بادئ الأمر . وعندما رآهم بوقت متأخر يقفون ملاصقين للسيارة أراد سحب أقسام سلاحه، إلا أنّ جلال اقترب منه ليهمس له: ــ لقد نسي الأمر. ولكن غادر مكانك. فهو سيجلس في المقدمة.

نزل نائب الضابط حميد. انتزع ابتسامة من فمه بوجه الرائد الذي لم ينظر إليه، إنما كان سارحاً بعض الشيء، أشار نائب الضابط إلى جلال بأنه سيجلس في مؤخرة السيارة. اتجه فعلاً إلى المؤخرة.

كان زجاج مقدمة السيارة قد بدأ يعكس شمس المساء الباهتة بانشطارات . وعندما أصبح الجميع ــ باستثناء نائب الضابط حميد الذي أصبح الآن في المؤخرة ــ بمواجهة مقدمة السيارة. قال الرائد:

-إنني أكره هذه الرؤوس بقدر ما أحبها.

وضرب مقدمة السيارة وأكمل:

-مقدمات السيارات كرؤوس البشر. لكنها صغيرة رغم كبرها. إنني أكرهها. سأجلس في الخلف خذوا راحتكم. لا تهتموا برتبتي.

لم يعترض أي منهم. ثم همس جلال في أذن علي:

-من الأفضل أن تجلس أنت أيضاً هناك.

فهم علي ما يعنيه. فلقد خرج في إثر الرائد، وفي داخله هاجس بما سيحدث.

فوجئ نائب الضابط بالرائد وهو يصعد. وعندما جلس أمامه حاول تملقه بابتسامة اغتصبها من فمه. ورغم أنه تطامن بعض الشيء عندما رأى علياً يجلس هو الآخر، فإنه أراد أن ينزل، إلا أنّ السيارة كانت قد تحركت. شدّ نائب الضابط على الكلاشنكوف في يده. تفحص علي نائب الضابط لبرهة، ثم عاين الرائد الذي غط في إغفاءة مفاجئة. أراد علي أن

fb/the.boooks

يتحدث مع نائب الضابط لكنه عدل عندما أدرك أنّ هذا قد ظهر بعينين متعبتين، رغم محاولته البقاء يقظاً.

نظر علي إلى الطريق الذي تقطعه السيارة. فمع كل متر، تختفي الجثث خلفهم حتى تغدو نقاطاً بعيدة، مجرد مثل قطع قماش متناثرة أو نفايات مرمية هناك في البرية تحت سماء عارية، فوق أرض عارية. بدت له ملقاة هناك مثلما أُلقي المرء منذ القدم. عارياً كآدم، جبهته إلى السماء أو إلى الأرض. هناك، في ذلك الخط الذي لا يفرق المرء عنده السماء من الأرض، كانت عيناه لا تزالان تنظران هناك، كأنه يودع شخصاً ما، جيشاً، بل شعباً. شعباً في البرية. بدت له السيارات والشفلات التي طاردتهم بدخانها لبعض الوقت ناشزة وقبيحة بلا معنى. واختفت من أمام ناظريه بسرعة رغم كبرها حتى تلاشى دخانها، مثلما تلاشت فكرة الموت من ذهنه. إنه لا يخاف الموت كموت مجرد لذاته، إنما لأنه لا يريد أن يموت مجاناً، لا يريد أن يلتصق بجبهته إلى الأرض، مثلما التصقت جبهات تلك الجثث المجهولة هناك، لا يريد أن يُرمى به دون أن يدري . وأخيراً لا يريد أن يفاجأ. كان نهماً لمعرفة ما يحدث. ويزداد نهمه كلما زادت السيارة في سرعتها. هذه المرة لا يريد أن ينام بل أن يبقى يقظاً، يقظاً لدرجة أنه يريد أن يعرف أية طائرة تحلق فوقهم؟ أية قذيفة تلك التي ستقذف؟ من بدأ الحرب؟ من يريد الحرب؟ إنه توّاق الآن لمعرفة كل صغيرة وكبيرة. ومثلما تلتهم السيارة بسرعتها الآن تلك البرية، فإنه يلتهم الفكرة تلو الفكرة، ويريد أن يرمي بكل خوفه وهواجسه خلف السيارة. يريد تحديد كل خطأ مارسه. الآن يعرف مثلاً، أنه كان عليه ألاّ يلتحق. أن يصرخ. بل كان عليه على الأقل ألاّ يسكت، هكذا قرر أن يبقى يقظاً، لأنه لن يسمح لقوة ما أن تقذفه كالحجارة، كتلك الجثث التي رغم اختفائها إلا أنها علقت في رأسه ككتل. وكلما ازدادت يقظته قلّ التباين بين سلام ونائب الضابط حميد، وبين تلك الجثث التي رُميت هناك، صحيح أنّ الاثنين يتحركان الآن، إلا أنّهما ميتان بالنسبة إليه. إنهما مجرد جثتين. أهي صدفة أيضاً أن يكون رأساهما صغيرين.

التفت علي إلى نائب الضابط حميد. استفزته رؤية الوضع وقد هدأ بين الاثنين. ضحك وصاح بصوت عال أيقظ الرائد من غفوته:

-ها. نائب ضابط حميد. إنّ رأسك غير طبيعي. صغير وجريح. يجب إجراء عملية فورية لك.

fb/the.boooks

ولرعب المفاجأة لم يستطع نائب الضابط أن يسحب رشاشته التي استقرت في حضنه، والتي عندما حاول تناولها خطفها الرائد منه بسرعة. ابتسم الرائد وصوّب الرشاشة إلى نائب الضابط حميد، وراح يحملق بفضول في رأس نائب الضابط الذي بدا له ككرة من المطاط. ثم صاح به:

-يجب أن أجري عملية لك على الفور. إنّ رأسك لا يعجبني.

وقبل أن يعترض نائب الضابط ألقى الرائد بجسده فوقه. وضربه بعقب الرشاشة في بطنه فصرخ متوسلاً بعلي أن يساعده. ضحك علي. وأخذ يتابع الأمر من مكانه. ثم حوّل عينيه عنهما وكأنّ الشجار لا يعنيه. في تلك اللحظة راح يتخيل مرة أخرى رأس .القائد. في يد الرائد. كان مخدراً في تخيلاته؛ فلم ينتبه إلى الاثنين اللذين تدحرجا قريباً من باب مؤخرة السيارة، ولم يسمع صراخ الرائد بنائب الضابط:

-دعني أيها الغبي أفحص رأسك.

حاول نائب الضابط أن يتخلص من قبضة الرائد التي شدّت على رقبته.

شعر علي بالرشاشة تندفع إلى قدميه. فداس عليها، بحيث أصبح صعباً عليهما بلوغها. كان كمن يراقب معركة ديكة. ودون معرفة من يدفع من. من يصرخ بمن. سرح بعيداً. سرح بعيداً، بحيث لم يرَ الكتلتين اللتين سقطتا من السيارة، بعد أن عجز مزلاج باب السيارة عن تحمل قوة دفعهما المتتالية، ثم لتصبحا بعيدتين عن عينيه الآن، مثلما أصبحت تلك الجثث بعيدة أيضاً والتي اختفت نهائياً.

لم يقرع على زجاج النافذة، رغم أنه كان بإمكانه أن يفعل ذلك. كلا .إنما تجمد في مكانه وكأنه ما من قوة في العالم تستطيع أن تحركه من مكانه، بل وكأنه ما من قوة في العالم تستطيع أن تمنع تينك الكتلتين من السقوط من السيارة. هناك لحظات تمر بصورة خاطفة يصعب الإمساك بها. أشبه بتلك اللحظات التي يجري فيها لاعب سيرك على حبل رفيع، تلك اللحظة التي يصبح فيها احتمال سقوطه غير قابل للإنقاذ. هكذا شعر علي. لقد رغب أن يمنع سقوط الجثتين، ولكنه عندما أراد الإمساك بهما، كان الوقت قد فات، إذ اندفع الجسدان وكأنهما أصّرا على قذف نفسيهما بعيداً. هل تأخر لأنه فكر في تلك اللحظة، بماذا تفكر الكتلتان عندما أصبحتا على حافة سقوطهما؟ هل كان سبباً كافياً ؟ .ليكن. قد يقول أحدهم إنه مسؤول عن موت اثنين. .ليكن طز. هكذا قال لنفسه .إنها كتلك اللحظة التي قرر

fb/the.boooks

فيها أن يلتحق بالجبهة. ألم يعرف حينها أنه سائر إلى الموت لا محالة. وإذا كان يعترف أنه مسؤول عن موت اثنين، فمن المسؤول عن موته، علي محمد ابن العشرين الذي انتهى من دراسة إعدادية الصناعة قبل أكثر من سنة، والذي ستلغي الحرب تسريحه تماماً، والذي كان يحلم بزواج جارته بتول، والتي تزوجها بعد الحرب مباشرة مسؤول منطقتهم الحزبي، بعد أن أجبر والدها على ذلك، تحت إغراء وتهديد. من مسؤول عن موته البطيء الذي لم يبح به لأحد، فقد كان أكثر حياءً من أن يبوح بعاطفته ليس لبتول التي يعرف أنها تبادله حبه وحسب إنما لأهله أو لأي كائن آخر. كان رأس علي يضج الآن بالأفكار. بتول. إبراهيم الحزبي. ينهض من مكانه ويصرخ بكتلتين أصبحتا بعيدتين عنه. بعيدتين جداً في البرية. اختفيا مثلما اختفى صوته تحت سماء جرداء، فوق أرض قاحلة. مثلما اختفت صورة بتول التي تزوجت إبراهيم على مضض، والذي يكبرها كثيراً.

دوّى الضجيج في رأسه، فيما استقرت غصة في البلعوم، غصة وقفت هناك، حيث توقفت أفكاره عن تأنيب نفسها. كان على يقين من أنه ليس مسؤولاً عن موت الاثنين. لقد كان الاثنان برأسين صغيرين. ردد مع نفسه:

-آه لو كان لكل منهما رأس حمار. بل لو امتلكت كل البشرية رؤوس حمير لما كان هذا الدمار. آه لو امتلك العراقيون رؤوس حمير لوقفوا عند الجبهة وأضربوا عن الحرب، مثلما يقف حمار وسط شارع مكتظ بالسيارت فيوقف السير كله، آه لو كانت بتول حمارة لما رضخت للزواج من إبراهيم.

يزداد الضجيج في رأسه، يثقل ويثقل بألم. فيصرخ مرة أخرى في الفضاء الذي لم يكتظ بشعاع شمس المساء التي بدأت تحل كضيف غير متوقع، إنما بجثث وهمية تسد عليه الرؤية وتزيد صراخه.

-عني جميعكم أنتم ذوو الرؤوس الصغيرة.

ومع شعاع شمس المساء، الذي يختفي مع غبار السيارة تختفي صرخته وتضيع.

fb/the.boooks

عدنان قاسم

ما أكتبه الآن وما سأكتبه هو محاولة مني - وقد استغرقت زمناً طويلاً - للدخول في القصة بشكل آخر. قبل الخوض في شخصية عدنان قاسم، التي كانت عصّية عليّ من عدة نواح ينبغي لي توضيح بعض الأمور .فإذا استثنينا صعوبة هذا الرجل الذي أرّقني ليالي بأسرها، تظهر أمامي ـــ بعض الأحيان ـــ استحالة الكتابة عن حرب لم أخضها، إنما عشت على حافتها أو تلوثت بقيئها، إنّ وصف تحولات الشخوص التي دخلت الحرب مع أو عدم سبق الإصرار ليست عملية هينة. ما سأصفه هو بالضبط ما نقله عدنان وعلي اللذان التقيا بعبد الحسن بدر تباعاً ـــ هذا هو أنا والذي سأتحدث عنه بضمير الشخص الثالث في الفصل القادم ـــ لعل عدنان أو علي قد أخفيا بعض الحقائق أو بالغا في بعضها الآخر، ومحتمل جداً أن أكون أنا، أو كما قلت، يكون عبد الحسن بدر قد بالغ في تفسير ما لاحظه وسمعه وعاشه. المهم، أياً كانت حدود التأويلات، إلا أنها لا تخرج عن جوهر ما جرى بعد .22 أيلول 1980 ..

سأحاول في هذا الفصل أن أعمل نوعاً من البانوراما لما جرى في رعيل الرادار ـــ كتيبة الاستمكان الأولى ـــ البطّارية الرابعة ـــ والذي كان عدنان أحد جنوده.

كان الرعيل مكوناً في البداية من خمسة عسكريين ـــ بقي منهم ثلاثة عندما بدأ حصارهم. وفي النهاية لم يبق منهم سوى عدنان عندما مرت سيارة الأرزاق بهم.

لقد ترددت في البداية في اختيار هذا الشكل الذي يمقته البعض ويسميه بالصحفي، ويطريه البعض الآخر. ومع الوقت ـــ بعد تردد طويل كما قلت ـــ ترسخت لدي القناعة بأنه الشكل المناسب للمضي في القصة. ولم يتسن لي الوقت الكافي ـــ رغم أنني قضيت معه أكثر من سنة ـــ لدراسة هذا الشكل مرة أخرى، لسرعة الأحداث أولاً وافتراقي عن عدنان وعلي ثانياً، واللذان هما المحوران الرئيسيان في هذا العمل ـــ إذا ما نحينا عبد الحسن بدر جانباً .

وكما قلت قبل الدخول في هذا الفصل، ينبغي ذكر شيء عن هذا الرجل الذي بدا لي عصياً كالحرب؛ أقصد عدنان قاسم.

fb/the.boooks

عدنان قاسم هو الأوسط من إخوان ثلاثة لعائلة غريبة، فأبوه الذي كان يشتغل موظفاً كبيراً في دائرة الطابو قد تعلم القراءة والكتابة في المدارس القرآنية في زمانه، والذي كبرت سنه إلا أنه تزوج مرة أخرى بعد وفاة أم عدنان (التي كانت من أصل فلاّحي، ولم تكن تعرف القراءة والكتابة) ــ أذكر ذلك لأنّ هذا الزواج سيلعب دوراً كبيراً في حياة عدنان ــ الأخ الأكبر سليم انقطعت أخباره منذ فترة طويلة؛ إذ التحق بالعمل الفدائي في الأردن ــ وكما يعتقد عدنان ــ أنّ سليماً قد غادر مع الفدائيين بعد أحداث أيلول إلى لبنان، ولكنه انقطع عن مراسلتهم تماماً. أما الأخ الآخر فقد انتحر قبل أكثر من سنة، عندما حاول أبوه أن يجبره على الالتحاق بحزب السلطة. لقد قاوم نديم ذلك حتى هدده أبوه بالطرد. وقف نديم ذات مساء فوق سطح الدار وسكب فوق جسمه كمية من النفط وأشعل عود ثقاب. كان آنذاك في السادسة عشرة من عمره .يعلق عدنان بمرارة قائلاً : .بالنفط نحيا ونموت.

لم تكن لعدنان في أي يوم علاقة حسنة مع أبيه، فقد كانا في حرب دائمة . وكان أبوه قاسياً بشكل غريب. وكما يعتقد عدنان فإن أباه قد اكتشف لعبة الصعود الاجتماعي باكراً. فقد دخل إلى الحزب الحاكم مبكراً، في حين كان الحزب صغيراً وضعيفاً ومحتاجاً لأي شخص. حينذاك تدرج قاسم جبر في سلمه الوظيفي، من كاتب بسيط في دائرة الطابو إلى موظف متنفذ. وفي الفترة الأخيرة استلم دور الشرطي في العائلة، ومما أغاظه كثيراً أنّ زوجته الشابة (عمرها ثلاثون عاماً) كانت تقف إلى جانب ولديه، وخاصة إلى جانب عدنان ذلك لأنه كان يعاملها بلطف ويمازحها بعض الأحيان، ويلح عليها مرات كثيرة أن تتحدث عن همومها. فهو يعرف أنّها لا تحب أباه، وقد زوّجها أهلها منه قسراً. لقد أرادوا التخلص منها. (كانت أكبر أخواتها الست من عائلة فقيرة). لقد جعلها عدنان تبوح بأسرارها له. لقد أثار ذلك قاسم جبر، الذي راح يقلب الأمر في ذهنه معتقداً أنّ لها علاقة جنسية مع ولديه. لقد كانت ظنونه في محلها إلا في أمر واحد. فهي لم تكن على علاقة مع عدنان، إنما مع نديم. وكان عدنان دارياً بذلك، وقد رآهما أكثر من مرة يتضاجعان في سرير أبيه. لم يصدق أو بالأحرى لم يحتمل الأمر في البداية، ولكنه فسر ذلك في ذهنه، مستسلماً للفكرة، أنها ما تزال في الثلاثين وأباه في الخمسين. وكذلك فكر بشكل منطقي فمن الأفضل لأبيه ولعائلتهم أن تمارس سنيّة الجنس مع نديم لا مع شخص آخر .ولم يخفِ فرحه بالأمر. لقد كان يكره أباه. وعندما قرأ .الإخوة كارامازوف .سخر من إيفان لشعوره بالذنب بعد مقتل أبيه. كان يقنع نفسه

fb/the.boooks

ولوقت قريب أنه لن يستشعر مثل هذا الندم. ولكن الغريب أنه اكتشف مع الأيام أنه مجرد وهم - وهذا ما سأصل إليه بعد صفحات - ذلك لأنّي في البداية أريد التحدث عن أشياء مهمة أخرى ترد في هذا السياق .

إنّ ما يهمني أيضاً هو تحولات عدنان خلال خدمته العسكرية. فهو ليس جندياً مكلفاً كالباقين الذين أنهوا خدمتهم منذ زمن، إنما هو جندي مزمن منذ سنوات كثيرة. لقد التحق آنذاك بالجيش بعد أن ترك المدرسة تحت ضغط العمل .بعد وفاة أمه وقبل أن يلتحق بالجيش اشتغل نجاراً، وكان يحلم آنذاك بجمع مبلغ من المال والسفر خارج العراق. لم تمر به ليلة بدون أن يحلم بالفرار من سلطة أبيه، التي كان يقاومها كمن يقاوم الصخر بجسد من زجاج. لقد كانت تلك أسوأ أيام حياته. كانت كأيام الحرب. فمع وفاة أمه ماتت أحلام كثيرة. وأصبح وحيداً تحت ضغط مَن يعتقد أن لا إله إلا الدرهم. لم تغادر تلك الجملة فمه .عندما قال لهم أبوه: .ربّك، أبوك، أمك، الدرهم. وكان يريهم درهماً استقر فوق راحة يده. كان عدنان يتخيل كم هي قوية وكبيرة تلك القطعة المعدنية التي وضعها أبوه فوق راحته. وفي ليال كثيرة أخذت تلك القطعة المعدنية تزوره بهيئات مختلفة، أحياناً تجلس على بطنه، تستقر فوق جبهته، في مؤخرته، في فمه. أحياناً يرى أباه وقد تحول درهماً. لم يكره في حياته شيئاً مثلما كره تلك القطعة المعدنية. لقد فرح ذات مرة عندما حلم بأنّه قد أصبح عملاقاً كبيراً، فيما انبطحت القطعة المعدنية تحت قدميه الكبيرتين ــ كم تمنى ساعتها أن يكون رساماً يرسم هذا المشهد ــ كان يدوسها بفرح. ولم يقلقه آنذاك أنها كانت تفلت من بين قدميه وتتحرك أمامه كعصا ساحر، لكن ما أرعبه هو أنها تحولت إلى صورة أبيه. وعندما كان عدنان طفلاً لم يكن يكره أباه، إنما يكره ما قاله، إلا أنه أدرك تباعاً أنّه لا يمكن الفصل بين المرء وما يقول. فما يقوله المرء هو ما يحاول أن يفعله. والسيء أنّ أباه كان يفعل ما يتفوه به. عدنان يعلق (إنّ أبي يشم رائحة النقود فيسير باتجاهها). لم يعرف إلهاً غيرها. وهذا ما حاول أن يزرعه في أولاده، إلا أنّه فشل. هكذا نما عدنان يكره النقود كما تكره العاقر النساء الحوامل. كان مهيأً لأية فكرة أو عمل ضد المال. لذلك لم يجد كاظم ابن عم سنية، الذي كان شيوعياً، صعوبة في التأثير على عدنان. لقد تعاطف عدنان آنذاك مع كاظم، لا سيّما عندما عرف أنّ كاظم كان يحتقر زواج ابنة عمه من قاسم جبر، وكان يقول .لقد اشتراها لا أكثر ولا أقل. وازداد احترامه لكاظم عندما كان يسمع أباه يعلن حقده على كاظم في أكثر من مناسبة. لقد كان عدنان يستمع إلى كاظم في أكثر من مناسبة .وكان يستمع إليه كما يستمع

fb/the.boooks

إلى معلمه. ولم يحدثه كاظم آنذاك عن السياسة فقط إنما عن الأدب، وعن طريقه كان يقرأ دوستويفسكي وتشيخوف وبرشت. وقد ظلّ الاثنان على علاقة ــ بالرغم من أنّ كاظم كان يكبر عدنان بسنوات كثيرة ــ إلى حين التحاق عدنان بالخدمة العسكرية، إذ لم يلتقيا إلا نادراً وسراً، لا سيّما بعد تهديد أبيه له بالبوح للسلطات بالأمر إذا ما التقيا، وكان في ذلك الوقت من الخطورة لمدني أن يلتقي بعسكري وبالعكس، لا سيّما إذا كان المدني شيوعياً. وعندما التحق عدنان بالخدمة العسكرية، كانت وحدته في أربيل. وبعد أشهر من خدمته هناك يفر مع سبعة من الجنود الآخرين ليلتحق بالمقاومة الكردية. لقد بقي عدنان معهم حتى إعلان اتفاق الحكم الذاتي. ورجع عدنان في تلك الأيام إلى الناصرية، ليلتحق بعدها بوحدته كجندي هارب ــ ولم يعلم بأمره أحد ــ. ولم يعرف عدنان ما الذي حصل للجنود الآخرين. لقد سمع مرة أنّ خمسة منهم قد قتلوا. إلا أنّ الأمر ظلّ غامضاً بالنسبة للاثنين الآخرين. لقد فرّ عدنان بعد التحاقه أكثر من مرة، وقد قضى فترات طويلة في البصرة يشتغل باسم مستعار. وكان يلتحق بعد صدور كل عفو ليهرب مرة أخرى .هكذا كان عدنان جندياً، مزمناً. لقد انتهت أحلامه في السفر خارج العراق .وكان يستلذ بمغامرات هروبه المتكررة. في عام 1978 ألقي القبض على جاسم حسن أحد الجنود الذين التحقوا بالمقاومة الكردية مع عدنان آنذاك، والذي دخل في هذا الوقت إلى صفوف الحزب الحاكم. لقد اعتقل بتهمة عدم بوحه بعلاقته السياسية السابقة. واعترف هذا على عدنان قاسم.

كانت وحدة عدنان آنذاك في المحاويل. وعندما جاء كتاب إلقاء القبض عليه كان يجلس في حانوت بطّارية الصواريخ المجاورة لبطّاريتهم. في تلك اللحظة جلس إلى جانبه أحد عرفاء البطّارية وهمس: .كنت في قلم البطّارية وقد سمعت بكتاب استدعائك إلى الاستخبارات العسكرية، وقد ذهب عريف جلاّب في الكتاب إلى مساعد البطّارية، دبّر حالك.

وبلمح البصر انسلّ عدنان من الحانوت واتجه خلف كتيبة الصواريخ، ثم سار طويلاً باتجاه سور المعسكر ليتسلل منه بعد عناء ويصبح عند طريق بغداد ــ الحلة ــ ومن هناك لوّح لإحدى السيارات المتجهة إلى الحلة. وفي اليوم نفسه سافر إلى السماوة حيث يقيم كاظم بعد نقله من مدرسته في الناصرية. لم يخطط عدنان لذلك واعياً، إنما حدث الأمر عفو الخاطر. لقد فكر عدنان بأنّ الوحيد الذي يستطيع مساعدته هو كاظم. وقبل أن يذهب إليه، اشترى من أحد المحلات بنطلوناً وقميصاً واستبدل ملابسه داخل المحل، ليلقيها في القمامة. لم يبحث عدنان عن الفندق الذي يقيم فيه كاظم

fb/the.boooks

طويلاً. فقد وجده بسهولة. فقد زاره قبل أشهر هنا. كان عدنان قد تسلل بحذر إلى غرفة كاظم. وعندما دخل عليه وجده جالساً ببجامته وقبالته شخص آخر قدمه إليه: .محمد معلم معي. وعندما لاحظ كاظم ارتباك عدنان طمأنه: .لا تخف إنه شخص طيّب.

رغم أنّ الآخرين قد بديا تعبين إلا أنّهما لم يدخلا في الفراش بعد، إنما راحا يتحدثان مع عدنان. أوضح كاظم له كيف أنّ حملة الاعتقالات قد كثرت في الأيام الأخيرة. ثم أوضح عدنان بهدوء ما حدث له، وبالطبع كان الجميع متفقين على أنّ أقّل ما يصيب عدنان هو الإعدام. وأوضح كاظم لعدنان أنّه يعرف بعض المهربين الذين يستطيعون تهريبه إلى السعودية، وضحكوا عندما علقوا: .اللجوء حيث يقيم الله .

وعندما علّق عدنان: .حسناً دعنا ننام ونقوم غداً بذلك.، رفض الآخران وأمراه على الفور أن يصحبهما. وبعد لحظات كانوا في بيت أحد المهربين الذي أبدى موافقته لهم، إلا أنّه لم يخفِ وده الفائق ــ كأي مهرب آخر ــ لكي يحصل عن طريق ذلك على أجر كبير. وبعد نقاش طويل اتفقوا على أن يستلم مائة دينار لذلك، وخمسين ديناراً إذا ما استلموا ورقة بخط يد عدنان تطمئنهم على سلامته.

لقد عاش عدنان حتى أواخر العام الفائت مع الرعاة في منطقة الجزيرة بين العراق والسعودية. وعندما صدر عفو سياسي قبل عام رجع عدنان ليلتحق بوحدته مرة أخرى.

ومن وحدته سيق عدنان إلى معتقل في بناية وزارة الدفاع لحين إكمال التحقيق معه. وفي تلك الأيام صدر أمر تسريحه وتسريح كل العسكريين من ذوي السوابق السياسية الذين التحقوا بعد العفو. وعندما استلم كتاب تسريحه قرر عدنان السفر إلى الناصرية وبدء حياة أخرى هذه المرة.

إنّ ما كان يشعر به ليس الندم، إنما أمر أبعد من ذلك. لقد فكر آنذاك أنه قد هرم بسرعة، وأن تلك الأيام الصعبة التي عاشها مع البدو الرعاة قد زرعت في داخله رغبات جديدة. لقد عشق أولئك الناس بفطرتهم. ولكي يصل إلى أولئك الناس فكر بالتخلص أولاً من ماضيه. لقد تعب. وفكر هذه المرة أن يستريح فعلاً.

لم يلقَ عدنان بالطبع ترحيباً حاراً من أبيه. فباستثناء نديم وسنية اللذين فرحا به، لم يره قاسم جبر سوى وجه عابس مع ابتسامة انتهازية عرفها

fb/the.boooks

عدنان فوراً، زائداً أنه لم يتوقف عن إلقاء محاضراته المؤدبة ظاهراً، والمبطنة بحقد وشتائم لا حصر لها.

مع الأيام ازداد التوتر بين الاثنين بشكل كبير. وفكر عدنان أنّه لا يمكن أن يستريح، لا سيّما عندما بدأ الأب يطلب من نديم أن ينتسب إلى حزب السلطة، متهماً عدنان بالتأثير على أخيه. صحيح أنّ عدنان قد قرر ألا يتورط في السياسة بعد الآن، إلا أنّه لم يسمح لنفسه بالضغط على نديم. ولقد فكر أنّ ما يقرره يعود إليه وحده.

لم ينقطع الأب عن شتمهما. لقد استفزه هدوء عدنان الذي كان مريباً في نظره فقال لهما:

-إنني لست على استعداد لإيواء ابنين عاقين لا همّ لهم سوى معارضة الله، أبيهم، الحكومة.

لقد بقيت هذه الحالة حتى انتحار نديم الذي زرع في عدنان كآبة عميقة، ذلك لأنه اعتقد أنه سكت عن اضطهاد أبيه ولم يحاول مساعدته بجدية. لقد انغلق عدنان على نفسه ولم يعد يغادر الدار إلا نادراً.

لقد أثّر انتحار نديم على سنية أيضاً فقد جعلها تمكث في غرفتها لفترة طويلة من دون أن تخلع رداء الحداد الأسود. رغم اقتراح قاسم جبر عليها، والذي يعرف كم هو صعب تحقيقه لا سيّما وأنها تتذرّع بحجة اجتماعية مقبولة:

-كيف أنزع السواد وهو ابنك. ماذا يقول الناس.

رغم أنه أجابها أكثر من مرة:

-إنه ليس ابني.

وبعد أشهر اضطرت تحت إلحاح عدنان إلى مغادرة غرفتها، وشرح لها عدنان كم هو جميل لبس ما يطيب لها من الملابس، وبعد أسابيع أخذت الشكوك تستولي على قاسم جبر مرة أخرى ــ مرة أخرى لم تكن شكوكه في غير محلها ــ فلقد نشأت علاقة بين سنية وعدنان .

لقد اختلف الأمر عليه هذه المرة. فلقد حمل عدنان تناقضاته معه. لقد أحبّ سنية مثلما أحبّ نديماً. لقد اختلطت الأمور عليه. أحياناً كان يفكر أنه

fb/the.boooks

يحبها لأنها تريد الانتقام من أبيه. أحياناً لأنه يحب نديماً. وفي المرات الأخرى يفكر أنه يحبها لأنها تشترك معه في وضعها. فهما ضحيتا قاسم جبر. هل تراه أحبها لأنها سنية، لشخصها، ولو ليوم واحد؟ صحيح أنه واظب على النوم معها وبلذة كبيرة، إلا أنّه كان يضع وجهه بين يديه ويبكي أحياناً .كان يبكي لأنه أحبّ نديماً كما أحبّ نفسه. يبكي سليماً الذي افتقده منذ سنين، والذي ربما كان الوحيد المهيأ لقتل قاسم جبر. كان يبكي سنية أيضاً، التي لا يريد أن يصنع منها موضوعاً للانتقام من أبيه أو موضوعاً للتعويض عن حبه لنديم. ويتصور أحياناً أن الأمر لا يعدو أن يكون نزوة جنسية طارئة ستنتهي يوماً ما. ومع الوقت يدرك بيقين أنّ حبه لسنية ينمو نمو كراهيته لأبيه. ومن طرفه لا يستطيع تحمل هذا التوازي. ومع الأيام يقول لنفسه لقد كره أباه مثلما كره الدرهم والسلطة والجيش. ولكن لماذا أحّب ويحب سنية؟ صحيح أنها ضحية الدرهم أيضاً إلا أنها لم تتمرد إلاّ في علاقتها الجنسية مع نديم ومعه. كان كمن يتلظى على مقلاة ساخنة. مرات كثيرة فكر أن ينتهي من الأمر ويغادر إلى حيث كان مع الرعاة. وكلما ازدادت رغبته في مغادرة العراق ازداد توقه إلى سنية. كان جسدها كتلك الجزيرة. لم يدخل عضوه فيها، لأنها تفتح فخذيها له بشهوة عارمة، إنما لأنه كان كمن يحاول أن يقتل يأسه في الدخول بها. يحفر في فرجها كذاك الذي يطفئ حريقاً في خرطوم ماء. وكلما ازداد ولهه بسنية ازداد عذابه. وفي تلك اللحظات تختفي سخريته من إيفان كارامازوف. صحيح أنّه لم يقتل قاسم جبر بيده. إلا أنه يقتله بشكل آخر.

لقد ظلّ عدنان في تلك الحالة مكتوباً بالألم. لم يبح لسنية بما في سره، ومرات يقول لنفسه: .آه لو لم ينتحر نديم. لربما سارت الأمور بشكل آخر . لقد كانت سنية سجنه وحريته.

وعندما اندلعت الحرب لم يفكر بها قدر ما فكر بحربه هو مع قاسم جبر ومع نفسه، إلى حين استدعاء مواليده إلى الخدمة. ولم يفكر هذه المرة بالأمر طويلاً : .هل التحق أم لا؟. إنما ذهب بعد يومين من استدعائه إلى دائرة التجنيد. كان يعتقد أنها مجرد أسابيع وتنتهي. ومن الأفضل له أن ينهي خدمة الاحتياط على الجبهة منه في معسكر المحاويل. فهناك لن يسأل أحد عن ضرورة انتمائه إلى حزب السلطة. فالكل مشغول بالحرب. لم يكن استسلاماً. بل غير ذلك، لقد اعتقد عدنان بالفعل أنّ حربه أكبر من هذه الحرب. لقد كان مشغولاً بانكساراته، غارقاً في خرابه.

fb/the.boooks

كان الرعيل مكوناً في البداية من خمسة عسكريين ــ بقي منهم ثلاثة عندما بدأ حصارهم. وفي النهاية لم يبق منهم سوى عدنان عندما مرت سيارة الأرزاق بهم.

لقد ترددت في البداية في اختيار هذا الشكل الذي يمقته البعض ويسميه بالصحفي، ويطريه البعض الآخر. ومع الوقت ــ بعد تردد طويل كما قلت ــ ترسخت لدي القناعة بأنه الشكل المناسب للمضي في القصة. ولم يتسن لي الوقت الكافي ــ رغم أنني قضيت معه أكثر من سنة ــ لدراسة هذا الشكل مرة أخرى، لسرعة الأحداث أولاً وافتراقي عن عدنان وعلي ثانياً، واللذان هما المحوران الرئيسيان في هذا العمل ــ إذا ما نحينا عبد الحسن بدر جانباً .

وكما قلت قبل الدخول في هذا الفصل، ينبغي ذكر شيء عن هذا الرجل الذي بدا لي عصياً كالحرب؛ أقصد عدنان قاسم.

عدنان قاسم هو الأوسط من إخوان ثلاثة لعائلة غريبة، فأبوه الذي كان يشتغل موظفاً كبيراً في دائرة الطابو قد تعلم القراءة والكتابة في المدارس القرآنية في زمانه، والذي كبرت سنه إلا أنه تزوج مرة أخرى بعد وفاة أم عدنان (التي كانت من أصل فلاّحي، ولم تكن تعرف القراءة والكتابة) ــ أذكر ذلك لأنّ هذا الزواج سيلعب دوراً كبيراً في حياة عدنان ــ الأخ الأكبر سليم انقطعت أخباره منذ فترة طويلة؛ إذ التحق بالعمل الفدائي في الأردن ــ وكما يعتقد عدنان ــ أنّ سليماً قد غادر مع الفدائيين بعد أحداث أيلول إلى لبنان، ولكنه انقطع عن مراسلتهم تماماً. أما الأخ الآخر فقد انتحر قبل أكثر من سنة، عندما حاول أبوه أن يجبره على الالتحاق بحزب السلطة. لقد قاوم نديم ذلك حتى هدده أبوه بالطرد. وقف نديم ذات مساء فوق سطح الدار وسكب فوق جسمه كمية من النفط وأشعل عود ثقاب. كان آنذاك في السادسة عشرة من عمره .يعلق عدنان بمرارة قائلاً : .بالنفط نحيا ونموت.

لم تكن لعدنان في أي يوم علاقة حسنة مع أبيه، فقد كانا في حرب دائمة . وكان أبوه قاسياً بشكل غريب. وكما يعتقد عدنان فإن أباه قد اكتشف لعبة الصعود الاجتماعي باكراً. فقد دخل إلى الحزب الحاكم مبكراً، في حين كان الحزب صغيراً وضعيفاً ومحتاجاً لأي شخص. حينذاك تدرج قاسم جبر في سلمه الوظيفي، من كاتب بسيط في دائرة الطابو إلى موظف متنفذ. وفي الفترة الأخيرة استلم دور الشرطي في العائلة، ومما أغاظه

fb/the.boooks

كثيراً أنّ زوجته الشابة (عمرها ثلاثون عاماً) كانت تقف إلى جانب ولديه، وخاصة إلى جانب عدنان ذلك لأنه كان يعاملها بلطف ويمازحها بعض الأحيان، ويلح عليها مرات كثيرة أن تتحدث عن همومها. فهو يعرف أنّها لا تحب أباه، وقد زوّجها أهلها منه قسراً. لقد أرادوا التخلص منها. (كانت أكبر أخواتها الست من عائلة فقيرة). لقد جعلها عدنان تبوح بأسرارها له. لقد أثار ذلك قاسم جبر، الذي راح يقلب الأمر في ذهنه معتقداً أنّ لها علاقة جنسية مع ولديه. لقد كانت ظنونه في محلها إلا في أمر واحد. فهي لم تكن على علاقة مع عدنان، إنما مع نديم. وكان عدنان دارياً بذلك، وقد رآهما أكثر من مرة يتضاجعان في سرير أبيه. لم يصدق أو بالأحرى لم يحتمل الأمر في البداية، ولكنه فسر ذلك في ذهنه، مستسلماً للفكرة، أنها ما تزال في الثلاثين وأباه في الخمسين. وكذلك فكر بشكل منطقي فمن الأفضل لأبيه ولعائلتهم أن تمارس سنيّة الجنس مع نديم لا مع شخص آخر .ولم يخفِ فرحه بالأمر. لقد كان يكره أباه. وعندما قرأ .الإخوة كارامازوف .سخر من إيفان لشعوره بالذنب بعد مقتل أبيه. كان يقنع نفسه ولوقت قريب أنه لن يستشعر مثل هذا الندم. ولكن الغريب أنه اكتشف مع الأيام أنه مجرد وهم - وهذا ما سأصل إليه بعد صفحات - ذلك لأنّي في البداية أريد التحدث عن أشياء مهمة أخرى ترد في هذا السياق .

إنّ ما يهمني أيضاً هو تحولات عدنان خلال خدمته العسكرية. فهو ليس جندياً مكلفاً كالباقين الذين أنهوا خدمتهم منذ زمن، إنما هو جندي مزمن منذ سنوات كثيرة. لقد التحق آنذاك بالجيش بعد أن ترك المدرسة تحت ضغط العمل .بعد وفاة أمه وقبل أن يلتحق بالجيش اشتغل نجاراً، وكان يحلم آنذاك بجمع مبلغ من المال والسفر خارج العراق. لم تمر به ليلة بدون أن يحلم بالفرار من سلطة أبيه، التي كان يقاومها كمن يقاوم الصخر بجسد من زجاج. لقد كانت تلك أسوأ أيام حياته. كانت كأيام الحرب. فمع وفاة أمه ماتت أحلام كثيرة. وأصبح وحيداً تحت ضغط مَن يعتقد أن لا إله إلا الدرهم. لم تغادر تلك الجملة فمه .عندما قال لهم أبوه: .ربّك، أبوك، أمك، الدرهم. وكان يريهم درهماً استقر فوق راحة يده. كان عدنان يتخيل كم هي قوية وكبيرة تلك القطعة المعدنية التي وضعها أبوه فوق راحته. وفي ليال كثيرة أخذت تلك القطعة المعدنية تزوره بهيئات مختلفة، أحياناً تجلس على بطنه، تستقر فوق جبهته، في مؤخرته، في فمه. أحياناً يرى أباه وقد تحول درهماً. لم يكره في حياته شيئاً مثلما كره تلك القطعة المعدنية. لقد فرح ذات مرة عندما حلم بأنّه قد أصبح عملاقاً كبيراً، فيما انبطحت القطعة المعدنية تحت قدميه الكبيرتين ـــ كم تمنى ساعتها أن

fb/the.boooks

يكون رساماً يرسم هذا المشهد ــ كان يدوسها بفرح. ولم يقلقه آنذاك أنها كانت تفلت من بين قدميه وتتحرك أمامه كعصا ساحر، لكن ما أرعبه هو أنها تحولت إلى صورة أبيه. وعندما كان عدنان طفلاً لم يكن يكره أباه، إنما يكره ما قاله، إلا أنه أدرك تباعاً أنّه لا يمكن الفصل بين المرء وما يقول. فما يقوله المرء هو ما يحاول أن يفعله. والسيء أنّ أباه كان يفعل ما يتفوه به. عدنان يعلق (إنّ أبي يشم رائحة النقود فيسير باتجاهها). لم يعرف إلهاً غيرها. وهذا ما حاول أن يزرعه في أولاده، إلا أنّه فشل. هكذا نما عدنان يكره النقود كما تكره العاقر النساء الحوامل. كان مهيأً لأية فكرة أو عمل ضد المال. لذلك لم يجد كاظم ابن عم سنية، الذي كان شيوعياً، صعوبة في التأثير على عدنان. لقد تعاطف عدنان آنذاك مع كاظم، لا سيّما عندما عرف أنّ كاظم كان يحتقر زواج ابنة عمه من قاسم جبر، وكان يقول .لقد اشتراها لا أكثر ولا أقل. وازداد احترامه لكاظم عندما كان يسمع أباه يعلن حقده على كاظم في أكثر من مناسبة. لقد كان عدنان يستمع إلى كاظم في أكثر من مناسبة .وكان يستمع إليه كما يستمع إلى معلمه. ولم يحدثه كاظم آنذاك عن السياسة فقط إنما عن الأدب، وعن طريقه كان يقرأ دوستويفسكي وتشيخوف وبرشت. وقد ظلّ الاثنان على علاقة ــ بالرغم من أنّ كاظم كان يكبر عدنان بسنوات كثيرة ــ إلى حين التحاق عدنان بالخدمة العسكرية، إذ لم يلتقيا إلا نادراً وسراً، لا سيّما بعد تهديد أبيه له بالبوح للسلطات بالأمر إذا ما التقيا، وكان في ذلك الوقت من الخطورة لمدني أن يلتقي بعسكري وبالعكس، لا سيّما إذا كان المدني شيوعياً. وعندما التحق عدنان بالخدمة العسكرية، كانت وحدته في أربيل. وبعد أشهر من خدمته هناك يفر مع سبعة من الجنود الآخرين ليلتحق بالمقاومة الكردية. لقد بقي عدنان معهم حتى إعلان اتفاق الحكم الذاتي. ورجع عدنان في تلك الأيام إلى الناصرية، ليلتحق بعدها بوحدته كجندي هارب ــ ولم يعلم بأمره أحد ــ. ولم يعرف عدنان ما الذي حصل للجنود الآخرين. لقد سمع مرة أنّ خمسة منهم قد قتلوا. إلا أنّ الأمر ظلّ غامضاً بالنسبة للاثنين الآخرين. لقد فرّ عدنان بعد التحاقه أكثر من مرة، وقد قضى فترات طويلة في البصرة يشتغل باسم مستعار. وكان يلتحق بعد صدور كل عفو ليهرب مرة أخرى .هكذا كان عدنان جندياً، مزمناً. لقد انتهت أحلامه في السفر خارج العراق .وكان يستلذ بمغامرات هروبه المتكررة. في عام 1978 ألقي القبض على جاسم حسن أحد الجنود الذين التحقوا بالمقاومة الكردية مع عدنان آنذاك، والذي دخل في هذا الوقت إلى صفوف الحزب الحاكم. لقد اعتقل بتهمة عدم بوحه بعلاقته السياسية السابقة. واعترف هذا على عدنان قاسم.

fb/the.boooks

كانت وحدة عدنان آنذاك في المحاويل. وعندما جاء كتاب إلقاء القبض عليه كان يجلس في حانوت بطّارية الصواريخ المجاورة لبطّاريتهم. في تلك اللحظة جلس إلى جانبه أحد عرفاء البطّارية وهمس: .كنت في قلم البطّارية وقد سمعت بكتاب استدعائك إلى الاستخبارات العسكرية، وقد ذهب عريف جلاّب في الكتاب إلى مساعد البطّارية، دبّر حالك.

وبلمح البصر انسلّ عدنان من الحانوت واتجه خلف كتيبة الصواريخ، ثم سار طويلاً باتجاه سور المعسكر ليتسلل منه بعد عناء ويصبح عند طريق بغداد ــ الحلة ــ ومن هناك لوّح لإحدى السيارات المتجهة إلى الحلة. وفي اليوم نفسه سافر إلى السماوة حيث يقيم كاظم بعد نقله من مدرسته في الناصرية. لم يخطط عدنان لذلك واعياً، إنما حدث الأمر عفو الخاطر. لقد فكر عدنان بأنّ الوحيد الذي يستطيع مساعدته هو كاظم. وقبل أن يذهب إليه، اشترى من أحد المحلات بنطلوناً وقميصاً واستبدل ملابسه داخل المحل، ليلقيها في القمامة. لم يبحث عدنان عن الفندق الذي يقيم فيه كاظم طويلاً. فقد وجده بسهولة. فقد زاره قبل أشهر هنا. كان عدنان قد تسلل بحذر إلى غرفة كاظم. وعندما دخل عليه وجده جالساً ببجامته وقبالته شخص آخر قدمه إليه: .محمد معلم معي. وعندما لاحظ كاظم ارتباك عدنان طمأنه: .لا تخف إنه شخص طيّب.

رغم أنّ الآخرين قد بديا تعبين إلا أنّهما لم يدخلا في الفراش بعد، إنما راحا يتحدثان مع عدنان. أوضح كاظم له كيف أنّ حملة الاعتقالات قد كثرت في الأيام الأخيرة. ثم أوضح عدنان بهدوء ما حدث له، وبالطبع كان الجميع متفقين على أنّ أقّل ما يصيب عدنان هو الإعدام. وأوضح كاظم لعدنان أنّه يعرف بعض المهربين الذين يستطيعون تهريبه إلى السعودية، وضحكوا عندما علقوا: .اللجوء حيث يقيم الله .

وعندما علّق عدنان: .حسناً دعنا ننام ونقوم غداً بذلك.، رفض الآخران وأمراه على الفور أن يصحبهما. وبعد لحظات كانوا في بيت أحد المهربين الذي أبدى موافقته لهم، إلا أنّه لم يخفِ وده الفائق ــ كأي مهرب آخر ــ لكي يحصل عن طريق ذلك على أجر كبير. وبعد نقاش طويل اتفقوا على أن يستلم مائة دينار لذلك، وخمسين ديناراً إذا ما استلموا ورقة بخط يد عدنان تطمئنهم على سلامته.

fb/the.boooks

لقد عاش عدنان حتى أواخر العام الفائت مع الرعاة في منطقة الجزيرة بين العراق والسعودية. وعندما صدر عفو سياسي قبل عام رجع عدنان ليلتحق بوحدته مرة أخرى.

ومن وحدته سيق عدنان إلى معتقل في بناية وزارة الدفاع لحين إكمال التحقيق معه. وفي تلك الأيام صدر أمر تسريحه وتسريح كل العسكريين من ذوي السوابق السياسية الذين التحقوا بعد العفو. وعندما استلم كتاب تسريحه قرر عدنان السفر إلى الناصرية وبدء حياة أخرى هذه المرة.

إنّ ما كان يشعر به ليس الندم، إنما أمر أبعد من ذلك. لقد فكر آنذاك أنه قد هرم بسرعة، وأن تلك الأيام الصعبة التي عاشها مع البدو الرعاة قد زرعت في داخله رغبات جديدة. لقد عشق أولئك الناس بفطرتهم. ولكي يصل إلى أولئك الناس فكر بالتخلص أولاً من ماضيه. لقد تعب. وفكر هذه المرة أن يستريح فعلاً.

لم يلقَ عدنان بالطبع ترحيباً حاراً من أبيه. فباستثناء نديم وسنية اللذين فرحا به، لم يره قاسم جبر سوى وجه عابس مع ابتسامة انتهازية عرفها عدنان فوراً، زائداً أنه لم يتوقف عن إلقاء محاضراته المؤدبة ظاهراً، والمبطنة بحقد وشتائم لا حصر لها.

مع الأيام ازداد التوتر بين الاثنين بشكل كبير. وفكر عدنان أنّه لا يمكن أن يستريح، لا سيّما عندما بدأ الأب يطلب من نديم أن ينتسب إلى حزب السلطة، متهماً عدنان بالتأثير على أخيه. صحيح أنّ عدنان قد قرر ألا يتورط في السياسة بعد الآن، إلا أنّه لم يسمح لنفسه بالضغط على نديم. ولقد فكر أنّ ما يقرره يعود إليه وحده.

لم ينقطع الأب عن شتمهما. لقد استفزه هدوء عدنان الذي كان مريباً في نظره فقال لهما:

-إنني لست على استعداد لإيواء ابنين عاقين لا همّ لهم سوى معارضة الله، أبيهم، الحكومة.

لقد بقيت هذه الحالة حتى انتحار نديم الذي زرع في عدنان كآبة عميقة، ذلك لأنه اعتقد أنه سكت عن اضطهاد أبيه ولم يحاول مساعدته بجدية. لقد انغلق عدنان على نفسه ولم يعد يغادر الدار إلا نادراً.

fb/the.boooks

لقد أثّر انتحار نديم على سنية أيضاً فقد جعلها تمكث في غرفتها لفترة طويلة من دون أن تخلع رداء الحداد الأسود. رغم اقتراح قاسم جبر عليها، والذي يعرف كم هو صعب تحقيقه لا سيّما وأنها تتذرّع بحجة اجتماعية مقبولة:

-كيف أنزع السواد وهو ابنك. ماذا يقول الناس.

رغم أنه أجابها أكثر من مرة:

-إنه ليس ابني.

وبعد أشهر اضطرت تحت إلحاح عدنان إلى مغادرة غرفتها، وشرح لها عدنان كم هو جميل لبس ما يطيب لها من الملابس، وبعد أسابيع أخذت الشكوك تستولي على قاسم جبر مرة أخرى ــ مرة أخرى لم تكن شكوكه في غير محلها ـ فلقد نشأت علاقة بين سنية وعدنان .

لقد اختلف الأمر عليه هذه المرة. فلقد حمل عدنان تناقضاته معه. لقد أحبّ سنية مثلما أحبّ نديماً. لقد اختلطت الأمور عليه. أحياناً كان يفكر أنه يحبها لأنها تريد الانتقام من أبيه. أحياناً لأنه يحب نديماً. وفي المرات الأخرى يفكر أنه يحبها لأنها تشترك معه في وضعها. فهما ضحيتا قاسم جبر. هل تراه أحبها لأنها سنية، لشخصها، ولو ليوم واحد؟ صحيح أنه واظب على النوم معها وبلذة كبيرة، إلا أنّه كان يضع وجهه بين يديه ويبكي أحياناً .كان يبكي لأنه أحبّ نديماً كما أحبّ نفسه. يبكي سليماً الذي افتقده منذ سنين، والذي ربما كان الوحيد المهيأ لقتل قاسم جبر. كان يبكي سنية أيضاً، التي لا يريد أن يصنع منها موضوعاً للانتقام من أبيه أو موضوعاً للتعويض عن حبه لنديم. ويتصور أحياناً أن الأمر لا يعدو أن يكون نزوة جنسية طارئة ستنتهي يوماً ما. ومع الوقت يدرك بيقين أنّ حبه لسنية ينمو نمو كراهيته لأبيه. ومن طرفه لا يستطيع تحمل هذا التوازي. ومع الأيام يقول لنفسه لقد كره أباه مثلما كره الدرهم والسلطة والجيش. ولكن لماذا أحّب ويحب سنية؟ صحيح أنها ضحية الدرهم أيضاً إلا أنها لم تتمرد إلاّ في علاقتها الجنسية مع نديم ومعه. كان كمن يتلظى على مقلاة ساخنة. مرات كثيرة فكر أن ينتهي من الأمر ويغادر إلى حيث كان مع الرعاة. وكلما ازدادت رغبته في مغادرة العراق ازداد توقه إلى سنية. كان جسدها كتلك الجزيرة. لم يدخل عضوه فيها، لأنها تفتح فخذيها له بشهوة عارمة، إنما لأنه كان كمن يحاول أن يقتل يأسه في الدخول بها. يحفر في فرجها كذاك الذي يطفئ حريقاً في خرطوم ماء. وكلما ازداد

fb/the.boooks

ولهـه بسـنية ازداد عذابـه. وفـي تلـك اللحظـات تختفـي سـخريته مـن إيفـان كارامازوف. صحيح أنّه لم يقتل قاسم جبر بيده. إلا أنه يقتله بشكل آخر.

لقـد ظـلّ عـدنان فـي تلـك الحالـة مكتوبـاً بـالألم. لـم يـبح لسـنية بمـا فـي سـره، ومـرات يقـول لنفسـه: .آه لـو لـم ينتحـر نـديم. لربمـا سـارت الأمـور بشـكل آخـر . لقد كانت سنية سجنه وحريته.

وعنـدما انـدلعت الحـرب لـم يفكـر بهـا قـدر مـا فكـر بحربـه هـو مـع قاسـم جبـر ومـع نفسـه، إلـى حـين اسـتدعاء مواليـده إلـى الخدمـة. ولـم يفكـر هـذه المـرة بـالأمر طـويلاً : .هـل التحـق أم لا؟. إنمـا ذهـب بعـد يـومين مـن اسـتدعائه إلـى دائـرة التجنيـد. كـان يعتقـد أنهـا مجـرد أسـابيع وتنتهـي. ومـن الأفضـل لـه أن ينهـي خدمـة الاحتيـاط علـى الجبهـة منـه فـي معسـكر المحاويـل. فهنـاك لـن يسـأل أحـد عـن ضـرورة انتمائـه إلـى حـزب السـلطة. فالكـل مشـغول بـالحرب. لـم يكـن استسـلاماً. بـل غيـر ذلـك، لقـد اعتقـد عـدنان بالفعـل أنّ حربـه أكبـر مـن هذه الحرب. لقد كان مشغولاً بانكساراته، غارقاً في خرابه.

سـقطت نجمـة مـن البعيـد، تابعهـا عـدنان بعينيـه ومضـت لتنطفـئ بسـرعة. آه لـو تسـتطيع النجـوم أن تتشـظى، لـدفع بجسـده إليهـا. إنهـا ومضـة سـاحرة علـى جبهـة هادئـة. كـم تمنـى أن تسـقط آلاف النجـوم. هكـذا دفعـة واحـدة علـى المكـان. آه لـو كانـت الأرض فضـاء ً أيضـاً. إنهـا أمنيـة قديمـة فـي داخلـه. لقـد عشـق النجـوم منـذ أن قطـع الطريـق سـيراً علـى الأقـدام إلـى السـعودية. وهنـاك كـان أي التمـاع مفـاجئ لنيـزك طـارئ ينيـر لـه طريقـاً جديـداً. لقـد عشـق آنـذاك الجـدي علـى الأخـص. فقـد تعلـم مـن جـده أن يضـع الجـدي علـى يمينـه عنـدما يسـير، إذا كـان حريصـاً ألا يفقـد الطريـق. وفـي تلـك الصـحراء كانـت تلـك الالتماعـات تمنحـه ألفـة .كانـت كقطـرات مطـر فـي تلـك الصـحراء القاحلـة. ومـع الوقـت اسـتطاع أن يميـز بـين ضـوء نيـزك وضـوء بروجيكتـور تبعثـه دوريـة مـا. إنّـه الضـوء ذاتـه الـذي تقذفـه المدفعيـة؛ إذ لبروجيكتـور الـدوريات شـظايا أيضـاً، زائـداً أنّ الضـوءين يبعثـان فـي نفسـه الخـوف ذاتـه. الفـرق الوحيـد هـو أنّ الإطلاقـة هنـاك تنبعـث مـن أيـاد عراقيـة، وهنـا مـن أيـاد إيرانيـة. ولكن ما الفرق إذا كانت الشظايا تعلن له عن الموت نفسه.

مـدّ عـدنان يـده إلـى جيبـه وأخـرج جهـاز راديـو صـغير، وقبـل أن يشـغله حـدّق إلـى جانبـه. كـان مـلازم أول قاسـم قـد بـدأ يشـخر بصـوت عـال، فيمـا رقـد زميلـه محمـود فـي موضـعه وبـدا كجثـة هامـدة. نهـض عـدنان مـن موضـعه، وقـد حمـل رشاشـته علـى كتفـه .مـرّ بجهـاز الـرادار. اتجـه إلـى سـيارة اللانـدروفر وفـتح

fb/the.boooks

بابها. كانت السيارة قد وقفت في مكان قريب من جهاز الرادار. جلس في مقدمة السيارة، أغلق نافذتها .وراح يدير خيط الراديو، يبحث عن محطة ما، فيما أخذت تقفز بين الفينة والأخرى إذاعة بغداد بمارشاتها العسكرية وبياناتها. وأحياناً تقفز إذاعة مونت كارلو التي كفّ عن سماعها، بعد أن واظبت على نقل بيانات بغداد العسكرية، وأصبحت منحازة تماماً للعراق. وفجأة هدر صوت فيروز. فرح عدنان بعد أن تذكر أن اليوم هو الأربعاء وإذاعة الكويت تبث أغاني لفيروز مدة ساعة. استرخى وراح يحلم مع صوت فيروز. لم يأته صوتها من الراديو فقط، إنما من نقطة ما في الفضاء، هكذا كخرير ينبوع، أو كشعاع شمس بعد يوم ممطر. بسرعة نسي أنه على الجبهة. نسي أنّه يجب أن يكون حذراً، إذ من الممكن أن يحدث إنزال إيراني بين لحظة وأخرى. في تلك اللحظة أسلم نفسه فقط لصوت فيروز.

.يا ريت انت وأنا بالبيت

شي بيت أبعد بيت

ممحي ورا حدود العتم والريح.

أغمض عدنان عينيه. كان يحب فيروز منذ وقت طويل. وكان في المعسكر أثناء التدريب يتحايل عندما تحين الساعة الثامنة إلا ربعاً، حيث تبث إذاعة بغداد كل يوم أغاني لفيروز. وفي ذلك الوقت يقول عدنان للضابط عندما يكونون في ساحة العرضات:

. -هل تسمح لي بالذهاب إلى التواليت. وفي جيبه كان دائماً هذا الراديو الصغير. وبالنسبة للضابط أصبح الأمر معروفاً، فقد كان يقول لعدنان عندما تحين الثامنة إلا ربعاً .إنها ساعة تواليتك أفندي.، لم يعرف الضابط آنذاك السبب الحقيقي. لذلك لم يصدق أول الأمر، عندما قال له عدنان:

. -إنني فعلت ذلك بسبب فيروز. وفي بعض المرات عندما يحدث فعلاً من الضروري الذهاب إلى التواليت. كنت أضغط على حالي.

وإذا بدا الأمر كنكتة للملازم، فلأنها الحرب. فلو سمع هذا الاعتراف من عدنان في المعسكر لألقى به في السجن. هذا ما يعرفه عدنان، لذلك فإنه لم يترك من دون تعليق، فقد قال له دون خجل:

fb/the.boooks

. -عجيب أمركم أنتم الضباط في الحرب تلينون بصورة مفاجئة. ربما لأنكم تعرفون أنّ الموت لا يفرق أو بالأحرى القنبلة لا تفرق بين ضابط وجندي. إنكم لستم سوى أدعياء. في السلم تكونون أقوياء لا يستطيع أحد أن يقاوم طغيانكم .لكنكم هشّون من الداخل. هشّون مثل إسفنجة تعتصركم الحرب فتلقي بكبريائكم جانباً .

وعندما ابتسم ملازم أول قاسم في وجهه دون أن يجيبه، أردف عدنان قائلاً، وقد شعر بطاقة قوية لأن يلقي بكل شيء في وجهه.

. -تصور أنّك تضحك الآن. لو حدث ذلك قبل أشهر في الثكنة لصفعتني وقلت لي كلمتكم المحببة الكريهة .قشمر. هل سألت نفسك لماذا أنتم أدعياء هكذا.

لم يجبه الملازم إنما كظم غيظه وأظهر ضحكة مفتعلة على وجهه النحيل الذي برزت عظامه عند الخدّين.

يتذكر عدنان الآن الحديث الذي دار بينهما قبل أيام. وفي الأيام الأخيرة لأن حال الملازم أصبح مذلاً، بعد أن أضحى أمر الرحيل جدياً أكثر مما ينبغي، فالآن عليهم أما الانسحاب أو الموت البطيء في هذا المكان. فمنذ ثلاثة أيام وهم محاصرون في هذا الموضع. وكانوا قد أسلموا أنفسهم إلى يأس مطبق، لا سيّما بعد سقوط أعضاء الرعيل الآخرين ميتين (السائق أحمد ونائب عريف اللاسلكي والمخابرة جاسم ونائب ضابط ناظم). لقد أدركوا أنّ ليس ثمّة طريقاً إلى الأمام أو إلى الخلف أو ما حول. كان موضعهم عبارة عن تلة صغيرة حفروا عندها موضعاً لجهاز الرادار. ولم يغط الموضع عاكسة الرادار، التي لولا طلائها الأخضر الذي يمتص أشعة الشمس لكانت مباحة لأجهزة الرصد الإيرانية. أما سيارة اللاندروفر التي تحمل الرادار فقد ابتعدت عن موقع الرادار خمسة أمتار. كانت مهمتهم رصد المدفعية الإيرانية. وكان لجهازهم الإنكليزي الصنع حساسية إلكترونية تعطي إشارة على شكل نقطة لمحرك طاقة المدفعية يدعى محرك الطلقة الصاعد والنازل. وعلى هذه النقطة تُستخرج إحداثية الطلقة، مكانها، وتُسلّم إلى مركز البطّارية التي تسلمها بدورها إلى بطّاريات مدفعية الميدان، لتقوم بالرد على القصف الإيراني. كانت مهمتهم إذن هي الرصد. وكانوا يقومون بهذه المهمة بمسافة محصورة لا تبعد أكثر من عشرين كيلو متراً عن الجبهة. لقد كان عليهم أن ينفتحوا في أقرب النقاط إلى المدفعية الإيرانية. لقد كان انفتاحهم مضحكاً لعدنان.

fb/the.boooks

وعلّق مع نفسه: أي حرب بدائية يشترك فيها هكذا جهاز... وهو على حق إذ إنّ جهازاً كهذا يصلح لحرب العصابات أكثر منه لحرب ميدانية كبيرة. وهذا ما تأكّد قبل ثلاثة أيام؛ إذ حاولوا تغيير مكانهم نتيجة القصف المدفعي الإيراني الكثيف، ولكنهم فوجئوا بقصف مدفعيتهم لهم والتي سدّت عليهم طريق الرجوع. كيف حصل ذلك. لا أحد يدري. ومنذ ثلاثة أيام انتهت مهمة رصدهم تماماً؛ إذ لم تعد تنفع إحداثياتهم التي كانوا يرسلونها عبر اللاسلكي. ذلك أنّ الأمور اختلطت بصورة متشابكة. وسلك التلفون لم يعد يوصل أي صوت، بالعكس بدأوا يستلمون أصواتاً مجهولة وبلغات مختلفة. موسيقى ديسكو مثلاً. وآنذاك علّق ملازم أول قاسم:

. -ربما أعطى رعيل الوميض أو رعيل الصوت إحداثيات مغلوطة.

سخر عدنان من الملازم في داخله، ذلك لأنه هو الآخر قد أعطى أكثر من مرة معلومات خاطئة، ويعرف عدنان كم هو مغرور ملازم أول قاسم، فهو يعتقد بأنه أذكى عسكري في العالم. ورغم كره عدنان له، إلا أنّ ما قاله بصدد الإحداثيات لا يجافي الحقيقة، لأسباب كثيرة. فبالإضافة إلى شدة قصف المدفعية العراقية من موقع قريب لموقعهم، فإنه يعرف حالة الراصدين وشكّهم بما يقومون. عندما يستحوذ الإعياء على الراصد يزداد عبثاً، فيروح يقدر مسافات الإطلاقة على هواه، بدون النظر إلى عدسة الجهاز، ويرى الأمر كنكتة غليظة. إنّ عبثية الراصد لا تختلف عن عبثية الحرب ذاتها. وهذا ما يعرفه عدنان عند الجنود الآخرين،لا سيّما المتطوعين منهم. فإنهم يلجأون في مواضعهم إلى الحديث عن حياتهم الخاصة ومغامراتهم التي غالباً ما يتفتق عنها الخيال، تاركين جهاز الرصد يتسلى لوحده. هذا يصح على رعيل الوميض الذي ينفتح عند مسافة قريبة منهم، والذي لم يسمعوا منه شيئاً منذ ثلاثة أيام، وعلى ما يبدو فإنّ أفراده قد غادروا المكان وانسحبوا. إنّ هذا الرعيل هو أكثر رعائل بطّارية الاستكمان عبثية، بجنوده الذين رووا لعدنان أكثر من مرة مختلف الطرائف عن انفتاحاتهم السابقة في الحروب الماضية، لا سيّما في حرب الأردن. لقد تصلبت قلوبهم وأصبح الموت لهم مهنة تشبه مهنة الجيش، نكتة سمجة. إنهم يلعبون مع الموت أحياناً بمزاح لا يرضاه الموت نفسه. لذلك فمن المحتمل جداً أن يكونوا قد غادروا مكانهم قبل ثلاثة أيام، لا سيّما وأنهم انفتحوا هناك بدون وجود ضابط بينهم، وليس أمرهم مثلما هو في رعيل الرادار التعيس، الذي سقط ثلاثة منه قتلى قبل أكثر من أسبوع، حيث حملتهم سيارة الأرزاق في طريقها، والذي أصبح تحت رحمة ضابط جبان عليه أن يقرر الانسحاب أو البقاء. وقد قرر البقاء بانتظار .حل ينزل

fb/the.boooks

من السماء. وعدنان الذي ردّد هذه الجملة في دخيلته، يعرف ضعف ملازم أول قاسم وعجزه عن اتخاذ قرار الانسحاب؛ لأن من أحد شروط الانسحاب تدمير جهاز الرادار الذي يكلف ربع مليون. إنه لا يخشى دفع ثمنه فحسب بل يخشى تهمة الجبن. وهذه التهمة قد شاعت في الأيام الأخيرة، ويستعملها الضابط كحجة ضد عدنان الذي اقترح تدمير الجهاز. وذكره كيف أنّ مسؤول الكتيبة الحزبي أعدم في الشهر الأول من الحرب اثنين من ضباط الصف المخابرين لعدم تنفيذها الأوامر كما ادعى. كانت تهمتهم، أنهم رفضوا ببساطة أن يتجهوا حيث امتدت أسلاك المخابرة وإصلاح ما تلف منها في ساحة العمليات. لقد ربطهما نقيب حيدر إلى عمود أحد المواضع وأمر باستدعاء جنود البطّارية القريبين ليروا مشهد الإعدام. وعدنان لا تهمه هذه التهمة، إذ إنه يشك في التحاقه بالبطّارية مرة أخرى. فلم يتورع عن إجابة ملازم أول قاسم:

. -إنّك تخاف من هذه التهمة. ولكن فكر بمشكلة التموين. وكانت مشكلة التموين فعلاً أساسية، إذ لم يبق لديهم سوى جلكان ماء وبعض المعلبات. ولم يجبه هذا بغير هزّة من كتفيه. وبعد هذا الحديث كفّ عدنان عن النقاش معه تماماً.

امتدت يد عدنان إلى نافذة السيارة لتفتحها، وكأنه أراد أن يسمع كيف تردد جنبات السماء صوت فيروز، أو ليريح رأسه من كل الهواجس التي غزته قبل لحظات. أراد ان ينتهي ذهنه من أمر الرعيل والضابط. كان يرغب في أن يسمعها كما كان يسمعها فوق سطح دارهم في الصيف.

دخلت نسمة هواء، حرّكت جفنيه لتنفتح عيناه بسعتهما، وأمامهما امتد فضاء واسع، ومن البعيد، أحسّ عدنان بالبرية والليل يغنيان مع فيروز، ومع الهواء خفق صوتها:

.نسّم علينا الهوا

من مفرق الوادي

يا هوا دخل الهوا

خدني على بلادي.

هبط نيزك أمام عينيه. برق واختفى. جاء صوته إلى أذنيه:

fb/the.boooks

-لقد أيقظتني بموسيقاك.

وكمن فوجئ أدار رأسه إلى جانبه ليرى محموداً وقد وقف عند نافذة السيارة. سأله:

-ألم تنم؟...

فقال له:

-لقد حاولت ولكن الكوابيس لا تدعني أنام.

سكت، ثم أضاف بصوت متردد:

-عدنان أنت مثل أخي. هل تدري بأني أحلم دائماً بامرأتي وهي في حضن مصري.

ثم علّق ساخراً وفي صوته شيء من المرارة:

-تصور نحن نقاتل والمصريين يستبيحون زوجاتنا.

ردّ عليه عدنان بدون أن ينظر إليه:

-هل تذكر. عندما كنا في المحاويل. كنت تحتال دائماً لتتسلّ في الساعة العاشرة. دائماً بعد التعداد الصباحي. كنت قد تزوجت حديثاً. ولكن الآن ماذا ستفعل أيها الجندي الباسل. على فكرة هل تعرف لماذا يسمى الجيش العراقي بالباسل. لأنه يبسلها، يستل نفسه في الساعة العاشرة مثلك.

ابتسم محمود، وقبل أن ينطق عاينه عدنان الذي أصبح وجهه جدياً، والذي قال له:

وعندما ابتسم ملازم أول قاسم في وجهه دون أن يجيبه، أردف عدنان قائلاً، وقد شعر بطاقة قوية لأن يلقي بكل شيء في وجهه.

. -تصور أنّك تضحك الآن. لو حدث ذلك قبل أشهر في الثكنة لصفعتني وقلت لي كلمتكم المحببة الكريهة .قشمر. هل سألت نفسك لماذا أنتم أدعياء هكذا.

لم يجبه الملازم إنما كظم غيظه وأظهر ضحكة مفتعلة على وجهه النحيل الذي برزت عظامه عند الخدّين.

fb/the.boooks

يتذكر عدنان الآن الحديث الذي دار بينهما قبل أيام. وفي الأيام الأخيرة لأن حال الملازم أصبح مذلاً، بعد أن أضحى أمر الرحيل جدياً أكثر مما ينبغي، فالآن عليهم أما الانسحاب أو الموت البطيء في هذا المكان. فمنذ ثلاثة أيام وهم محاصرون في هذا الموضع. وكانوا قد أسلموا أنفسهم إلى يأس مطبق، لا سيّما بعد سقوط أعضاء الرعيل الآخرين ميتين (السائق أحمد ونائب عريف اللاسلكي والمخابرة جاسم ونائب ضابط ناظم). لقد أدركوا أنّ ليس ثمّة طريقاً إلى الأمام أو إلى الخلف أو ما حول. كان موضعهم عبارة عن تلة صغيرة حفروا عندها موضعاً لجهاز الرادار. ولم يغط الموضع عاكسة الرادار، التي لولا طلائها الأخضر الذي يمتص أشعة الشمس لكانت مباحة لأجهزة الرصد الإيرانية. أما سيارة اللاندروفر التي تحمل الرادار فقد ابتعدت عن موقع الرادار خمسة أمتار. كانت مهمتهم رصد المدفعية الإيرانية. وكان لجهازهم الإنكليزي الصنع حساسية إلكترونية تعطي إشارة على شكل نقطة لمحرك طاقة المدفعية يدعى محرك الطلقة الصاعد والنازل. وعلى هذه النقطة تُستخرج إحداثية الطلقة، مكانها، وتُسلّم إلى مركز البطّارية التي تسلمها بدورها إلى بطّاريات مدفعية الميدان، لتقوم بالرد على القصف الإيراني. كانت مهمتهم إذن هي الرصد. وكانوا يقومون بهذه المهمة بمسافة محصورة لا تبعد أكثر من عشرين كيلو متراً عن الجبهة. لقد كان عليهم أن ينفتحوا في أقرب النقاط إلى المدفعية الإيرانية. لقد كان انفتاحهم مضحكاً لعدنان. وعلّق مع نفسه: أي حرب بدائية يشترك فيها هكذا جهاز... وهو على حق إذ إنّ جهازاً كهذا يصلح لحرب العصابات أكثر منه لحرب ميدانية كبيرة. وهذا ما تأكّد قبل ثلاثة أيام؛ إذ حاولوا تغيير مكانهم نتيجة القصف المدفعي الإيراني الكثيف، ولكنهم فوجئوا بقصف مدفعيتهم لهم والتي سدّت عليهم طريق الرجوع. كيف حصل ذلك. لا أحد يدري. ومنذ ثلاثة أيام انتهت مهمة رصدهم تماماً؛ إذ لم تعد تنفع إحداثياتهم التي كانوا يرسلونها عبر اللاسلكي. ذلك أنّ الأمور اختلطت بصورة متشابكة. وسلك التلفون لم يعد يوصل أي صوت، بالعكس بدأوا يستلمون أصواتاً مجهولة وبلغات مختلفة. موسيقى ديسكو مثلاً. وآنذاك علّق ملازم أول قاسم:

. -ربما أعطى رعيل الوميض أو رعيل الصوت إحداثيات مغلوطة.

سخر عدنان من الملازم في داخله، ذلك لأنه هو الآخر قد أعطى أكثر من مرة معلومات خاطئة، ويعرف عدنان كم هو مغرور ملازم أول قاسم، فهو يعتقد بأنه أذكى عسكري في العالم. ورغم كره عدنان له، إلا أنّ ما قاله بصدد الإحداثيات لا يجافي الحقيقة، لأسباب كثيرة. فبالإضافة إلى

fb/the.boooks

شدة قصف المدفعية العراقية من موقع قريب لموقعهم، فإنه يعرف حالة الراصدين وشكّهم بما يقومون. عندما يستحوذ الإعياء على الراصد يزداد عبثاً، فيروح يقدر مسافات الإطلاقة على هواه، بدون النظر إلى عدسة الجهاز، ويرى الأمر كنكتة غليظة. إنّ عبثية الراصد لا تختلف عن عبثية الحرب ذاتها. وهذا ما يعرفه عدنان عند الجنود الآخرين،لا سيّما المتطوعين منهم. فإنهم يلجأون في مواضعهم إلى الحديث عن حياتهم الخاصة ومغامراتهم التي غالباً ما يتفتق عنها الخيال، تاركين جهاز الرصد يتسلى لوحده. هذا يصح على رعيل الوميض الذي ينفتح عند مسافة قريبة منهم، والذي لم يسمعوا منه شيئاً منذ ثلاثة أيام، وعلى ما يبدو فإنّ أفراده قد غادروا المكان وانسحبوا. إنّ هذا الرعيل هو أكثر رعائل بطّارية الاستكمان عبثية، بجنوده الذين رووا لعدنان أكثر من مرة مختلف الطرائف عن انفتاحاتهم السابقة في الحروب الماضية، لا سيّما في حرب الأردن. لقد تصلبت قلوبهم وأصبح الموت لهم مهنة تشبه مهنة الجيش، نكتة سمجة. إنهم يلعبون مع الموت أحياناً بمزاح لا يرضاه الموت نفسه. لذلك فمن المحتمل جداً أن يكونوا قد غادروا مكانهم قبل ثلاثة أيام، لا سيّما وأنهم انفتحوا هناك بدون وجود ضابط بينهم، وليس أمرهم مثلما هو في رعيل الرادار التعيس، الذي سقط ثلاثة منه قتلى قبل أكثر من أسبوع، حيث حملتهم سيارة الأرزاق في طريقها، والذي أصبح تحت رحمة ضابط جبان عليه أن يقرر الانسحاب أو البقاء. وقد قرر البقاء بانتظار .حل ينزل من السماء. وعدنان الذي ردّد هذه الجملة في دخيلته، يعرف ضعف ملازم أول قاسم وعجزه عن اتخاذ قرار الانسحاب؛ لأن من أحد شروط الانسحاب تدمير جهاز الرادار الذي يكلف ربع مليون. إنه لا يخشى دفع ثمنه فحسب بل يخشى تهمة الجبن. وهذه التهمة قد شاعت في الأيام الأخيرة، ويستعملها الضابط كحجة ضد عدنان الذي اقترح تدمير الجهاز. وذكره كيف أنّ مسؤول الكتيبة الحزبي أعدم في الشهر الأول من الحرب اثنين من ضباط الصف المخابرين لعدم تنفيذها الأوامر كما ادعى. كانت تهمتهم، أنهم رفضوا ببساطة أن يتجهوا حيث امتدت أسلاك المخابرة وإصلاح ما تلف منها في ساحة العمليات. لقد ربطهما نقيب حيدر إلى عمود أحد المواضع وأمر باستدعاء جنود البطّارية القريبين ليروا مشهد الإعدام. وعدنان لا تهمه هذه التهمة، إذ إنه يشك في التحاقه بالبطّارية مرة أخرى. فلم يتورع عن إجابة ملازم أول قاسم:

. -إنّك تخاف من هذه التهمة. ولكن فكر بمشكلة التموين. وكانت مشكلة التموين فعلاً أساسية، إذ لم يبق لديهم سوى جلكان ماء وبعض المعلبات.

fb/the.boooks

ولم يجبه هذا بغير هزّة من كتفيه. وبعد هذا الحديث كفّ عدنان عن النقاش معه تماماً.

امتدت يد عدنان إلى نافذة السيارة لتفتحها، وكأنه أراد أن يسمع كيف تردد جنبات السماء صوت فيروز، أو ليريح رأسه من كل الهواجس التي غزته قبل لحظات. أراد ان ينتهي ذهنه من أمر الرعيل والضابط. كان يرغب في أن يسمعها كما كان يسمعها فوق سطح دارهم في الصيف.

دخلت نسمة هواء، حركّت جفنيه لتنفتح عيناه بسعتهما، وأمامهما امتد فضاء واسع، ومن البعيد، أحسّ عدنان بالبرية والليل يغنيان مع فيروز، ومع الهواء خفق صوتها:

.نسّم علينا الهوا

من مفرق الوادي

يا هوا دخل الهوا

خدني على بلادي.

هبط نيزك أمام عينيه. برق واختفى. جاء صوته إلى أذنيه:

-لقد أيقظتني بموسيقاك.

وكمن فوجئ أدار رأسه إلى جانبه ليرى محموداً وقد وقف عند نافذة السيارة. سأله:

-ألم تنم؟...

فقال له:

-لقد حاولت ولكن الكوابيس لا تدعني أنام.

سكت، ثم أضاف بصوت متردد:

-عدنان أنت مثل أخي. هل تدري بأني أحلم دائماً بامرأتي وهي في حضن مصري.

ثم علّق ساخراً وفي صوته شيء من المرارة:

fb/the.boooks

-تصور نحن نقاتل والمصريين يستبيحون زوجاتنا.

ردّ عليه عدنان بدون أن ينظر إليه:

-هل تذكر. عندما كنا في المحاويل. كنت تحتال دائماً لتتسلّ في الساعة العاشرة. دائماً بعد التعداد الصباحي. كنت قد تزوجت حديثاً. ولكن الآن ماذا ستفعل أيها الجندي الباسل. على فكرة هل تعرف لماذا يسمى الجيش العراقي بالباسل. لأنه يبسلها، يستل نفسه في الساعة العاشرة مثلك.

ابتسم محمود، وقبل أن ينطق عاينه عدنان الذي أصبح وجهه جدياً، والذي قال له:

-اسمع أنت الآن تتحدث عن المصريين هكذا، ولكنك كنت سابقاً تقول .المصريين رحمة يا عمي. لماذا؟ لأن والدك يشغلهم في مطعمه بأجر رخيص. الآن تدفع الثمن غالياً، الآن عليك ترديد الأغنية .غالي ريسنا غالي.

ألقى عدنان كلماته الأخيرة بسخرية. صمتا للحظة، فأتاهما صوت المذيع يعلن أنها الثانية عشرة حسب توقيت الكويت، علّق عدنان:

-الساعة صفر حسب توقيت الجبهة.

وكمن تذكر شيئاً مفاجئاً سأل عدنان:

-اسمع لماذا نحرس وهذا الكلب ينام. سأذهب لأوقظه. يجب أن يحرس هو الآخر.

مدّ محمود يده ليضغط على ذراع عدنان التي امتد نصفها خارج نافذة السيارة .

-أرجوك لا تفعل ذلك. يجب أن تكون حذراً. فالحرب لن تستمر طويلاً. ثق أنها ستنتهي. ربما أسابيع أخرى. لقد شكلت الدول الإسلامية لجنة المساعي الحميدة للتوسط. ثق أنها ستنتهي فلا تضيع مستقبلك بسبب ضابط.

ضحك عدنان، وأجابه:

-هراء، هل بقي هناك مستقبل. ثم لا تتصور أنّ الحرب ستتوقف.

fb/the.boooks

فتح عدنان باب السيارة، فابتعد محمود قليلاً. وعندما أصبح عدنان بجانبه سأله:

-ما رأيك أن نتركه ونرحل باللاندروفر. أعرف أنّك تسوق جيداً. أخ لو كنت أجيد السياقة لفعلتها منذ زمن.

فأجابه محمود:

-هل أنت مجنون. لم يبق على تسريحي سوى شهر. عندي مشاريع كثيرة. أريد أن أكمل دراستي في رومانيا. أريد أن أقضي خدمتي بنظافة.

أصغى عدنان بمشقة وأجابه:

-إنك متفائل جداً. هل تعلم أنّك تثير اشمئزازي. إنك جبان يا محمود.

صمت محمود وكأنه يعرف ذلك منذ زمن، لكنه لا يريد أن يسمعه. أمسكه عدنان من قميصه ورفع صوته بعض الشيء.

-حدثني عن كوابيسك. ها، حاول. ألا تريد أن تصدق ذلك، إنّها ليست كوابيس، إنما حقائق، إن لم تكن زوجتك بحضن مصري فإنها في حضن مسؤول الجيش الشعبي في منطقتك.

ولما رأى عدنان تصبب العرق على جبهة محمود، شدّد على كلماته التي راح يطلقها كمدفع رشّاش:

-حاول أن تصفن مع نفسك وقتاً طويلاً، لماذا هذه الحرب؟ لماذا؟ أعرف أنّك حزبي ولكن فكر ولو مرة واحدة. ربما تعثر على دواء لكوابيسك التي لا تحل. محمود إنّ كوابيسك بلا نهاية؛ لأنك نفسك كابوس نفسك. بصوت ضعيف أخرج محمود جملته:

-كف عن تعذيبي أرجوك.

ثم اتجه إلى باب السيارة، وصعد ليجلس وراء المقود. وضع جبهته هناك، وراح يبكي بوهن. خفت صوت عدنان. فقال له وكأنه يبرر قسوته:

-أنت تحلم بأوروبا. ولكن كيف تحقق حلمك إذا كنت لا تستطيع أن تمنح نفسك بعض الحرية. تريد أن تكون عبداً لقوانين تسحقك يومياً. محاط بكوابيس لا تستطيع الفكاك منها. لن تكون حراً طالما لا تريد معرفة

fb/the.boooks

الحقيقة. إنّ المشكلة ليست هي المصري، إنما الذي أشعل الحرب وأرسلك إلى الجبهة واستورد أيدي عاملة أجنبية ليشغلها كجيش احتياطي. هل تعرف أنه كان يخطط للحرب منذ اندلاع الثورة في إيران، لذلك استورد المصريين ليسد النقص في الأيدي العاملة العراقية التي سيرسلها للحرب.

رفع محمود رأسه وقال:

-أعرف.

سحب منديلاً ليمسح مخاطه وأكمل:

-اعرف ذلك يا عدنان. اذهب عني أرجوك. هات سلاحي رجاءً. إنّه عند قدمك بجانب إطار السيارة.

تناول عدنان الكلاشنكوف وسلمها إليه. رمى عدنان نفسه في موضعه كجيش متعب، وبدأ الحديث مع نفسه. هل كان يملك الحق فعلاً في الحديث مع محمود بهذه اللهجة؟ لقد اتهمه بالجبن، وهو ماذا يقول لنفسه؟ لماذا هو في هذا المكان؟ هل أراد حقاً الهروب من البيت؟ من أبيه؟ هل هذا هو تبريره الوحيد؟ هل هو الآخر جبان؟ لقد قرر منذ العفو في 79 ألاّ ينخرط في السياسة بعد الآن. وعندما اندلعت الحرب، فكر أنها مجرد أسابيع وتنتهي خدمة الاحتياط، وبعدها يستطيع العيش بحرية. أن يفكر في مهنة بسيطة، ويلجأ إلى صمته، أو ليتعاطف مع الشيوعيين ولكن على مضض. وأيضاً لن يزعجه ضابط التوجيه السياسي في الانتماء إلى حزب البعث طالما هم على الجبهة. لقد حسب الأمر بعقلانية، إذ اعتقد أنّ من الأفضل له أن يؤدي خدمة الاحتياط في الحرب منه في السلم.

وضع عدنان وجهه بين يديه. وبدأ يبكي هو الآخر. لماذا التحق بالجبهة مرة أخرى؟ وإن لم يبغ الالتحاق مع الشيوعيين في كردستان أو في الأهوار، فقد كان يعرف الطريق إلى السماوة وإلى السعودية على الأقل، وهناك من السهل عليه أن يختلط مع البدو والرعاة. ترى بماذا سيجيب لو سأله محمود؟

كلما فكر عدنان بهذه الحرب، كلما ازداد نحيبه. تقلب في مكانه وتقلبت معه الدموع التي أخذت تنحدر فوق وجنتيه. لقد بكى مرات عديدة في حياته. لكنه يبكي الآن بحرقة لم يعرفها من قبل. ومع كل قطرة يبكي سنية، نديماً، ويبكي نفسه. ماذا سيحدث لو تمّ ما تمناه ومات أبوه. لكن

fb/the.boooks

يبدو هذا الرجل صامداً أمام الموت، لا يريد أن يموت. إنه في الستين الآن، ولكن من يراه يوقن أنه سيعمّر مائة عام آخر. كم تمنى موته. لقد صرّح بتلك الرغبة أمامه مرة فصفعه على الفور صفعة قوية. ترى هل ستتبدل أوضاعه لو كان أبوه ميتاً ؟

تقلب عدنان في مكانه. ومع كل حركة يزداد بكاؤه. كان يفعل ذلك بحماسة، وكأنّه لم يبكِ منذ سنوات. لم يستطع ضبط نحيبه. لقد انفلتت دموعه. وتمنى أن ينزل محمود إليه ويسأله. ومثلما ردّد جدار الليل صوت فيروز قبل وقت قصير رددت البرية الآن نشيجه، وكأنّ ذلك البكاء قد نشأ منذ القدم. منذ آدم .وكأنّه صرخة التصقت في ممرات الهواء، انتشرت مع ضوء النجوم المتوزع هناك .كم بدا له غريباً وأليفاً في الوقت نفسه هذا البكاء. كان يعاين عري نفسه .هناك أمامه مرّت سنوات طفولته، شبابه، رجولته. جرت بسرعة. كم يود اللحاق بها. كان يبكيها كطفل أضاع بالونه في الفضاء. هل أضاع كل شيء؟ أم أنّ كل شيء هرب منه بالقوة؟ كان عدنان عارياً أمام نفسه كالليل. يدرك أنه لم يصرخ بمحمود قبل لحظات، إنما صرخ بنفسه أيضاً. وإلا لماذا هذه الحماسة. وكلما فكر في ذلك، ازداد بكاؤه، الذي يبدو أنه لن يتوقف طالما بقي العالم على هدوئه، عارياً، أجرد مسترخياً في تلك العتمة، كما كان لاحقاً وكما سيكون تباعاً. لكن الإطلاقة التي لعلعت من مقدمة اللاندروفر وتلاشى صوتها كما يتلاشى نيزك، بعد أن وزعت في داخله خوفاً لم يعهده من قبل، جعلته يكفّ عن البكاء. وبسرعة تلك الطلقة داهمه الخوف ليبقى لحظات غير قليلة، فيستمر في مكانه لا يسمع سوى لهاث أنفاسه الذي أخذ يتباطأ قليلا. رفع جسده أول الأمر قليلاً، حدّق باتجاه السيارة وكأنه ينتظر حركة ما. ظلّ على وضعه هذا لثوان حتى سمع صوت محمود وهو يدفع باب السيارة بضعف:

-ساعدوني.

وثب محمود باتجاه السيارة. ولم ينتظر ملازم أول قاسم الذي اندفع هو الآخر، إنما سحب باب السيارة وأمر محمود أن يضع يده اليمنى فوق كتفه، كي يستطيع سحبه إلى الأرض. لم يستطع محمود سماعه. لقد وهنت قواه بسرعة، وفزّ وجهه عن عرق غزير. وبآلية تحركت شفتا عدنان فقال للملازم:

-أرجوك ساعدني بحمله.

fb/the.boooks

فسحب هذا الباب إلى الجهة الأخرى، وأسند ظهره إليه· ليستطيع أخذ يده اليسرى ·

عندما أصبح على الأرض، ازداد أنين محمود· كان يتلوى كحشرة ضخمة تهم بجمع نفسها·

سأل عدنان:

-والآن ماذا نفعل، لقد أصيب شريان فخذه على ما يبدو؟ مزّق ملازم أول قاسم بنطلون محمود عند الفخذ الأيمن الذي صبغه الدم الآن· نهض الملازم وقال بصوت هادئ:

-ليس لدينا ضمادات، وضعه خطر·

لم يجبه عدنان· ولم ينظر إليه· فهو يعرف أنّ محموداً قد غامر بجرح فخذه، وأنّ الأمر خطر جداً، إذ إنّ احتمال عيشه ضعيف، إن لم يكن غير وارد على الإطلاق· لقد فعل الكثير من الجنود ذلك من أجل تسريحهم· إلا أنّ غالبهم وجّه بندقيته إلى المكان الصحيح· ولكن .المبتدئين. فحسب أمثال محمود صوبوا إلى أماكن خطرة· ولا يحتاج عدنان إلى تعليق على ذلك، فلقد لفظ محمود أنفاسه الأخيرة· وشهق شهقة طويلة·

أدار عدنان رأسه باتجاه وجه محمود، الذي كانت عيناه جاحظتين، فيما امتد خيط من الدم، لم يصبغ شفتيه فقط إنما تسرب إلى شاربه الأشقر· تمتم عدنان، وقد امتدّت يده لتغلق عيني محمود: .ضحية أخرى.

ثم أضاف بسخرية مرة:

-من أجل عيون القائد·

-الساعة صفر حسب توقيت الجبهة·

وكمن تذكر شيئاً مفاجئاً سأل عدنان:

-اسمع لماذا نحرس وهذا الكلب ينام· سأذهب لأوقظه· يجب أن يحرس هو الآخر·

مدّ محمود يده ليضغط على ذراع عدنان التي امتد نصفها خارج نافذة السيارة ·

fb/the.boooks

-أرجوك لا تفعل ذلك. يجب أن تكون حذراً. فالحرب لن تستمر طويلاً. ثق أنها ستنتهي. ربما أسابيع أخرى. لقد شكلت الدول الإسلامية لجنة المساعي الحميدة للتوسط. ثق أنها ستنتهي فلا تضيع مستقبلك بسبب ضابط.

ضحك عدنان، وأجابه:

-هراء، هل بقي هناك مستقبل. ثم لا تتصور أنّ الحرب ستتوقف.

فتح عدنان باب السيارة، فابتعد محمود قليلاً. وعندما أصبح عدنان بجانبه سأله:

-ما رأيك أن نتركه ونرحل باللاندروفر. أعرف أنّك تسوق جيداً. أخ لو كنت أجيد السياقة لفعلتها منذ زمن.

فأجابه محمود:

-هل أنت مجنون. لم يبق على تسريحي سوى شهر. عندي مشاريع كثيرة. أريد أن أكمل دراستي في رومانيا. أريد أن أقضي خدمتي بنظافة.

أصغى عدنان بمشقة وأجابه:

-إنك متفائل جداً. هل تعلم أنّك تثير اشمئزازي. إنك جبان يا محمود.

صمت محمود وكأنه يعرف ذلك منذ زمن، لكنه لا يريد أن يسمعه. أمسكه عدنان من قميصه ورفع صوته بعض الشيء.

-حدثني عن كوابيسك. ها، حاول. ألا تريد أن تصدق ذلك، إنّها ليست كوابيس، إنما حقائق، إن لم تكن زوجتك بحضن مصري فإنها في حضن مسؤول الجيش الشعبي في منطقتك.

ولما رأى عدنان تصبب العرق على جبهة محمود، شدّد على كلماته التي راح يطلقها كمدفع رشّاش:

-حاول أن تصفن مع نفسك وقتاً طويلاً، لماذا هذه الحرب؟ لماذا؟ أعرف أنّك حزبي ولكن فكر ولو مرة واحدة. ربما تعثر على دواء لكوابيسك التي لا تحل. محمود إنّ كوابيسك بلا نهاية؛ لأنك نفسك كابوس نفسك. بصوت ضعيف أخرج محمود جملته:

fb/the.boooks

-كف عن تعذيبي أرجوك.

ثم اتجه إلى باب السيارة، وصعد ليجلس وراء المقود. وضع جبهته هناك، وراح يبكي بوهن. خفت صوت عدنان. فقال له وكأنه يبرر قسوته:

-أنت تحلم بأوروبا. ولكن كيف تحقق حلمك إذا كنت لا تستطيع أن تمنح نفسك بعض الحرية. تريد أن تكون عبداً لقوانين تسحقك يومياً. محاط بكوابيس لا تستطيع الفكاك منها. لن تكون حراً طالما لا تريد معرفة الحقيقة. إنّ المشكلة ليست هي المصري، إنما الذي أشعل الحرب وأرسلك إلى الجبهة واستورد أيدي عاملة أجنبية ليشغلها كجيش احتياطي. هل تعرف أنه كان يخطط للحرب منذ اندلاع الثورة في إيران، لذلك استورد المصريين ليسد النقص في الأيدي العاملة العراقية التي سيرسلها للحرب.

رفع محمود رأسه وقال:

-أعرف.

سحب منديلاً ليمسح مخاطه وأكمل:

-اعرف ذلك يا عدنان. اذهب عني أرجوك. هات سلاحي رجاءً. إنّه عند قدمك بجانب إطار السيارة.

تناول عدنان الكلاشنكوف وسلمها إليه. رمى عدنان نفسه في موضعه كجيش متعب، وبدأ الحديث مع نفسه. هل كان يملك الحق فعلاً في الحديث مع محمود بهذه اللهجة؟ لقد اتهمه بالجبن، وهو ماذا يقول لنفسه؟ لماذا هو في هذا المكان؟ هل أراد حقاً الهروب من البيت؟ من أبيه؟ هل هذا هو تبريره الوحيد؟ هل هو الآخر جبان؟ لقد قرر منذ العفو في 79 ألاّ ينخرط في السياسة بعد الآن. وعندما اندلعت الحرب، فكر أنها مجرد أسابيع وتنتهي خدمة الاحتياط، وبعدها يستطيع العيش بحرية. أن يفكر في مهنة بسيطة، ويلجأ إلى صمته، أو ليتعاطف مع الشيوعيين ولكن على مضض. وأيضاً لن يزعجه ضابط التوجيه السياسي في الانتماء إلى حزب البعث طالما هم على الجبهة. لقد حسب الأمر بعقلانية، إذ اعتقد أنّ من الأفضل له أن يؤدي خدمة الاحتياط في الحرب منه في السلم.

وضع عدنان وجهه بين يديه. وبدأ يبكي هو الآخر. لماذا التحق بالجبهة مرة أخرى؟ وإن لم يبغ الالتحاق مع الشيوعيين في كردستان أو في الأهوار، فقد كان يعرف الطريق إلى السماوة وإلى السعودية على الأقل،

fb/the.boooks

وهناك من السهل عليه أن يختلط مع البدو والرعاة. ترى بماذا سيجيب لو سأله محمود؟

كلما فكر عدنان بهذه الحرب، كلما ازداد نحيبه. تقلب في مكانه وتقلبت معه الدموع التي أخذت تنحدر فوق وجنتيه. لقد بكى مرات عديدة في حياته. لكنه يبكي الآن بحرقة لم يعرفها من قبل. ومع كل قطرة يبكي سنية، نديماً، ويبكي نفسه. ماذا سيحدث لو تمّ ما تمناه ومات أبوه. لكن يبدو هذا الرجل صامداً أمام الموت، لا يريد أن يموت. إنه في الستين الآن، ولكن من يراه يوقن أنه سيعمّر مائة عام آخر. كم تمنى موته. لقد صرّح بتلك الرغبة أمامه مرة فصفعه على الفور صفعة قوية. ترى هل ستتبدل أوضاعه لو كان أبوه ميتاً ؟

تقلب عدنان في مكانه. ومع كل حركة يزداد بكاؤه. كان يفعل ذلك بحماسة، وكأنّه لم يبكِ منذ سنوات. لم يستطع ضبط نحيبه. لقد انفلتت دموعه. وتمنى أن ينزل محمود إليه ويسأله. ومثلما ردّد جدار الليل صوت فيروز قبل وقت قصير رددت البرية الآن نشيجه، وكأنّ ذلك البكاء قد نشأ منذ القدم. منذ آدم .وكأنّه صرخة التصقت في ممرات الهواء، انتشرت مع ضوء النجوم المتوزع هناك .كم بدا له غريباً وأليفاً في الوقت نفسه هذا البكاء. كان يعاين عري نفسه .هناك أمامه مرّت سنوات طفولته، شبابه، رجولته. جرت بسرعة. كم يود اللحاق بها. كان يبكيها كطفل أضاع بالونه في الفضاء. هل أضاع كل شيء؟ أم أنّ كل شيء هرب منه بالقوة؟ كان عدنان عارياً أمام نفسه كالليل. يدرك أنه لم يصرخ بمحمود قبل لحظات، إنما صرخ بنفسه أيضاً. وإلا لماذا هذه الحماسة. وكلما فكر في ذلك، ازداد بكاؤه، الذي يبدو أنه لن يتوقف طالما بقي العالم على هدوئه، عارياً، أجرد مسترخياً في تلك العتمة، كما كان لاحقاً وكما سيكون تباعاً. لكن الإطلاقة التي لعلعت من مقدمة اللاندروفر وتلاشى صوتها كما يتلاشى نيزك، بعد أن وزعت في داخله خوفاً لم يعهده من قبل، جعلته يكفّ عن البكاء. وبسرعة تلك الطلقة داهمه الخوف ليبقى لحظات غير قليلة، فيستمر في مكانه لا يسمع سوى لهاث أنفاسه الذي أخذ يتباطأ قليلا. رفع جسده أول الأمر قليلاً، حدّق باتجاه السيارة وكأنه ينتظر حركة ما. ظلّ على وضعه هذا لثوان حتى سمع صوت محمود وهو يدفع باب السيارة بضعف:

-ساعدوني.

fb/the.boooks

وثب محمود باتجاه السيارة. ولم ينتظر ملازم أول قاسم الذي اندفع هو الآخر، إنما سحب باب السيارة وأمر محمود أن يضع يده اليمنى فوق كتفه، كي يستطيع سحبه إلى الأرض. لم يستطع محمود سماعه. لقد وهنت قواه بسرعة، وفزّ وجهه عن عرق غزير. وبآلية تحركت شفتا عدنان فقال للملازم:

-أرجوك ساعدني بحمله.

فسحب هذا الباب إلى الجهة الأخرى، وأسند ظهره إليه. ليستطيع أخذ يده اليسرى .

عندما أصبح على الأرض، ازداد أنين محمود. كان يتلوى كحشرة ضخمة تهم بجمع نفسها.

سأل عدنان:

-والآن ماذا نفعل، لقد أصيب شريان فخذه على ما يبدو؟ مزّق ملازم أول قاسم بنطلون محمود عند الفخذ الأيمن الذي صبغه الدم الآن. نهض الملازم وقال بصوت هادئ:

-ليس لدينا ضمادات، وضعه خطر.

لم يجبه عدنان. ولم ينظر إليه. فهو يعرف أنّ محموداً قد غامر بجرح فخذه، وأنّ الأمر خطر جداً، إذ إنّ احتمال عيشه ضعيف، إن لم يكن غير وارد على الإطلاق. لقد فعل الكثير من الجنود ذلك من أجل تسريحهم. إلا أنّ غالبهم وجّه بندقيته إلى المكان الصحيح. ولكن .المبتدئين. فحسب أمثال محمود صوبوا إلى أماكن خطرة. ولا يحتاج عدنان إلى تعليق على ذلك، فلقد لفظ محمود أنفاسه الأخيرة. وشهق شهقة طويلة.

أدار عدنان رأسه باتجاه وجه محمود، الذي كانت عيناه جاحظتين، فيما امتد خيط من الدم، لم يصبغ شفتيه فقط إنما تسرب إلى شاربه الأشقر. تمتم عدنان، وقد امتدّت يده لتغلق عيني محمود: .ضحية أخرى.

ثم أضاف بسخرية مرة:

-من أجل عيون القائد.

fb/the.boooks

ظلّ عدنان ساجداً عند الجسد الممدد، يداعب أطراف قميص محمود. رفع رأسه إلى الملازم، وانتزع من أعماقه صرخة تفوق دوي مدفع:

.كفى! ثم صاح بالملازم من خلال الدموع:

-هات الرفش لنحفر له قبراً.

وبتردد أجابه الملازم:

-إنه تعب زائد. اتركه مطروحاً. من يسأل عن قبر في الحرب؟ هل أنت مجنون. إنّ الحرب نفسها مقبرة كبيرة. ثم إنه جندي جبان وقع ضحية جبنه.

فصاح به عدنان:

-اسمع أريد أن أحفر له قبراً. هل فهمت. ثم إنه أشجع منك. أنت آخر من يستطيع تقييم من هو الجندي الشجاع ومن هو الجبان. هات الرفش بسرعة.

رفع الملازم الرفش الذي كان قريباً من قدميه، حيث وقف بجانب الرادار وقذف به إلى عدنان، اتجه عدنان بالرفش إلى موضعهم. عاين المكان. وأشار للملازم بمساعدته على حمل جثة محمود. تعاون الاثنان على حمل الجثة، فسأله الملازم بفضول عندما أصبحا عند الموضع :

-ماذا تريد أن تفعل؟.

فأجابه:

-سأدفنه في الموضع.

تركت يداهما الجثة التي استقرت في الموضع.

اعترض الملازم بنفاد صبر:

-تريد أن تدفنه هنا. أنت مجنون بالفعل. أين سننام؟.

لم يجبه عدنان، إنما رفع الرفش وبدأ بإزاحة التراب فوقه، فاستفز هذا الوضع الملازم الذي سأل مرة أخرى:

fb/the.boooks

-لماذا لا تجيبني؟

فأجابه عدنان هذه المرة بدون الكّف عن ردم الموضع:

-سيّان. سننام فوق. ثم أحب أن أقول لك بأني سأرحل في الصباح شئت أم أبيت. فعلى ما يبدو أنّك لا تريد مغادرة المكان.

ترك عدنان الرفش، واتجه حيث يقف ملازم أول قاسم ومسكه من كم قميصه.

-هل تعرف لو أننا غادرنا موضعنا لما صنع محمود الذي صنعه.

خلص الضابط يده من يد عدنان وصاح به بصوت فيه شيء من التهديد :

-لن أسمح لك بعد الآن أن تتحدث معي بهذه اللهجة. حاول أن تهدئ نفسك. وتذكر أننا في أي وقت ممكن أن نكون في الكتيبة.

سخر عدنان منه:

-لو كنت مكانك لانتحرت. إنّك لا تستطيع أن ترجع إلى الكتيبة بدون جهاز رادار. إنني...

لم يكمل عدنان كلامه، إذ رغب أن يقول له: .أبصق عليك. إلا أنه عدل ليقول له بدلاً عن ذلك:

-هل تعرف أنّ محمود أشجع منك.

فقال له الملازم وقد عوج فمه مبدياً سخريته:

-إنّك تتفلسف لا غير. أعرفكم أنتم الشيوعيين لا تعرفون غير الفلسفة.

أخرج عدنان سيجارة من جيبه. أشعلها. ومع نفثة للدخان ردّ عليه:

-أنت مضحك. ما دخل الشيوعية بكلامنا. ثانياً لو كنت شيوعياً لما كنت هنا بجانبك. أنت جبان يا ملازم قاسم. في المعسكر كنت تقول لي .ألعن أبوك لابو أبو الشيوعيين. ما الذي جعلك تلين. قل لي بربك. هل هو قائدك الذي سبّب لك كل هذا الإحراج. فكر في الأمر، في الستينات كان بإمكان ضابط أن يقوم بانقلاب. الآن أصبحتم .مذلّين مهانين. لقد ركبكم شخص كان في الأصل هارباً من العسكرية. وأنتم ماذا بقي لكم؟ لا شيء... يوزع

fb/the.boooks

علـيكم الأوسـمة، ويسـمي مـنكم الجبـان والشـجاع· يرسـلكم إلـى المـوت· وأنـتم تبلعون الإهانة تلو الإهانة·

نفـث عـدنان دخـان سـيجارته بقـوة· ولـم يعـد يخفـف جانبهـا المشـتعل كمـا كـان يفعـل قبـل فتـرة· لقـد أخـذ يـدخن بحريـة، وكانـت بـه رغبـة ألاّ يتوقـف عـن الكـلام، فقـد جمـع كـل مـا تـراكم فـي أعماقـه ضـد مـلازم أول قاسـم· كـان كحيـوان مجتـر قـد اجتـر بـدل طعامـه كـل هـذه الكميـة مـن الشـتائم· كـان يقفـز علـى خوفـه، الآن يعـرف كـم كـان جبانـاً وخائفـاً ؟ يعذبـه هـذا الاكتشـاف، فيجعلـه يـتحمس أكثـر فـي شـتيمة مـلازم قاسـم، وكأنـه يريـد اختبـار تجـاوزه لخوفه·

داس عدنان على سيجارته تحت قدمه وأكمل:

-هـل تعلـم بأنّـك تثيـر اشـمئزازي· منـذ زمـن أريـد أن أقـول لـك ذلـك· فـي الكتيبـة كنـت تتبختـر كالطـاووس بسـجل العقوبـات .الأزرق.، كمـا يسـمي نائـب ضـابط مزبـان الـذي لا يعـرف لحـد الآن أنّ اسـمه ذو أصـل فارسـي ويعنـي صـاحب المائـدة ·كـان مزبـان يفتخـر بحملـه دفتـر العقوبـات· ويـوم الأحـد عنـدما يُجمـع المـذنبون، يكـون الحـظ الأكبـر مـن العقوبـات مـن طرفـك· هـلاّ قلت لي لماذا؟ هل كانت فيك دودة العقوبات؟

فأجابه ملازم أول قاسم بامتعاض فيما كان داخله يغلي هو الآخر:

-وكيـف تريـد أن نبنـي عسـكرية جديـدة· بفضـل الضـبط العسـكري انتصـرنا على المجوس· وها نحن على مشارف عبادان؟

فعلق عدنان ساخراً:

-لـذلك عنـدما كنـتم تعـاقبون جنـودكم المنضـبطين تكتبـون فـي كنيـاتهم، نكحـوا غـزالاً بعـد نكحهـم للحميـر عنـدما كنـتم فـي أغـوار الأردن· هـل علّمهـم ضبطكم ألا يتركوا حمارة في الأردن إلا واعتدوا عليها···

صمت عدنان قليلاً ثم استمر وهو يضحك:

-ثـم قبـل أن تصـل عبـادان خلـص نفسـك مـن هـذه الورطـة· ثانيـاً، أي ضـبط تتحـدث عنـه؟ هـل للجـيش قيمـة إذا كـان قائـده العـام لـم يخـدم ولـو ليـوم واحـد فـي الجـيش، ليظهـر فجـأة وليفـاجئ ضـباطه بحربـه المقدسـة، والتـي أضـفى عليهـا كل أسماء معارك العرب القديمة؟

fb/the.boooks

ردّ عليه الملازم بسرعة:

-ذلك أمر آخر.

صمت الملازم ليكمل كلامه وكأنه تذكر أمراً مهماً:

-لماذا لم تقل كلامك هذا سابقاً ؟

زاغت عينا عدنان في نقطة لا يستطيع تحديدها وأجاب بدون أن ينظر إلى وجه الملازم:

-إنه السبب ذاته الذي جعلك لا ترد على إهاناتي لك. لقد كنتم سابقاً الأقوى. أما الآن فأنتم ضعاف. أنظر إلى نفسك كيف ترتعش الآن.

فأجابه:

-سأدفنه في الموضع.

تركت يداهما الجثة التي استقرت في الموضع.

اعترض الملازم بنفاد صبر:

-تريد أن تدفنه هنا. أنت مجنون بالفعل. أين سننام؟.

لم يجبه عدنان، إنما رفع الرفش وبدأ بإزاحة التراب فوقه، فاستفز هذا الوضع الملازم الذي سأل مرة أخرى:

-لماذا لا تجيبني؟

فأجابه عدنان هذه المرة بدون الكّف عن ردم الموضع:

-سيّان. سننام فوق. ثم أحب أن أقول لك بأني سأرحل في الصباح شئت أم أبيت. فعلى ما يبدو أنّك لا تريد مغادرة المكان.

ترك عدنان الرفش، واتجه حيث يقف ملازم أول قاسم ومسكه من كم قميصه.

-هل تعرف لو أننا غادرنا موضعنا لما صنع محمود الذي صنعه.

خلص الضابط يده من يد عدنان وصاح به بصوت فيه شيء من التهديد :

fb/the.boooks

-لـن أسـمح لـك بعـد الآن أن تتحـدث معـي بهـذه اللهجـة· حـاول أن تهـدئ نفسك· وتذكر أننا في أي وقت ممكن أن نكون في الكتيبة·

سخر عدنان منه:

-لـو كنـت مكانـك لانتحـرت· إنّـك لا تسـتطيع أن ترجـع إلـى الكتيبـة بـدون جهاز رادار· إنني···

لـم يكمـل عـدنان كلامـه، إذ رغـب أن يقـول لـه: .أبصـق عليـك. إلا أنـه عـدل ليقول له بدلاً عن ذلك:

-هل تعرف أنّ محمود أشجع منك·

فقال له الملازم وقد عوج فمه مبدياً سخريته:

-إنّك تتفلسف لا غير· أعرفكم أنتم الشيوعيين لا تعرفون غير الفلسفة·

أخرج عدنان سيجارة من جيبه· أشعلها· ومع نفثة للدخان ردّ عليه:

-أنـت مضـحك· مـا دخـل الشـيوعية بكلامنـا· ثانيـاً لـو كنـت شـيوعياً لمـا كنـت هنـا بجانبـك· أنـت جبـان يـا مـلازم قاسـم· فـي المعسـكر كنـت تقـول لـي .ألعـن أبـوك لابـو أبـو الشـيوعيين. مـا الـذي جعلـك تلـين· قـل لـي بربـك· هـل هـو قائـدك الـذي سـبّب لـك كـل هـذا الإحـراج· فكـر فـي الأمـر، فـي السـتينات كـان بإمكـان ضـابط أن يقـوم بـانقلاب· الآن أصـبحتم .مـذلّين مهـانين. لقـد ركـبكم شـخص كـان فـي الأصـل هاربـاً مـن العسـكرية· وأنـتم مـاذا بقـي لكـم؟ لا شـيء··· يـوزع علـيكم الأوسـمة، ويسـمي مـنكم الجبـان والشـجاع· يرسـلكم إلـى المـوت· وأنـتم تبلعون الإهانة تلو الإهانة·

نفـث عـدنان دخـان سـيجارته بقـوة· ولـم يعـد يخفـف جانبهـا المشـتعل كمـا كـان يفعـل قبـل فتـرة· لقـد أخـذ يـدخن بحريـة، وكانـت بـه رغبـة ألاّ يتوقـف عـن الكـلام، فقـد جمـع كـل مـا تـراكم فـي أعماقـه ضـد مـلازم أول قاسـم· كـان كحيـوان مجتـر قـد اجتـر بـدل طعامـه كـل هـذه الكميـة مـن الشـتائم· كـان يقفـز علـى خوفـه، الآن يعـرف كـم كـان جبانـاً وخائفـاً ؟ يعذبـه هـذا الاكتشـاف، فيجعلـه يـتحمس أكثـر فـي شـتيمة مـلازم قاسـم، وكأنـه يريـد اختبـار تجـاوزه لخوفه·

داس عدنان على سيجارته تحت قدمه وأكمل:

fb/the.boooks

-هل تعلم بأنّك تثير اشمئزازي. منذ زمن أريد أن أقول لك ذلك. في الكتيبة كنت تتبختر كالطاووس بسجل العقوبات .الأزرق.، كما يسمي نائب ضابط مزبان الذي لا يعرف لحد الآن أنّ اسمه ذو أصل فارسي ويعني صاحب المائدة .كان مزبان يفتخر بحمله دفتر العقوبات. ويوم الأحد عندما يُجمع المذنبون، يكون الحظ الأكبر من العقوبات من طرفك. هلاّ قلت لي لماذا؟ هل كانت فيك دودة العقوبات؟

فأجابه ملازم أول قاسم بامتعاض فيما كان داخله يغلي هو الآخر:

-وكيف تريد أن نبني عسكرية جديدة. بفضل الضبط العسكري انتصرنا على المجوس. وها نحن على مشارف عبادان؟

فعلق عدنان ساخراً:

-لذلك عندما كنتم تعاقبون جنودكم المنضبطين تكتبون في كنياتهم، نكحوا غزالاً بعد نكحهم للحمير عندما كنتم في أغوار الأردن. هل علّمهم ضبطكم ألا يتركوا حمارة في الأردن إلا واعتدوا عليها...

صمت عدنان قليلاً ثم استمر وهو يضحك:

-ثم قبل أن تصل عبادان خلص نفسك من هذه الورطة. ثانياً، أي ضبط تتحدث عنه؟ هل للجيش قيمة إذا كان قائده العام لم يخدم ولو ليوم واحد في الجيش، ليظهر فجأة وليفاجئ ضباطه بحربه المقدسة، والتي أضفى عليها كل أسماء معارك العرب القديمة؟

ردّ عليه الملازم بسرعة:

-ذلك أمر آخر.

صمت الملازم ليكمل كلامه وكأنه تذكر أمراً مهماً:

-لماذا لم تقل كلامك هذا سابقاً ؟

زاغت عينا عدنان في نقطة لا يستطيع تحديدها وأجاب بدون أن ينظر إلى وجه الملازم:

-إنه السبب ذاته الذي جعلك لا ترد على إهاناتي لك. لقد كنتم سابقاً الأقوى. أما الآن فأنتم ضعاف. أنظر إلى نفسك كيف ترتعش الآن.

fb/the.boooks

وحقاً كان ملازم قاسم يرتعد بصورة ملحوظة. أضاف عدنان ساخراً:

-إنّ الأمر واحد بالنسبة لي. ماذا ينتظرني بعد الآن. الموت من أمامي وأنتم من ورائي. من الأشرف لي الموت في زنازين السلطة من الموت في هذه الحرب.

سأله الملازم الذي لم يشأ ترك عدنان في قناعاته:

-ولماذا عرفت هذا في وقت آخر؟

فأجابه عدنان وقد أدار وجهه إليه ليلقي بجملته قوية وواضحة:

-لقد كنت غبياً. كنت أعتقد أنّ الموت لن يصلني. لقد فكرت بأني مجرد جندي فني. وستنتهي خدمة الاحتياط بسرعة. كنت أنانياً. كنت أتصور أنه أفضل لي أن أخدم في الحرب منه في السلم. كان تصوري ساذجاً عن الحرب.

وعندما لاحظ عدنان أنّ الملازم لا يزال يحدّق به، عرف أنّه يرغب منه بتوضيحات أخرى:

-إنّ الأمر غريب بالنسبة إليك. لقد عودّوكم على القتل. ورحتم تقتلون بآلية، بقناعات. وبدون قناعات، ورحتم تتهالكون على ضحاياكم من دون أن تعلموا أنكم تنفذون مخططاً كبيراً لتدمير العراق وإبادة ناسه.

سخر الملازم من عدنان فقال له:

-تدمير العراقيين، وكأن العراقيين غير راضين عن ذلك. هل تعرف أنهم لا يستطيعون العيش إلا إذا حكموا بالحديد والنار. منذ حمورابي مروراً بالحجاج.

قاطعه عدنان:

-وانتهاءً بقائدهم.

سكت الملازم. فتابع عدنان حديثه:

-لقد دمرتم العراق. علمتم الناس الإنتهازية، وجئتم لتقولوا بعدها إنّهم يحبون حكم القوي. هل سألت نفسك لماذا فعل محمود فعلته؟

fb/the.boooks

فأجابه وكأنّ به رغبة أن يستفزه :

-لأنّه جبان ويائس. كان عليه أن يصبر.

قفز عدنان إليه وكأنه لُدغ. وعندما وصل إليه تراجع إلى مكانه. أخرج آهة قوية. تناول الرفش مرة أخرى. وراح يدفع التراب إلى جثة محمود التي غطيت الآن تماماً. ومع نفسه راح يردد بصوت يسمعه ملازم أول قاسم بالتأكيد، إلا أنه غضّ الطرف. كان يردد: .جبان. جبان. كان بإمكان عدنان أن يدفع بالرفش إلى وجه الملازم أو يطلق النار عليه، إلا أنّه كان يقول مع نفسه: .إنه ضحية أخرى من ضحايا النظام. وكانت تلك الجملة كعتاد جمعها لتهدئة أعصابه. ولا يدري فيما إذا كان خوفه من البقاء وحيداً جعله ينظر إلى الملازم كضحية .وإلا فإنه يعرف أي نوع من البشر هذا قاسم الحلو. إنه من تلك الدفعات التي جاءت من عوائل فقيرة الأصل ولم تستطع تكملة دراستها، فالتحقت في الدورات السريعة التي عملها الحزب الحاكم في بداية السبعينات، من أجل إخراجها كضباط بسرعة. كانوا يسمون بدورات الموس؛ لأن الضباط يحصلون في البداية على رتبة .موس. لمدة ستة أشهر، ويبقون بتلك الرتبة حتى يحصلوا بعدها على النجمة. وفي هذا الجانب لا يبدو ملازم أول قاسم ضحية كما يعتقد عدنان.

كلما فكر عدنان بذلك، ازدادت قوة قدميه في دفع الرفش.

مع الوقت اختفت جثة محمود تماماً. وفكر عدنان بتفاهة الموت وحقارته . فبمثل هذه السرعة اختفى محمود، مثلما غادر الليل موضعهم وانسلّ بخفية .

كان عدنان قد بدأ يتعب فعلاً، لقد انغلق جفناه أكثر من مرة، إلا أنّ إصراره على دفن محمود جعله يبقى يقظاً بشكل حاد. وعندما انتهى من إزاحة التراب، استند إلى الرفش وتنفس بارتياح. أغمض عينيه قليلاً، وفكر في النوم الآن، لكنه فتح عينيه على سعتهما عندما سمع صوت ملازم أول قاسم وهو يسحب أقسام الكلاشنكوف:

-والآن سأنتهي منك أيها الشيوعي الحقير. إزحف أمامي فوراً. وقل سيدي. ازحف قشمر.

تصبب جبين عدنان عرقاً. ظلّ محافظاً على وقفته، فيما ازداد اضطراب ملازم أول قاسم. وأخذ صوته في الارتفاع:

fb/the.boooks

-سأعلمك كيف أنّ القوة هي السيد هنا.

دفعه بفوهة البندقية. تراجع عدنان خطوات وظلّ الرفش في يده. ضحك الملازم.

-ها. قل سيدي وإلا أفرغت الطلقات في رأسك.

ثم وضع فوهة البندقية فوق كتف عدنان وضغط بها عليه:

-إنزل إلى الأرض أيها الحقير. ازحف، كما كنت أزحفك في المحاويل.

هبط عدنان مجبراً على الأرض، وكان يفكر بطريقة للتخلص من وضعه.

أكمل الملازم كلامه:

-هكذا. أنت الآن جندي مطيع. والآن ازحف. كما زحفت سابقاً. هل تذكر .كنت دائماً تتمارض أو تأتينا بحجة يوم الأربعاء، يوم الرياضة الصباحية والصعود العنيف. إلى أن ظفرت بك يوماً. كنت أعرف أنّك لست إلا متبجحاً دعّياً. لقد جعلتك تزحف ذلك اليوم. هل تذكر. درت ساحة العرضات خمس مرات .والآن نسيت ذلك كله ورحت تتفلسف عليّ.

ثم أخذ يصرخ بشكل هستيري:

-ازحف. ازحف. ازحف.

وقبل أن ينطق بـ.ازحف. للمرة الرابعة، دفع عدنان بالرفش إلى قدميه، كانت الضربة مفاجئة قوية، فأسقطته على الأرض مع البندقية التي انفلتت على إثرها من يده. وعندما حاول النهوض انهال عليه عدنان بضربة أخرى على رأسه جعلته هذه المرة يسقط على الأرض، ليستقر هناك بلا حراك إلى الأبد.

رمى عدنان الرفش بعيداً. اقترب من الملازم. حركه، فبدا له ثقيلاً غير قابل للتحرك. لم يصدق عدنان أنّه قد قتل ملازم أول قاسم الحلو. نهض من مكانه، ودار دورتين أو ثلاثاً، أو أربعاً. لا يدري. كان يدور كثور معصوب العينين. اتجه إلى قَدَر لم يختَرْه. أن يقتل ــ هذا ما لم يخطر على باله يوماً. لعل الجريمة الوحيدة التي ارتكبها هي اشتهاؤه موت أبيه. أما أن يقتل! اتجه مرة أو مرتين وربما ثلاثاً إلى سيارة اللاندروفر. هاج.

fb/the.boooks

تناول الكلاشنكوف ووجّهها إلى جهاز الرادار. وعلى الجسد الحديدي الأخضر راح يفرغ رصاصاته هناك. ولم يهدأ إلا عندما هدأت الرشاشة. سقط السلاح من يده، ليسقط هو الآخر على الأرض. احتقر نفسه في تلك اللحظة لأنه شعر بندم لقتل الضابط .آه كم هو هش ورخيص، ليحتله هاجس واحد. هاجس واحد ودونه العالم. لقد قتل بشراً. كم كان يفتخر مع نفسه لأنه جندي مشاة أو مدفعية أو طيران أو دبابات .كان مطمئناً أنه ليس أكثر من جندي فني يجلس عند راداره مثلما تجلس ربة بيت عند طباخها. كان يخاف أن يُقتل وأن يقتل، وتجلت له الآن سخافة رغبته بموت أبيه. كان رأسه يضج. وتختلط في ذهنه صور كثيرة. صياح، تنادٍ. أياد تمتد . عويل. نساء. جارتهم التي فقدت ابنها. يضغط على رأسه. يصبح مشهد جارتهم قريباً جداً من وجهه. كانت تصرخ:

-لقد قتلوه.

آنذاك خاف أن يسألها من تعني. فقد كان على يقين أنها ستقول له: .الحكومة

قال لها:

-انظري في التابوت. قد يكون جندياً آخر.

لم تستطع الأم تفحص محتوى التابوت، بل لم تشأ. فتحت إحدى الجارات غطاء التابوت. وظلّت حائرة لا تعرف ماذا تقول، إذ من الصعب تمييز وجه الشخص الملفوف في كيس من النايلون، والذي لم يكن أكثر من سائل جلاتيني. سيّان إن كان محمداً أم غيره؛ إذ لم تنقطع أمه عن الترديد.

-كان عليه أن يأتي في إجازة الأسبوع الماضي. لكن الضابط منعه.

الضابط. الضابط. كم تثير تلك الكلمة اشمئزازه. لقد كرهها منذ كان طفلاً. كان في السابعة من عمره عندما خرج مع أبيه ونقيب عبد الرضا ابن عم أبيه. وعندما وصلوا سوق المدينة، مرّ أحد الجنود بهم عند مدخل السوق. فسحبه نقيب عبد الرضا من ذراعه وصاح به.

.حمار. لماذا تنزع بيريتك

فأجابه الجندي متسائلاً:

fb/the.boooks

مع الوقت اختفت جثة محمود تماماً. وفكر عدنان بتفاهة الموت وحقارته . فبمثل هذه السرعة اختفى محمود، مثلما غادر الليل موضعهم وانسلّ بخفية .

كان عدنان قد بدأ يتعب فعلاً، لقد انغلق جفناه أكثر من مرة، إلا أنّ إصراره على دفن محمود جعله يبقى يقظاً بشكل حاد. وعندما انتهى من إزاحة التراب، استند إلى الرفش وتنفس بارتياح. أغمض عينيه قليلاً، وفكر في النوم الآن، لكنه فتح عينيه على سعتهما عندما سمع صوت ملازم أول قاسم وهو يسحب أقسام الكلاشنكوف:

-والآن سأنتهي منك أيها الشيوعي الحقير. إزحف أمامي فوراً. وقل سيدي. ازحف قشمر.

تصبب جبين عدنان عرقاً. ظلّ محافظاً على وقفته، فيما ازداد اضطراب ملازم أول قاسم. وأخذ صوته في الارتفاع:

-سأعلمك كيف أنّ القوة هي السيد هنا.

دفعه بفوهة البندقية. تراجع عدنان خطوات وظلّ الرفش في يده. ضحك الملازم.

-ها. قل سيدي وإلا أفرغت الطلقات في رأسك.

ثم وضع فوهة البندقية فوق كتف عدنان وضغط بها عليه:

-إنزل إلى الأرض أيها الحقير. ازحف، كما كنت أزحفك في المحاويل.

هبط عدنان مجبراً على الأرض، وكان يفكر بطريقة للتخلص من وضعه.

أكمل الملازم كلامه:

-هكذا. أنت الآن جندي مطيع. والآن ازحف. كما زحفت سابقاً. هل تذكر .كنت دائماً تتمارض أو تأتينا بحجة يوم الأربعاء، يوم الرياضة الصباحية والصعود العنيف. إلى أن ظفرت بك يوماً. كنت أعرف أنّك لست إلا متبجحاً دعّياً. لقد جعلتك تزحف ذلك اليوم. هل تذكر. درت ساحة العرضات خمس مرات .والآن نسيت ذلك كله ورحت تتفلسف عليّ.

fb/the.boooks

ثم أخذ يصرخ بشكل هستيري:

-ازحف. ازحف. ازحف.

وقبل أن ينطق بـ.ازحف. للمرة الرابعة، دفع عدنان بالرفش إلى قدميه، كانت الضربة مفاجئة قوية، فأسقطته على الأرض مع البندقية التي انفلتت على إثرها من يده. وعندما حاول النهوض انهال عليه عدنان بضربة أخرى على رأسه جعلته هذه المرة يسقط على الأرض، ليستقر هناك بلا حراك إلى الأبد.

رمى عدنان الرفش بعيداً. اقترب من الملازم. حركه، فبدا له ثقيلاً غير قابل للتحرك. لم يصدق عدنان أنّه قد قتل ملازم أول قاسم الحلو. نهض من مكانه، ودار دورتين أو ثلاثاً، أو أربعاً. لا يدري. كان يدور كثور معصوب العينين. اتجه إلى قَدَر لم يختَرْه. أن يقتل ــ هذا ما لم يخطر على باله يوماً. لعل الجريمة الوحيدة التي ارتكبها هي اشتهاؤه موت أبيه. أما أن يقتل! اتجه مرة أو مرتين وربما ثلاثاً إلى سيارة اللاندروفر. هاج. تناول الكلاشنكوف ووجّهها إلى جهاز الرادار. وعلى الجسد الحديدي الأخضر راح يفرغ رصاصاته هناك. ولم يهدأ إلا عندما هدأت الرشاشة. سقط السلاح من يده، ليسقط هو الآخر على الأرض. احتقر نفسه في تلك اللحظة لأنه شعر بندم لقتل الضابط .آه كم هو هش ورخيص، ليحتله هاجس واحد. هاجس واحد ودونه العالم. لقد قتل بشراً. كم كان يفتخر مع نفسه لأنه جندي مشاة أو مدفعية أو طيران أو دبابات .كان مطمئناً أنه ليس أكثر من جندي فني يجلس عند راداره مثلما تجلس ربة بيت عند طباخها. كان يخاف أن يُقتل وأن يقتل، وتجلت له الآن سخافة رغبته بموت أبيه. كان رأسه يضج. وتختلط في ذهنه صور كثيرة. صياح، تنادٍ. أياد تمتد . عويل. نساء. جارتهم التي فقدت ابنها. يضغط على رأسه. يصبح مشهد جارتهم قريباً جداً من وجهه. كانت تصرخ:

-لقد قتلوه.

آنذاك خاف أن يسألها من تعني. فقد كان على يقين أنها ستقول له: .الحكومة

قال لها:

-انظري في التابوت. قد يكون جندياً آخر.

fb/the.boooks

لم تستطع الأم تفحص محتوى التابوت، بل لم تشأ. فتحت إحدى الجارات غطاء التابوت. وظلّت حائرة لا تعرف ماذا تقول، إذ من الصعب تمييز وجه الشخص الملفوف في كيس من النايلون، والذي لم يكن أكثر من سائل جلاتيني. سيّان إن كان محمداً أم غيره؛ إذ لم تنقطع أمه عن الترديد.

-كان عليه أن يأتي في إجازة الأسبوع الماضي. لكن الضابط منعه.

الضابط. الضابط. كم تثير تلك الكلمة اشمئزازه. لقد كرهها منذ كان طفلاً. كان في السابعة من عمره عندما خرج مع أبيه ونقيب عبد الرضا ابن عم أبيه. وعندما وصلوا سوق المدينة، مرّ أحد الجنود بهم عند مدخل السوق. فسحبه نقيب عبد الرضا من ذراعه وصاح به.

.حمار. لماذا تنزع بيريتك.

فأجابه الجندي متسائلاً:

-وما دخلك.

فصرخ به النقيب:

-استعّد يا الكلب.

فاستعّد الجندي بخوف، فيما عاجله نقيب عبد الرضا بصفعة جلبت انتباه المارة جميعاً.

لم يرفع الجندي رأسه. فصاح به النقيب باحتقار:

-اغرب عن وجهي.

وكم كره عدنان الناس الذين فسحوا الطريق للنقيب الذي مشى بزهو. ولاحظ عدنان أيضاً كيف أنّ أباه كان يحدّق بالمارة بكبرياء. لقد كره أباه مثلما كره النقيب. وعندما أصبحوا في المقهى أراد بحسه الطفولي النزق أن ينتقم للجندي من النقيب.

فقال له:

-أريد أن أهمس شيئاً ما في أذنك أيها العم!

فقدّم النقيب أذنه ثم جعر وصاح:

fb/the.boooks

-اترك أذني· آخ·

فما كان من أبيه إلا أن سحبه وانهال عليه بالصفعات· تتداخل الصفعات أمام عينيّ عدنان· تختلط· صفعة النقيب· صفعة أبيه· صفعات نقيب التوجيه السياسي الذي اسمه حيدر وهو يسحب الجنود المتهمين بالجبن· لم يكتف نقيب حيدر بصفعهم، إنما شدّهم يوماً كاملاً إلى أحد أعمدة المواضع، وجمع جنود البطّارية القريبة وراح يلقي عليهم محاضرة عن الحرب المقدسة.، وعن واجبات العراقيين في الدفاع عن وطنهم· كانا اثنين من جنود المخابرة اللذين امتنعا عن إصلاح ما تلف من كيبلات اللاسلكي· وعندما تأكد للنقيب أنهما لم يقوما بما كلفهما به أصدر عليهما حكم الإعدام، وتلك عادة أصبحت مألوفة على الخطوط الأمامية· كم كان عدنان خائفاً حينها من أن يؤمر هو بإطلاق النار· قال لنفسه سأطلق النار على نقيب حيدر· ولكنه لم يكن على يقين من أنّه سيقوم بذلك فعلاً· كانت مجرد فكرة! ألم يحدّق به جنديا المخابرة عندما سقطا على الأرض وعيونهما مفتوحة؟ ألم ينظرا باحتجاج؟ وجنود فرقة الإعدام بم فكروا؟ عندما حاول بعضهم الانسحاب هددهم النقيب بملاقاة المصير ذاته إذا ما فعلوا ·ولم يكتف بذلك· إنما صفع جندياً اسمه موفق· الذي توسل إليه:

-سيدي أنا أصلي ولا أستطيع قتل أحد· أنا أخاف من الله·

فما كان من النقيب إلا أن صرخ في وجهه مهدداً:

-أنت إذهب إلى الجحيم· أنت منذ اليوم عضو دائم في فرقة الإعدام·

وفعلاً أصبحت فرقة الإعدام ثابتة· ولحسن حظه، فقد انتقل رعيله لينفتح بمكان بعيد عن البطّارية· ولقد سمع من جنود الحانوت عن حالات الإعدام الأخرى التي نفّذتها الفرقة ذاتها· هل من الممكن أن يكون القتل أمراً روتينياً ؟ هل من الممكن التمييز بين حالات القتل هذه وحالته في قتل ملازم أول قاسم الحلو·

ضج رأس عدنان بتلك الأسئلة، وشعر بوهن يغزو جسده· عناء يزحف بين مساماته، يثقل عليه، ولا يمكن طرده· تعب وعطش يجتاحانه· بلل شفتيه بلسانه ·بقي عدنان في مكانه· ركبتاه على الأرض، لا يستطيع مغادرة مكانه وكأنه زُرع هناك· وبدا له أنّ جالكان الماء بعيد بعد السماء·

fb/the.boooks

اختفى الليل ليفسح الطريق أمام فجر بدأ يتثاءب بشمسه. ارتفعت من بعيد أصوات إطلاقة المدافع التي تعلن كعادتها عن صباح جديد. لم تثره تلك الأصوات أبداً. إنما وصلت إلى أذنيه واهنة، حتى شعر بأنها زائدة عن اللزوم، ذلك لأنه شعر برغبة قوية في النوم. لقد بدأ النعاس يستولي عليه ببطء، ويجعل جسده يسقط من دون أن يدري ليغفو وكأنه لم ينم منذ سنين طويلة. اختفت الجبهة من رأسه تماماً ليحل محلها سياج كبير التف حوله سور عال. خارج السور تجمع الانضباط العسكري بكثافة. برز أمامه مسبح، فجأة راح يتجول في المسبح بمايوه السباحة بمحاذاة السياج. فجأة جاء فريق لتصوير فلم يبدو أنّه جنسي، ذلك لأنّ فريق التصوير كان عارياً. نسي منظر الانضباط وخوفه واندفع إلى مكان التصوير. تزاحم مع بعض المتجمعين هناك. كان الفريق يتكون من مخرجة سينمائية وممثلين مع ممثلتين. راحت المخرجة تشرح لهم أبعاد المشهد الجنسي. وإذ بدأ الجميع في التعري حتى المخرجة، ارتفع دخان كثيف وسط المسبح. اتجهت عيناه مع اتجاه الكاميرا هناك. من وسط الدخان خرج انضباط عسكري، بدأ هو الآخر بنزع ملابسه. تساءل عدنان فيما إذا كان للإنضباط العسكري خارج المسبح علاقة بالفلم أيضاً. وقبل الإجابة على سؤاله له، تؤشر المخرجة للانضباط بالتقدم، ومع تقدم الانضباط تدور الكاميرا باتجاه الواقفين. توقف المخرجة العمل وتصرخ بهم أن يذهبوا. يتملك الخوف عدنان. يتجمد في مكانه. فيتجه الانضباط إليه يسحبه من عضوه. يسحبه كما يسحب الراعي الشاة من إليتها. وكلما سحب الانضباط عضو عدنان كلما كبر. يكبر عضوه حتى يصل السياج. وعندما يلامس السياج يصرخ الانضباط بالعسكري الواقف خارج السور أن يخرجوا عدنان. يتسلق عدنان السياج وعندما يصبح في الشارع يسقط على الأرض. يرفع رأسه. لا يجد أحداً. لبرهة، يرى مدينة خاوية، بيوتاً مهدمة، حيطاناً تتهاوى. ومع غبار الجدران المتهاوية يشم رائحة دخان، بارود. قفزت قطة من البعيد اقتربت منه .ماءت. لعقت عضوه الذي رجع إلى وضعه الطبيعي. يريد إمساك القطة. تختفي. راح يحدد أهدافاً معينة بأصابعه. يأخذ كاميرا سينمائية استقرت قبلها عند قدميه .يوجهها إلى أهدافه كما يوجه رشاشته. دارت عيناه في الحطام الذي أمامه. شرع يمشي باتجاه أزّقة ضيقة. تجمعت فيها برك المياه، والتصق الوحل بواجهات البيوت التي أصبحت بلا سقوف. يتوغل عدنان في المدينة، تختفي سطوح البيوت وواجهاتها. عند زاوية بعيدة عنه يلمح كهلاً. يحاول أن يركض. لا تطاوعه قدماه. يحاول رفع قدميه. كأنهما زُرعتا في الأرض. يحاول الصراخ به. لا يستطيع فتح فمه. يركض. يلهث. يشعر

fb/the.boooks

أنّه لا يجر ساقين إنما جبلين من العناء ·وكلما ازدادت سرعته ازدادت سرعة الرجل في المشي· لا يستسلم· لا تغادر عيناه الكاميرا· عند أحد المنعطفات يسير الرجل· يتجه عدنان خلفه· الكاميرا تلتصق بعينيه· يصل المنعطف· يهدأ كل شيء· لا يرى الرجل· لقد اختفى· يتجه عدنان إلى الخرائب هناك فيخرج له حصان مبقور البطن· يصبح الحصان قريباً منه، يشمه عند الفخذين يضع عدنان الكاميرا بين فخذيه· يبكي الحصان ويغادر المكان بأسى· ويختفي في الاتجاه الذي جاء منه عدنان· يصعد عدنان فوق أحد الهياكل المهدمة· يعاين المدينة من فوق· لا شيء سوى حطام، دخان، غبار· تدور عيناه مع الكاميرا· ليست عيناه وحدهما ما يرى ويدور، إنما المدينة أيضاً ·وتحت، بين الأنقاض، يلمح عدنان بذلة عسكرية ممزقة· كلاشنكوف مفككة الأجزاء ·استقرت عند زاوية البيت خارطة للعراق ملطخة بالدم، رفعتها الريح عن الأرض ثم ألقت بها عند وجهه، هبطت لتستقر بين فخذيه· طارت مرة أخرى مع الريح· فكر أن يأخذ لقطة زوم للبذلة العسكرية· التمعت نجمتان وتاج فوقهما، وبانت ثلاثة خطوط على ذراعها· إذاً هي بذلة لضابط، مثلما قد تكون بذلة لضابط صف ·بذلة ضابط صف· حّدق إلى الأسفل، وجد أنه يقف على حطام دبابة· انتشرت على الجانبين دبابات كثيرة أمامه· صواريخ غير منفجرة· مدافع هاون، رادارات ·مدافع ميدان· مخازن عتاد· صناديق أسلحة· مستودعات· مخازن إعاشة، بساطيل، خوذ عسكرية· بيريات· بذلات تكومت حول بعضها· بذلات بحرية، جوية، مشاة· مشى إلى الأمام قليلاً· واجهته قاعات نوم، أسّرة، أفرشة، تتطاول البذلات فوق بعضها· المدافع فوق بعضها· الدبابات فوق بعضها· وفي الأفق تلوح طائرات ·تسقط سريعاً وتختفي مثل خرقة في ذلك الركام· وهو يقف بكاميرته وحيداً، صغيراً وسط هذا الجبل العالي، تجتاح أنفه رائحة المستودعات العفنة، رطوبة الطابوق والجص· يبرد، يبحث عن سلّم ليصعد· تلمح عيناه أسّرة مرصوفة فوق بعضها، دبابة فوق دبابة، مدفعاً فوق مدفع· جناح طيارة فوق رادار، راداراً فوق دبابة، دبابة فوق سرير، سريراً فوق طيارة، طيارة فوق بندقية كلاشنكوف ·بندقية سيمنوف فوق بسطال· بسطالاً فوق جوارب· جواربَ فوق بذلة الملازم وضابط الصف· يحاول الصعود· يختنق· يبرد· يداه ترتعشان· رجلاه تصطكّان· تسقط الكاميرا من يديه· يحدق بلا كاميرا· يرى الشارع وقد غطاه الوحل· بيوت أخرى تتهاوى· خيل حزينة تجري مبقورة البطون· رجال انضباط مدجّجون بالسلاح يدورون بسيارات الجيب واللاندروفر· ومن بيت إلى بيت تخرج مجموعات من النسوة ارتدين السواد· ثم يلصقوهنّ بالحائط، شعورهن مشعثة· ملابسهن

fb/the.boooks

ممزقة. ظهرت أجسادهن. يطلقون الرصاص عليهن. تسقط أجسادهن في الوحل. يبحث عن الكاميرا فيراها هناك عند أقدام الانضباط العسكري. يفكر بالذهاب إلى هناك. يعدل .يخفي نفسه كي لا يروه. ينتبه إلى سنية وهي تلكزه. ثوبها ممزق. ممرغ في الوحل. استقرت طلقة في فخذها. تمسكه من عضوه. فتدغدغه. لا يضحك. يريد أن يسألها. تدفعه إلى الوراء. يسقط إلى الخلف. تضحك. تدفع يدها إليه. يمد يده .يحاول النهوض. تدفعه مرة أخرى. تختفي. يقف. يلاحظ أنّه قد تمرغ في الوحل هو الآخر، يسير، يسمع دوياً عالياً، ورمي رصاص متكرر. يختفي خلف أحد الحيطان. يرى الانضباط العسكري وقد تدافعوا من كل مكان. يرى أباه بينهم، ملازم أول قاسم. يمسك ملازم أول قاسم رأس سنية، زاعقاً بها كلمات لا يستطيع عدنان سماعها. يتقدم أبوه ليدفع ملازم أول قاسم بعيداً. يبتعد ملازم قاسم .يظهر نقيب حيدر ويطعن سنية بحربة البندقية، يفتح بطنها، تصرخ وقد أمسكت مصارينها في يدها. يحاول عدنان التقدم إليها. يبحث عن الكاميرا، ينتبه فجأة إلى أصابعها وهي تلدغه. يضحك وكأنه يتوسل إليها البقاء حية. يرتجف. يبرد .يريد سؤالها. تختفي وتختفي معها خيول مبقورة. يسير وراءها. يصل نخلات باسقات. يقف عندها. ثم يغادرها بعد لحظات عندما يرى الانضباط العسكري، يتقدم. تصطف فرقة الإعدام أمام النخلات. يلقي عليها ضابط التوجيه السياسي حيدر محاضرة عن ضرورة قتل الخونة. لا يسمع عدنان ما يقول لكنه يرى شفتيه تتحركان .الخونة. الخونة. خونة ماء دجلة والفرات. يجب أن نبيدهم. وبيده يحرك الحربة التي تلطخت بالدم. يوجه الجنود أسلحتهم إلى النخلة. خفقت سعفاتها وتحركت باتجاه اليمين والشمال. يطلق الجنود النار. تسقط النخلة، وخلفها تنتصب نخلة أخرى. يتحركون بضعة أمتار. يطلقون النار. تخفق نخلة أخرى كطير. تسقط، تنتصب واحدة خلفها. يدور الجنود مع ضابطهم في البستان. ومن نخلة إلى نخلة يدور عدنان هذه المرة بلا كاميرا. يراهم يصلون أطراف البستان. تظهر قرى. قرى فارغة. تستقبلهم كلاب هناك. يطلقون النار عليهم .ينادون الناس. لا أحد. أكواخ خاوية. يأمر نقيب حيدر الناس هناك بالاصطفاف .ويصف الأطفال العراة في الصف الأول. يحدّق الأطفال ببعضهم. ويعبثون بأعضائهم التناسلية، ويحفرون أنوفهم. يصرخ النقيب بجنوده أن يطلقوا النار .يسقط الأطفال. تحترق الأكواخ. ينهض الأطفال مرة أخرى. يركضون تاركين دماءهم وراءهم. يختلط دمهم مع روث الحيوانات مع الوحل. يركب الجنود سياراتهم، و ينطلقون مخلفين وراءهم سنية، الخيول، الأطفال، الأكواخ، النخيل، يحاول عدنان الجري خلفهم. لكن رجليه ثقيلتان. يبرد. تسقط

fb/the.boooks

الكاميرا من يده مرة أخرى في الوحل. في البرية تلقته يد ما، وتدفع به إلى سيارة أرزاق. يبرد .يبحث عن كاميراه. يلمس عضوه. تتسلل إلى يده لزوجة فيشم أنفه رائحة السائل المنوي. يرتجف. يريد أن يسأل. فيفكر. يفتح عينيه. وقبل أن يفعل ذلك يشعر بجسم غريب يجلس إلى جانبه. يفتح عينيه فيجد علي جالساً بجانبه.

دفع علي إلى عدنان لفة من الخبز وقال له بصداقة:

-حاول أن تأكل شيئاً. إنه كباب.

دعك عدنان عينيه وسأل :

-ما الذي حصل؟

فأجابه علي وهو يبتسم:

-لا تخف. إنّك بين أيد أمينة.

ثم ضحك وأكمل:

-إنك في طريقك إلى مكان لا يعرفه إلا الله وجلال.

قبل أن يعض عدنان على اللفة سأل:

-من هو جلال؟

فأجاب علي:

فصرخ به النقيب:

-استعّد يا الكلب.

فاستعّد الجندي بخوف، فيما عاجله نقيب عبد الرضا بصفعة جلبت انتباه المارة جميعاً.

لم يرفع الجندي رأسه. فصاح به النقيب باحتقار:

-اغرب عن وجهي.

fb/the.boooks

وكم كره عدنان الناس الذين فسحوا الطريق للنقيب الذي مشى بزهو. ولاحظ عدنان أيضاً كيف أنّ أباه كان يحدّق بالمارة بكبرياء. لقد كره أباه مثلما كره النقيب. وعندما أصبحوا في المقهى أراد بحسه الطفولي النزق أن ينتقم للجندي من النقيب.

فقال له:

-أريد أن أهمس شيئاً ما في أذنك أيها العم!

فقدّم النقيب أذنه ثم جعر وصاح:

-اترك أذني. آخ.

فما كان من أبيه إلا أن سحبه وانهال عليه بالصفعات. تتداخل الصفعات أمام عينيّ عدنان. تختلط. صفعة النقيب. صفعة أبيه. صفعات نقيب التوجيه السياسي الذي اسمه حيدر وهو يسحب الجنود المتهمين بالجبن. لم يكتف نقيب حيدر بصفعهم، إنما شدّهم يوماً كاملاً إلى أحد أعمدة المواضع، وجمع جنود البطّارية القريبة وراح يلقي عليهم محاضرة عن الحرب المقدسة.، وعن واجبات العراقيين في الدفاع عن وطنهم. كانا اثنين من جنود المخابرة اللذين امتنعا عن إصلاح ما تلف من كيبلات اللاسلكي. وعندما تأكد للنقيب أنهما لم يقوما بما كلفهما به أصدر عليهما حكم الإعدام، وتلك عادة أصبحت مألوفة على الخطوط الأمامية. كم كان عدنان خائفاً حينها من أن يؤمر هو بإطلاق النار. قال لنفسه سأطلق النار على نقيب حيدر. ولكنه لم يكن على يقين من أنّه سيقوم بذلك فعلاً. كانت مجرد فكرة! ألم يحدّق به جنديا المخابرة عندما سقطا على الأرض وعيونهما مفتوحة؟ ألم ينظرا باحتجاج؟ وجنود فرقة الإعدام بم فكروا؟ عندما حاول بعضهم الانسحاب هددهم النقيب بملاقاة المصير ذاته إذا ما فعلوا .ولم يكتف بذلك. إنما صفع جندياً اسمه موفق. الذي توسل إليه:

-سيدي أنا أصلي ولا أستطيع قتل أحد. أنا أخاف من الله.

فما كان من النقيب إلا أن صرخ في وجهه مهدداً:

-أنت إذهب إلى الجحيم. أنت منذ اليوم عضو دائم في فرقة الإعدام.

وفعلاً أصبحت فرقة الإعدام ثابتة. ولحسن حظه، فقد انتقل رعيله لينفتح بمكان بعيد عن البطّارية. ولقد سمع من جنود الحانوت عن حالات الإعدام

fb/the.boooks

الأخرى التي نفّذتها الفرقة ذاتها. هل من الممكن أن يكون القتل أمراً روتينياً ؟ هل من الممكن التمييز بين حالات القتل هذه وحالته في قتل ملازم أول قاسم الحلو.

ضج رأس عدنان بتلك الأسئلة، وشعر بوهن يغزو جسده. عناء يزحف بين مساماته، يثقل عليه، ولا يمكن طرده. تعب وعطش يجتاحانه. بلل شفتيه بلسانه .بقي عدنان في مكانه. ركبتاه على الأرض، لا يستطيع مغادرة مكانه وكأنه زُرع هناك. وبدا له أنّ جالكان الماء بعيد بعد السماء.

اختفى الليل ليفسح الطريق أمام فجر بدأ يتثاءب بشمسه. ارتفعت من بعيد أصوات إطلاقة المدافع التي تعلن كعادتها عن صباح جديد. لم تثره تلك الأصوات أبداً. إنما وصلت إلى أذنيه واهنة، حتى شعر بأنها زائدة عن اللزوم، ذلك لأنه شعر برغبة قوية في النوم. لقد بدأ النعاس يستولي عليه ببطء، ويجعل جسده يسقط من دون أن يدري ليغفو وكأنه لم ينم منذ سنين طويلة. اختفت الجبهة من رأسه تماماً ليحل محلها سياج كبير التف حوله سور عال. خارج السور تجمع الانضباط العسكري بكثافة. برز أمامه مسبح، فجأة راح يتجول في المسبح بمايوه السباحة بمحاذاة السياج. فجأة جاء فريق لتصوير فلم يبدو أنّه جنسي، ذلك لأنّ فريق التصوير كان عارياً. نسي منظر الانضباط وخوفه واندفع إلى مكان التصوير. تزاحم مع بعض المتجمعين هناك. كان الفريق يتكون من مخرجة سينمائية وممثلين مع ممثلتين. راحت المخرجة تشرح لهم أبعاد المشهد الجنسي. وإذ بدأ الجميع في التعري حتى المخرجة، ارتفع دخان كثيف وسط المسبح. اتجهت عيناه مع اتجاه الكاميرا هناك. من وسط الدخان خرج انضباط عسكري، بدأ هو الآخر بنزع ملابسه. تساءل عدنان فيما إذا كان للإنضباط العسكري خارج المسبح علاقة بالفلم أيضاً. وقبل الإجابة على سؤاله له، تؤشر المخرجة للانضباط بالتقدم، ومع تقدم الانضباط تدور الكاميرا باتجاه الواقفين. توقف المخرجة العمل وتصرخ بهم أن يذهبوا. يتملك الخوف عدنان. يتجمد في مكانه. فيتجه الانضباط إليه يسحبه من عضوه. يسحبه كما يسحب الراعي الشاة من إليتها. وكلما سحب الانضباط عضو عدنان كلما كبر. يكبر عضوه حتى يصل السياج. وعندما يلامس السياج يصرخ الانضباط بالعسكري الواقف خارج السور أن يخرجوا عدنان. يتسلق عدنان السياج وعندما يصبح في الشارع يسقط على الأرض. يرفع رأسه. لا يجد أحداً. لبرهة، يرى مدينة خاوية، بيوتاً مهدمة، حيطاناً تتهاوى. ومع غبار الجدران المتهاوية يشم رائحة دخان، بارود. قفزت قطة من البعيد اقتربت منه .ماءت. لعقت عضوه الذي رجع

fb/the.boooks

إلى وضعه الطبيعي. يريد إمساك القطة. تختفي. راح يحدد أهدافاً معينة بأصابعه. يأخذ كاميرا سينمائية استقرت قبلها عند قدميه .يوجهها إلى أهدافه كما يوجه رشاشته. دارت عيناه في الحطام الذي أمامه. شرع يمشي باتجاه أزّقة ضيقة. تجمعت فيها برك المياه، والتصق الوحل بواجهات البيوت التي أصبحت بلا سقوف. يتوغل عدنان في المدينة، تختفي سطوح البيوت وواجهاتها. عند زاوية بعيدة عنه يلمح كهلاً. يحاول أن يركض. لا تطاوعه قدماه. يحاول رفع قدميه. كأنهما زُرعتا في الأرض. يحاول الصراخ به. لا يستطيع فتح فمه. يركض. يلهث. يشعر أنّه لا يجر ساقين إنما جبلين من العناء .وكلما ازدادت سرعته ازدادت سرعة الرجل في المشي. لا يستسلم. لا تغادر عيناه الكاميرا. عند أحد المنعطفات يسير الرجل. يتجه عدنان خلفه. الكاميرا تلتصق بعينيه. يصل المنعطف. يهدأ كل شيء. لا يرى الرجل. لقد اختفى. يتجه عدنان إلى الخرائب هناك فيخرج له حصان مبقور البطن. يصبح الحصان قريباً منه، يشمه عند الفخذين يضع عدنان الكاميرا بين فخذيه. يبكي الحصان ويغادر المكان بأسى. ويختفي في الاتجاه الذي جاء منه عدنان. يصعد عدنان فوق أحد الهياكل المهدمة. يعاين المدينة من فوق. لا شيء سوى حطام، دخان، غبار. تدور عيناه مع الكاميرا. ليست عيناه وحدهما ما يرى ويدور، إنما المدينة أيضاً .وتحت، بين الأنقاض، يلمح عدنان بذلة عسكرية ممزقة. كلاشنكوف مفككة الأجزاء .استقرت عند زاوية البيت خارطة للعراق ملطخة بالدم، رفعتها الريح عن الأرض ثم ألقت بها عند وجهه، هبطت لتستقر بين فخذيه. طارت مرة أخرى مع الريح. فكر أن يأخذ لقطة زوم للبذلة العسكرية. التمعت نجمتان وتاج فوقهما، وبانت ثلاثة خطوط على ذراعها. إذاً هي بذلة لضابط، مثلما قد تكون بذلة لضابط صف .بذلة ضابط صف. حّدق إلى الأسفل، وجد أنه يقف على حطام دبابة. انتشرت على الجانبين دبابات كثيرة أمامه. صواريخ غير منفجرة. مدافع هاون، رادارات .مدافع ميدان. مخازن عتاد. صناديق أسلحة. مستودعات. مخازن إعاشة، بساطيل، خوذ عسكرية. بيريات. بذلات تكومت حول بعضها. بذلات بحرية، جوية، مشاة. مشى إلى الأمام قليلاً. واجهته قاعات نوم، أسّرة، أفرشة، تتطاول البذلات فوق بعضها. المدافع فوق بعضها. الدبابات فوق بعضها. وفي الأفق تلوح طائرات .تسقط سريعاً وتختفي مثل خرقة في ذلك الركام. وهو يقف بكاميرته وحيداً، صغيراً وسط هذا الجبل العالي، تجتاح أنفه رائحة المستودعات العفنة، رطوبة الطابوق والجص. يبرد، يبحث عن سلّم ليصعد. تلمح عيناه أسّرة مرصوفة فوق بعضها، دبابة فوق دبابة، مدفعاً فوق مدفع. جناح طيارة فوق رادار،

fb/the.boooks

راداراً فوق دبابة، دبابة فوق سرير، سريراً فوق طيارة، طيارة فوق بندقية كلاشنكوف ·بندقية سيمنوف فوق بسطال· بسطالاً فوق جوارب· جواربَ فوق بذلة الملازم وضابط الصف· يحاول الصعود· يختنق· يبرد· يداه ترتعشان· رجلاه تصطكّان· تسقط الكاميرا من يديه· يحدق بلا كاميرا· يرى الشارع وقد غطاه الوحل· بيوت أخرى تتهاوى· خيل حزينة تجري مبقورة البطون· رجال انضباط مدجّجون بالسلاح يدورون بسيارات الجيب واللاندروفر· ومن بيت إلى بيت تخرج مجموعات من النسوة ارتدين السواد· ثم يلصقوهنّ بالحائط، شعورهن مشعثة· ملابسهن ممزقة· ظهرت أجسادهن· يطلقون الرصاص عليهن· تسقط أجسادهن في الوحل· يبحث عن الكاميرا فيراها هناك عند أقدام الانضباط العسكري· يفكر بالذهاب إلى هناك· يعدل ·يخفي نفسه كي لا يروه· ينتبه إلى سنية وهي تلكزه· ثوبها ممزق· ممرغ في الوحل· استقرت طلقة في فخذها· تمسكه من عضوه· فتدغدغه· لا يضحك· يريد أن يسألها· تدفعه إلى الوراء· يسقط إلى الخلف· تضحك· تدفع يدها إليه· يمد يده ·يحاول النهوض· تدفعه مرة أخرى· تختفي· يقف· يلاحظ أنّه قد تمرغ في الوحل هو الآخر، يسير، يسمع دوياً عالياً، ورمي رصاص متكرر· يختفي خلف أحد الحيطان· يرى الانضباط العسكري وقد تدافعوا من كل مكان· يرى أباه بينهم، ملازم أول قاسم· يمسك ملازم أول قاسم رأس سنية، زاعقاً بها كلمات لا يستطيع عدنان سماعها· يتقدم أبوه ليدفع ملازم أول قاسم بعيداً· يبتعد ملازم قاسم ·يظهر نقيب حيدر ويطعن سنية بحربة البندقية، يفتح بطنها، تصرخ وقد أمسكت مصارينها في يدها· يحاول عدنان التقدم إليها· يبحث عن الكاميرا، ينتبه فجأة إلى أصابعها وهي تلدغه· يضحك وكأنه يتوسل إليها البقاء حية· يرتجف· يبرد ·يريد سؤالها· تختفي وتختفي معها خيول مبقورة· يسير وراءها· يصل نخلات باسقات· يقف عندها· ثم يغادرها بعد لحظات عندما يرى الانضباط العسكري، يتقدم· تصطف فرقة الإعدام أمام النخلات· يلقي عليها ضابط التوجيه السياسي حيدر محاضرة عن ضرورة قتل الخونة· لا يسمع عدنان ما يقول لكنه يرى شفتيه تتحركان .الخونة· الخونة· خونة ماء دجلة والفرات· يجب أن نبيدهم. وبيده يحرك الحربة التي تلطخت بالدم· يوجه الجنود أسلحتهم إلى النخلة· خفقت سعفاتها وتحركت باتجاه اليمين والشمال· يطلق الجنود النار· تسقط النخلة، وخلفها تنتصب نخلة أخرى· يتحركون بضعة أمتار· يطلقون النار· تخفق نخلة أخرى كطير· تسقط، تنتصب واحدة خلفها· يدور الجنود مع ضابطهم في البستان· ومن نخلة إلى نخلة يدور عدنان هذه المرة بلا كاميرا· يراهم يصلون أطراف البستان· تظهر قرى· قرى فارغة·

fb/the.boooks

تستقبلهم كلاب هناك. يطلقون النار عليهم .ينادون الناس. لا أحد. أكواخ خاوية. يأمر نقيب حيدر الناس هناك بالاصطفاف .ويصف الأطفال العراة في الصف الأول. يحدّق الأطفال ببعضهم. ويعبثون بأعضائهم التناسلية، ويحفرون أنوفهم. يصرخ النقيب بجنوده أن يطلقوا النار .يسقط الأطفال. تحترق الأكواخ. ينهض الأطفال مرة أخرى. يركضون تاركين دماءهم وراءهم. يختلط دمهم مع روث الحيوانات مع الوحل. يركب الجنود سياراتهم، و ينطلقون مخلفين وراءهم سنية، الخيول، الأطفال، الأكواخ، النخيل، يحاول عدنان الجري خلفهم. لكن رجليه ثقيلتان. يبرد. تسقط الكاميرا من يده مرة أخرى في الوحل. في البرية تلقته يد ما، وتدفع به إلى سيارة أرزاق. يبرد .يبحث عن كاميراه. يلمس عضوه. تتسلل إلى يده لزوجة فيشم أنفه رائحة السائل المنوي. يرتجف. يريد أن يسأل. فيفكر. يفتح عينيه. وقبل أن يفعل ذلك يشعر بجسم غريب يجلس إلى جانبه. يفتح عينيه فيجد علي جالساً بجانبه.

دفع علي إلى عدنان لفة من الخبز وقال له بصداقة:

-حاول أن تأكل شيئاً. إنه كباب.

دعك عدنان عينيه وسأل :

-ما الذي حصل؟

فأجابه علي وهو يبتسم:

-لا تخف. إنّك بين أيد أمينة.

ثم ضحك وأكمل:

-إنك في طريقك إلى مكان لا يعرفه إلا الله وجلال.

قبل أن يعض عدنان على اللفة سأل:

-من هو جلال؟

فأجاب علي:

-سائقنا.

fb/the.boooks

نهض عدنان· تلمس بإحدى يديه بنطاله عند الفخذين فعرف أنّه قد قذف·

سأله علي:

-هل تشعر بتحسن· لقد وجدناك فاقد الوعي تقريباً·

همس عدنان بصوت واهن:

-شكراً·

وقفز من السيارة التي كانت واقفة· تدحرج علي خلفه وقال:

-إنّنا من بطّارية الصواريخ· أنت من الاستمكان على ما أعتقد· لقد عرفنا ذلك من جهاز الرادار· فقد شاهدناه في المحاويل·

صمتا واتجها إلى حجر ليجلسا فوقه·

بدأ علي في الحديث:

-من ناحيتنا يدّعي جلال أنّنا تهنا· إلا أنّه قال لي إنّه يهيئ مفاجأة جميلة·

سأل عدنان بفضول:

-ألم تجدوا جثة هنا· أعني···

توقف لبرهة، كان علي قد أطرق· أكمل عدنان:

-أعني جثثاً· أو بالأحرى جثة· هل تفهمني·

رفع علي وجهه من الأرض· حدّق بعدنان الذي أزاح وجهه عن علي:

-آخ· جثة· لا أدري· كل ما أعرف هو أنّنا وجدناك فاقد الوعي· وحملناك معنا· كنت أنت ملقى في مكان بعيد عن الرادار· ثم ماذا يهم إذا كانت جثثاً أخرى أم لا المهم أنّنا وجدناك·

فسأله عدنان :

-هل كان وضعي طبيعياً·

فأوضح علي:

fb/the.boooks

-لقد كنت تهذي، وتصيح على ما أعتقد أين كاميرتي يا سنية؟

وكمن يستعيد قصصاً قديمة، حاول عدنان النبش في ذاكرته. فاختلط كل شيء .ملازم أول قاسم، محمود، نقيب حيدر، سنية نديم. بيوت، خرائب، والكاميرا ترى ما الذي حملها إليه؟ صاح عدنان:

-لقد امتلكت ذات مرة كاميرا سينمائية. لقد اشتريتها من المهربين في الجزيرة .

فسأله علي بفضول:

-هل كانت هوايتك السينما. ماذا كنت تفعل في الجزيرة؟

فأجابه عدنان:

-كلا. مجرد صدفة. لقد كانت الكاميرا رخيصة. ولم يعرف المهربون كيفية تشغيلها. لا أدري كيف حصلوا عليها. كانوا رعاة.

فكرر علي سؤاله:

-وماذا كنت تفعل هنا.

قلّص عدنان وجهه ولم يظهر رغبة في الإجابة عن سؤاله، إلا أنّه قال:

-لا شيء. إنها قصة طويلة. ولكن قل لي هل أنت تهوى السينما؟

فأجاب علي دونما تردد:

-لقد كان حلمي أن أدرس السينما. قدمت إلى معهد الفنون الجميلة ولم أُقبل.

صمت عدنان، وضربه بخفة على كتفه:

-إذن لم تكن في حزبهم القمعي؟

فأجاب علي:

-صحيح.

فردد عدنان بيتاً مفبركاً من الشعر أضحك علي:

fb/the.boooks

-قم من فراشك والبس فردة اليمني.

فحزبك الحاكم قد خرّا على الوطن.

ثم أردف ضاحكاً:

-أو البيت نفسه: قم من فراشك والبس فردة اليمني

فإنما حزب العفالقة جماعة عُفنِ

صمتا. وراح الاثنان يعبثان بالأحجار الصغيرة الملقاة أمامهم. من قريب أتت إلى سمعهما أصوات طيور وهي تغني فرادى أو جماعات. فيما صفقت في مرات كثيرة بأجنحتها. ومع حركاتها المتماوجة، التي كانا يعاينانها سوية تحركت سعفات النخيل أمامهما، وعكس لونها الأخضر المغبر شعاع الشمس الذي بدأ يضعف رويداً، فيما زحفت ظلال النخيل الكثيف إلى مكانهما لتعلن عن انتهاء ظهيرة هادئة.

سأل عدنان:

-هل نمت النهار كله؟

نهض عدنان. تلمس بإحدى يديه بنطاله عند الفخذين فعرف أنّه قد قذف.

سأله علي:

-هل تشعر بتحسن. لقد وجدناك فاقد الوعي تقريباً.

همس عدنان بصوت واهن:

-شكراً.

وقفز من السيارة التي كانت واقفة. تدحرج علي خلفه وقال:

-إنّنا من بطّارية الصواريخ. أنت من الاستمكان على ما أعتقد. لقد عرفنا ذلك من جهاز الرادار. فقد شاهدناه في المحاويل.

صمتا واتجها إلى حجر ليجلسا فوقه.

بدأ علي في الحديث:

fb/the.boooks

-من ناحيتنا يدّعي جلال أنّنا تهنا. إلا أنّه قال لي إنّه يهيئ مفاجأة جميلة.

سأل عدنان بفضول:

-ألم تجدوا جثة هنا. أعني...

توقف لبرهة، كان علي قد أطرق. أكمل عدنان:

-أعني جثثاً. أو بالأحرى جثة. هل تفهمني.

رفع علي وجهه من الأرض. حدّق بعدنان الذي أزاح وجهه عن علي:

-آخ. جثة. لا أدري. كل ما أعرف هو أنّنا وجدناك فاقد الوعي. وحملناك معنا. كنت أنت ملقى في مكان بعيد عن الرادار. ثم ماذا يهم إذا كانت جثثاً أخرى أم لا المهم أنّنا وجدناك.

فسأله عدنان :

-هل كان وضعي طبيعياً.

فأوضح علي:

-لقد كنت تهذي، وتصيح على ما أعتقد أين كاميرتي يا سنية؟

وكمن يستعيد قصصاً قديمة، حاول عدنان النبش في ذاكرته. فاختلط كل شيء .ملازم أول قاسم، محمود، نقيب حيدر، سنية نديم. بيوت، خرائب، والكاميرا ترى ما الذي حملها إليه؟ صاح عدنان:

-لقد امتلكت ذات مرة كاميرا سينمائية. لقد اشتريتها من المهربين في الجزيرة .

فسأله علي بفضول:

-هل كانت هوايتك السينما. ماذا كنت تفعل في الجزيرة؟

فأجابه عدنان:

-كلا. مجرد صدفة. لقد كانت الكاميرا رخيصة. ولم يعرف المهربون كيفية تشغيلها. لا أدري كيف حصلوا عليها. كانوا رعاة.

fb/the.boooks

فكرر علي سؤاله:

-وماذا كنت تفعل هنا.

قلّص عدنان وجهه ولم يظهر رغبة في الإجابة عن سؤاله، إلا أنّه قال:

-لا شيء. إنها قصة طويلة. ولكن قل لي هل أنت تهوى السينما؟

فأجاب علي دونما تردد:

-لقد كان حلمي أن أدرس السينما. قدمت إلى معهد الفنون الجميلة ولم أُقبل.

صمت عدنان، وضربه بخفة على كتفه:

-إذن لم تكن في حزبهم القمعي؟

فأجاب علي:

-صحيح.

فردد عدنان بيتاً مفبركاً من الشعر أضحك علي:

-قم من فراشك والبس فردة اليمني.

فحزبك الحاكم قد خرّا على الوطن.

ثم أردف ضاحكاً:

-أو البيت نفسه: قم من فراشك والبس فردة اليمني

فإنما حزب العفالقة جماعة عُفنِ

صمتا. وراح الاثنان يعبثان بالأحجار الصغيرة الملقاة أمامهم. من قريب أتت إلى سمعهما أصوات طيور وهي تغني فرادى أو جماعات. فيما صفقت في مرات كثيرة بأجنحتها. ومع حركاتها المتماوجة، التي كانا يعاينانها سوية تحركت سعفات النخيل أمامهما، وعكس لونها الأخضر المغبر شعاع الشمس الذي بدأ يضعف رويداً، فيما زحفت ظلال النخيل الكثيف إلى مكانهما لتعلن عن انتهاء ظهيرة هادئة.

fb/the.boooks

سأل عدنان:

-هل نمت النهار كله؟

فهّز علي رأسه بالإيجاب· أردف عدنان:

-عجيب· في البيت يستيقظ المرء لمواء قطة، لخفقة نعل، وهنا أنام على صوت المدافع·

نهض عدنان من مكانه· حدّق بالنخيل وسأل نفسه فيما إذا كانت البصرة خلف هذا الجزء الأخضر· استدار إلى علي وسأله:

-هل تعرف أين نحن؟

أجاب علي غير متأكد:

-ربما على مشارف الزبير أو أبي الخصيب؟

صمت عدنان لحظة ليسأل علي بعدها:

-من أي مدينة أنت؟

فأجابه:

-من البصرة· وأنت؟

ضحك عدنان:

-الأصل بصرة· لكننا الآن في الناصرية·

وبعد صمت قصير بدأ عدنان بالحديث:

-البصرة· البصرة· آخ لقد عشقت البصرة دائماً ولم أعشق مدينة أخرى مثلها أبداً· لقد نشأت علاقة سرية مع المدينة· قد تبدو غريبة· لكنها جميلة · إنّ حبّ مدينة كحب امرأة، فهي تمنحك شعوراً بالتطامن· المهم كيف تنظر أنت إلى هذه المدينة· المدن الجميلة كالنساء الجميلات مشتهاة صعبات المنال ·هكذا علاقتي مع البصرة· لم أشبع منها· وكل مرة أود اكتشاف الجديد فيها ·عندما كنت طفلاً، كنت أجيء مع أمي إلى مدينة الجمهورية حيث يسكن أهلها، لا تسألني لماذا أحببت البصرة، ربما لأنّها

fb/the.boooks

مدينة أمي، أو المكان الذي عشقت فيه صبية أو لسوق دعارتها. أو لترعها الصغيرة الجميلة بقذاراتها أو منظر النساء وهنّ يغسلن الملابس في ماء المدة. ربما لهذه الأسباب كلها.

لم يجب علي بكلمة، ربما راح يتابع الذكريات في ذهنه، فهو يعرف الأماكن التي عدّها عدنان جيداً. وهو الآخر مسحور بالبصرة.

سحب عدنان سيجارة من جيبه. أشعلها. نسي أن يقدم سيجارة إلى علي مع أنّ علي لا يدخن. نفث عدنان الدخان ببطء:

-هل تعرف لقد حولت السلطة أسماء معظم المدن العراقية قبل الحرب إلى أسماء مواقع حربية. خذ مثلاً الناصرية إلى ذي قار، السماوة إلى المثنى والديوانية إلى القادسية، ولكنهم لم يستطيعوا تغيير اسم البصرة.

سكت لحظة ثم عاود الحديث :

-هل تعرف أنّ مشكلتهم هي البصرة. وبالنسبة إليهم سيّان إن سقطت في أيدي الإيرانيين أم لم تسقط، المهم أن يبقى النفط لهم. فهم مسرورون لهذا القصف الإيراني المستمر لمدينة البصرة.

سحب نفساً آخر من سيجارته:

-هناك من يقول إنّ معظم موانئ العالم جميلة، ولكني أستطيع الجزم بأنّ البصرة أجمل هذه الموانئ. صحيح أنّ معظم الموانئ مفتوحة على العالم. فيها أجناس مختلفة. ولكن البصرة مدخل بحري يعود لحضارة قديمة. سكت ليسحب نفساً عميقاً.

رمى عدنان عقب سيجارته وقال لعلي بهدوء:

-قد تعتقد بأنّي أهذي، قل لي شيئاً... تكلم.

ابتسم علي وأجاب بحماسة لم يألفها من قبل:

-إنّك لم تقل سوى الحقيقة لكني لا أجيد الكلام مثلك. إنني أحب البصرة. ويحزنني جداً إذا عرفت أنني لن أراها مرة أخرى. إنني أخاف أن أموت.

سكتا لوقت غير قصير. راحا يصغيان إلى أصواتهما الداخلية لا سيّما عدنان الذي فوجئ بجملة علي.

fb/the.boooks

بـدأت الشـمس تلقـي بأشـعتها إلـى الجهـة الأخـرى مـن الكـون. شـعر عـدنان برغبة في الأكل:

-هل لديك لقّة أخرى؟

نهـض علـي مـن مكانـه واتجـه إلـى السـيارة. حمـل لقّـة أخـرى مـن مـؤخرة السيارة. ناولها إلى عدنان الذي علّق:

-لم آكل منذ يومين.

عضّ على اللّفة، فيما راح يتحدث:

-لقـد كنّـا محاصـرين منـذ ثلاثـة أيـام. لـم يبـقَ عنـدنا سـوى جلكـان مـاء. أمّـا ملازم أول قاسم.

قاطعه علي:

-أعرفه.

فسأل عدنان باستغراب:

-من أين تعرفه؟

فأجابه:

-إنّه أشهر من نار على علم في معسكر المحاويل.

استمر عدنان في الأكل والكلام:

-المهم أنّـه لـم يشـأ تحطـيم جهـاز الـرادار والانسـحاب. كـان جبانـاً. كـان يخـاف مـن اتهامـه بـالجبن. ولقـد أراد الجبـان البقـاء فـي تلـك الحالـة إلـى أبـد الآبـدين. حتـى أطلـق محمـود النـار علـى فخـذه ظنّـاً منـه أنّـه سيشـوه رجلـه فقـط .هكـذا ظـنّ السـاذج ولكنـه أصـاب شـريان فخـذه الـذي سـبب لـه نزيفـاً جعلـه يفـارق الحيـاة. لقـد كـان المسـكين يعـيش كـوابيس مـن أنّ زوجتـه تنـام فـي حضـن مصـري. يحلـم أن يـدرس فـي رومانيـا. بالنسـبة إليـه رومانيـا هـي أجمـل بلـدان العالم. إنه خريج إعدادية الصناعة.

سكت عدنان ليسترد أنفاسه، فقد ألقى بجمله تلك بسرعة كبيرة:

fb/the.boooks

-لو قبل الحقير ملازم أول قاسم الانسحاب لما حدث ما حدث لمحمود . وعندما أردت دفن محمود في موضعنا احتّج ملازم قاسم. راح يشتمني رادّاً على شتائمي التي تقيأتها في وجهه. وصل به الأمر أن يسحب الأقسام عليّ.

توقف عدنان ليدفع بقية اللّفة الأخيرة إلى فمه. ومن فم مليء برائحة الكباب أخرج جملته:

-لقد قتلته. قتلته.

دفع باللقمة إلى جوفه. كانت شهية جداً، وعندما استقرت في جوفه حرك لسانه بين أسنانه ليزيح بقايا الخبز والكباب والطماطم والبصل. كان يفعل ذلك بلذة، فهو يحب الكباب منذ كان طفلاً. ثم دفع بإصبعه لينتهي مما علق بين الأسنان وليمضغه مع لعابه. ثم بدأ في الحديث مع علي مرة أخرى:

-من أي مدينة أنت؟

فأجابه:

-من البصرة. وأنت؟

ضحك عدنان:

-الأصل بصرة. لكننا الآن في الناصرية.

وبعد صمت قصير بدأ عدنان بالحديث:

-البصرة. البصرة. آخ لقد عشقت البصرة دائماً ولم أعشق مدينة أخرى مثلها أبداً. لقد نشأت علاقة سرية مع المدينة. قد تبدو غريبة. لكنها جميلة . إنّ حبّ مدينة كحب امرأة، فهي تمنحك شعوراً بالتطامن. المهم كيف تنظر أنت إلى هذه المدينة. المدن الجميلة كالنساء الجميلات مشتهاة صعبات المنال .هكذا علاقتي مع البصرة. لم أشبع منها. وكل مرة أود اكتشاف الجديد فيها .عندما كنت طفلاً، كنت أجيء مع أمي إلى مدينة الجمهورية حيث يسكن أهلها، لا تسألني لماذا أحببت البصرة، ربما لأنّها مدينة أمي، أو المكان الذي عشقت فيه صبية أو لسوق دعارتها. أو لترعها الصغيرة الجميلة بقذاراتها أو منظر النساء وهنّ يغسلن الملابس في ماء المدة. ربما لهذه الأسباب كلها.

fb/the.boooks

لم يجب علي بكلمة، ربما راح يتابع الذكريات في ذهنه، فهو يعرف الأماكن التي عدّها عدنان جيداً. وهو الآخر مسحور بالبصرة.

سحب عدنان سيجارة من جيبه. أشعلها. نسي أن يقدم سيجارة إلى علي مع أنّ علي لا يدخن. نفث عدنان الدخان ببطء:

-هل تعرف لقد حولت السلطة أسماء معظم المدن العراقية قبل الحرب إلى أسماء مواقع حربية. خذ مثلاً الناصرية إلى ذي قار، السماوة إلى المثنى والديوانية إلى القادسية، ولكنهم لم يستطيعوا تغيير اسم البصرة.

سكت لحظة ثم عاود الحديث :

-هل تعرف أنّ مشكلتهم هي البصرة. وبالنسبة إليهم سيّان إن سقطت في أيدي الإيرانيين أم لم تسقط، المهم أن يبقى النفط لهم. فهم مسرورون لهذا القصف الإيراني المستمر لمدينة البصرة.

سحب نفساً آخر من سيجارته:

-هناك من يقول إنّ معظم موانئ العالم جميلة، ولكني أستطيع الجزم بأنّ البصرة أجمل هذه الموانئ. صحيح أنّ معظم الموانئ مفتوحة على العالم. فيها أجناس مختلفة. ولكن البصرة مدخل بحري يعود لحضارة قديمة. سكت ليسحب نفساً عميقاً.

رمى عدنان عقب سيجارته وقال لعلي بهدوء:

-قد تعتقد بأنّي أهذي، قل لي شيئاً... تكلم.

ابتسم علي وأجاب بحماسة لم يألفها من قبل:

-إنّك لم تقل سوى الحقيقة لكني لا أجيد الكلام مثلك. إنني أحب البصرة. ويحزنني جداً إذا عرفت أنني لن أراها مرة أخرى. إنني أخاف أن أموت.

سكتا لوقت غير قصير. راحا يصغيان إلى أصواتهما الداخلية لا سيّما عدنان الذي فوجئ بجملة علي.

بدأت الشمس تلقي بأشعتها إلى الجهة الأخرى من الكون. شعر عدنان برغبة في الأكل:

fb/the.boooks

-هل لديك لفّة أخرى؟

نهض علي من مكانه واتجه إلى السيارة. حمل لفّة أخرى من مؤخرة السيارة. ناولها إلى عدنان الذي علّق:

-لم آكل منذ يومين.

عضّ على اللّفة، فيما راح يتحدث:

-لقد كنّا محاصرين منذ ثلاثة أيام. لم يبقَ عندنا سوى جلكان ماء. أمّا ملازم أول قاسم.

قاطعه علي:

-أعرفه.

فسأل عدنان باستغراب:

-من أين تعرفه؟

فأجابه:

-إنّه أشهر من نار على علم في معسكر المحاويل.

استمر عدنان في الأكل والكلام:

-المهم أنّه لم يشأ تحطيم جهاز الرادار والانسحاب. كان جباناً. كان يخاف من اتهامه بالجبن. ولقد أراد الجبان البقاء في تلك الحالة إلى أبد الآبدين. حتى أطلق محمود النار على فخذه ظنّاً منه أنّه سيشوه رجله فقط .هكذا ظنّ الساذج ولكنه أصاب شريان فخذه الذي سبب له نزيفاً جعله يفارق الحياة. لقد كان المسكين يعيش كوابيس من أنّ زوجته تنام في حضن مصري. يحلم أن يدرس في رومانيا. بالنسبة إليه رومانيا هي أجمل بلدان العالم. إنه خريج إعدادية الصناعة.

سكت عدنان ليسترد أنفاسه، فقد ألقى بجمله تلك بسرعة كبيرة:

-لو قبل الحقير ملازم أول قاسم الانسحاب لما حدث ما حدث لمحمود . وعندما أردت دفن محمود في موضعنا احتّج ملازم قاسم. راح يشتمني

fb/the.boooks

رادّاً على شتائمي التي تقيأتها في وجهه. وصل به الأمر أن يسحب الأقسام عليّ.

توقف عدنان ليدفع بقية اللّفة الأخيرة إلى فمه. ومن فم مليء برائحة الكباب أخرج جملته:

-لقد قتلته. قتلته.

دفع باللقمة إلى جوفه. كانت شهية جداً، وعندما استقرت في جوفه حرك لسانه بين أسنانه ليزيح بقايا الخبز والكباب والطماطم والبصل. كان يفعل ذلك بلذة، فهو يحب الكباب منذ كان طفلاً. ثم دفع بإصبعه لينتهي مما علق بين الأسنان وليمضغه مع لعابه. ثم بدأ في الحديث مع علي مرة أخرى:

-لقد قتلته...

تحرك عدنان خطوات. حدّق بعلي. كان علي قد واظب على التحديق بالأرض. استمر عدنان يلقي خطابه بلذة تشابه لذته لأكل الكباب:

-سأنساه مثلما نسيت قيطان حذائي.

رفع علي رأسه. نهض. أشار لعدنان:

-لا ترفع صوتك.

فأجابه عدنان بانفعال:

-ليسمعني الشيطان.

تصببت جبهته عرقاً وارتعشت يداه. اتجه إلى علي، أمسكه من كم قميصه.

غرق علي في صمته. ارتعشت شفتاه. وبدأت قدماه ترتعشان. ظهرت أمام وجهه صورة الرائد ونائب الضابط حميد وهما يسقطان من السيارة.

لاحظ عدنان اضطراب علي، فسأله:

-ما الذي حصل لك. إنّك ترتعش. اجلس هنا.

fb/the.boooks

سحبه إلى الحجر مرة أخرى. لم يجبه علي إنما سكت. كأن ألماً أصمّاً يكويه. زاغت عيناه بعيداً. وفي تلك اللحظة شعر برغبة قوية في النوم. هل ندم على ما حصل؟ لقد شرح لجلال وسلام الأمر. وفي الوقت الذي أبدى جلال تفهمه، نظر سلام بريبة. ليكن ما يكن. لقد حصل الأمر وليس بإمكانه أن يوقفه، حتى جلال لم يقبل اقتراح سلام في الرجوع والبحث عن الاثنين؛ لأنه فهم أنّ الأمر سيكون أكثر ألماً بالنسبة لعلي. قد يكون نادماً على الرائد الذي لم يكن رائداً بالتأكيد؟ فهو على الأرجح نائب ضابط انتحل صفة رائد. لماذا هو خائف؟ ألم يقرر عدم الالتحاق بالبطّارية؟ وحتى إذا ما التحق فقد طمأنه جلال أنهم سيعلمون البطّارية بفقدان نائب الضابط حميد؟ وسلام بماذا سيتفوه؟

نهض علي من مكانه وقال بصوت واهن:

-سأذهب لأنام قليلاً.

وفي تلك اللحظة ظهر جلال وسلام. تقدم جلال أولاً من عدنان. مدّ يده له:

-اسمي جلال. أقدم لك...

وأشار إلى سلام الذي وقف خلفه كالأبله وهو يعدل من وضعه.

-الأخ المخبل سلام.

ضحك سلام ومدّ يده إلى عدنان بعد أن سحب جلال يده. أجابهما عدنان:

-اسمي عدنان من كتيبة الاستمكان.

ضرب جلال بيده على كتف علي وأخرج بيده الأخرى زجاجة من العرق من جيبه الخلفي وصاح:

انظرا ماذا وجدنا في أحد المواضع؟

فتح عدنان فمه فرحاً وخطف الزجاجة من يد جلال، قبله وألقى ببيت من الشعر حرّفه قليلاً:

. -عظيم أنت في المنفى

جميل أنت في الجبهة.

fb/the.boooks

تناول جلال القنينة مرة أخرى وقال:

-اليوم الخميس. وسنسهر كما كنا نسهر في هذه الليالي. عندنا كباب. مسجّل.

قال علي باعتذار:

-سأذهب إلى السيارة. سأستلقي هناك بعض الوقت.

ولم يشأ أحد منهم منعه، فلقد لاحظوا شحوب وجهه. انسحب منهم بهدوء ودخل إلى مؤخرة السيارة، وهناك ألقى بجسمه فوق الخشبة، ليستسلم لإغفاءة جميلة.

اختفت الشمس تماماً خلف الشجيرات التي انتشرت هناك. سمّر عدنان عينيه باتجاهها، وكأنه يود اللحاق بها. مؤكد أنها ستبدأ عملها في مكان آخر، في زمن آخر. وسيّان كان المكان، فقد استحوذت عليه رغبة قوية أن يكون هناك، حيث هي. يعرف أنّها رغبة غير قابلة للتحقيق. لكن الشعور يتملكه. يكفي أن يكون وهماً، إنما يغلف وعيه بطبقة سميكة، ويصبح يقيناً كتلك الشجيرات، كالشمس، بل كما هو هذا المكان الذي لا يعرفه، ولكنه هناك حيث تكون الشمس، وحيث تصخب أنفاسه التي تصل سمعه. يقيناً هناك من يقف مثل وقفته هذه في مكان ما، يعاين الشمس ويود اللحاق بها. لبرهة نسي عدنان جلبة الآخرين وانشغالهم بإعداد مائدة في الهواء الطلق. نظر إليهم. كانوا يعملون بحماسة وجدها عدنان جميل، عذبة ككأس العرق الذي سيستقر في جوفه بعد لحظات بعد انقطاع طويل، كم بدوا له أليفين وإنسانيين. راح يتخيل أنّه يتحرك بينهم. لقد كان يعاين نفسه وسطهم. لقد وجد نفسه وسطهم. لقد وجد نفسه أليفاً أيضاً. هل يصح أن يكون أليفاً وقاتلاً في الوقت ذاته؟ من الممكن أن يبقى الإنسان وديعاً لسنوات طويلة، ومن الممكن جداً أن يصبح قاتلاً في لحظة واحدة، في اللحظة التي يتهشم فيها كل شيء. والآن يعرف أنّه ليس من الغريب أن يقتل ملازم أول قاسم. كان ذلك ضرورياً. كما من الضروري أن يملأ المرء جوفه بجرعة من العرق، إذا ما أراد الاستمرار في الشرب. هل كان مثالياً ؟ لقد كان مأخوذاً بفكرة العنف دون الدخول في تفاصيلها ونتائجها. لقد أسرته الفكرة فقط. وكان يعشق .العنف الثوري. مثل عشقه لامرأة جميلة لا يستطيع أن ينالها. والآن يفعل فعله الذي أصبح ثورياً من باب الصدفة. إنّه فرح الآن. لقد تجاوز خوفه .ازداد فرح عدنان بقنينة العرق التي ستنفتح بعد لحظات

fb/the.boooks

أو دقائق، والتي ستمنحه لذة سرية مبهمة، كالمساء الذي بدأ ينشر قواته على الجبهة، ولكن بهدوء، وبلا ضجة.

علّق عدنان في سره: .ليس من الهباء أن يتحركا بهذه الحمية، فشرب العرق أجمل من ملاقاة الحبيب.

كان جلال قد حمل آلة التسجيل الصغيرة التي يملكها مع بعض الأشرطة، فيما فرش سلام الأرض ببعض البطانيات التي كانت في السيارة، وكذلك حمل سلام أربعة أقداح من البلاستيك كانوا قد خبأوها في صندوق السيارة. وقف جلال ليلقي نظرة على الأشياء. ضحك وأشار لعدنان:

-كل شيء جاهز أبو قحطان. لنبدأ.

افترش ثلاثتهم الأرض. فعلّق جلال:

-أنا على يقين من أنّ علي سيصحو على رائحة العرق. إنها أكثر إغراء من امراة.

ثم ضرب مؤخرة سلام الذي جلس على الأربع، وقد دفع بصدره إلى الأمام:

-أو من قفا سلام.

ثم تابع:

-سأعمر لكم البيك الأول .

قرَّب جلال الأقداح إلى بعضها، وأثناء ملئه لها، راح يعاين مقدار العرق فيها. وقال:

-عدالة إسلامية.

fb/the.boooks

-سأنساه مثلما نسيت قيطان حذائي.

رفع علي رأسه. نهض. أشار لعدنان:

-لا ترفع صوتك.

فأجابه عدنان بانفعال:

-ليسمعني الشيطان.

تصببت جبهته عرقاً وارتعشت يداه. اتجه إلى علي، أمسكه من كم قميصه.

غرق علي في صمته. ارتعشت شفتاه. وبدأت قدماه ترتعشان. ظهرت أمام وجهه صورة الرائد ونائب الضابط حميد وهما يسقطان من السيارة.

لاحظ عدنان اضطراب علي، فسأله:

-ما الذي حصل لك. إنّك ترتعش. اجلس هنا.

سحبه إلى الحجر مرة أخرى. لم يجبه علي إنما سكت. كأن ألماً أصمّاً يكويه. زاغت عيناه بعيداً. وفي تلك اللحظة شعر برغبة قوية في النوم. هل ندم على ما حصل؟ لقد شرح لجلال وسلام الأمر. وفي الوقت الذي أبدى جلال تفهمه، نظر سلام بريبة. ليكن ما يكن. لقد حصل الأمر وليس بإمكانه أن يوقفه، حتى جلال لم يقبل اقتراح سلام في الرجوع والبحث عن الاثنين؛ لأنه فهم أنّ الأمر سيكون أكثر ألماً بالنسبة لعلي. قد يكون نادماً على الرائد الذي لم يكن رائداً بالتأكيد؟ فهو على الأرجح نائب ضابط انتحل صفة رائد. لماذا هو خائف؟ ألم يقرر عدم الالتحاق بالبطّارية؟ وحتى إذا ما التحق فقد طمأنه جلال أنهم سيعلمون البطّارية بفقدان نائب الضابط حميد؟ وسلام بماذا سيتفوه؟

نهض علي من مكانه وقال بصوت واهن:

-سأذهب لأنام قليلاً.

وفي تلك اللحظة ظهر جلال وسلام. تقدم جلال أولاً من عدنان. مدّ يده له:

-اسمي جلال. أقدم لك...

fb/the.boooks

وأشار إلى سلام الذي وقف خلفه كالأبله وهو يعدل من وضعه.

-الأخ المخبل سلام.

ضحك سلام ومدّ يده إلى عدنان بعد أن سحب جلال يده. أجابهما عدنان:

-اسمي عدنان من كتيبة الاستمكان.

ضرب جلال بيده على كتف علي وأخرج بيده الأخرى زجاجة من العرق من جيبه الخلفي وصاح:

انظرا ماذا وجدنا في أحد المواضع؟

فتح عدنان فمه فرحاً وخطف الزجاجة من يد جلال، قبله وألقى ببيت من الشعر حرّفه قليلاً:

. -عظيم أنت في المنفى

جميل أنت في الجبهة.

تناول جلال القنينة مرة أخرى وقال:

-اليوم الخميس. وسنسهر كما كنا نسهر في هذه الليالي. عندنا كباب. مسجّل.

قال علي باعتذار:

-سأذهب إلى السيارة. سأستلقي هناك بعض الوقت.

ولم يشأ أحد منهم منعه، فلقد لاحظوا شحوب وجهه. انسحب منهم بهدوء ودخل إلى مؤخرة السيارة، وهناك ألقى بجسمه فوق الخشبة، ليستسلم لإغفاءة جميلة.

اختفت الشمس تماماً خلف الشجيرات التي انتشرت هناك. سمّر عدنان عينيه باتجاهها، وكأنه يود اللحاق بها. مؤكد أنها ستبدأ عملها في مكان آخر، في زمن آخر. وسيّان كان المكان، فقد استحوذت عليه رغبة قوية أن يكون هناك، حيث هي. يعرف أنّها رغبة غير قابلة للتحقيق. لكن الشعور يتملكه. يكفي أن يكون وهماً، إنما يغلف وعيه بطبقة سميكة، ويصبح يقيناً كتلك الشجيرات، كالشمس، بل كما هو هذا المكان الذي لا يعرفه، ولكنه

fb/the.boooks

هنـاك حيـث تكـون الشـمس، وحيـث تصـخب أنفاسـه التـي تصـل سـمعه. يقينـاً هنـاك مـن يقـف مثـل وقفتـه هـذه فـي مكـان مـا، يعـاين الشـمس ويـود اللحـاق بهـا. لبرهـة نسـي عـدنان جلبـة الآخـرين وانشـغالهم بإعـداد مائـدة فـي الهـواء الطلـق. نظـر إلـيهم. كـانوا يعملـون بحماسـة وجـدها عـدنان جميـل، عذبـة ككـأس العـرق الـذي سيسـتقر فـي جوفـه بعـد لحظـات بعـد انقطـاع طويـل، كـم بـدوا لـه أليفـين وإنسـانيين. راح يتخيـل أنّـه يتحـرك بيـنهم. لقـد كـان يعـاين نفسـه وسـطهم. لقـد وجـد نفسـه وسـطهم. لقـد وجـد نفسـه أليفـاً أيضـاً. هـل يصـح أن يكـون أليفـاً وقـاتلاً فـي الوقـت ذاتـه؟ مـن الممكـن أن يبقـى الإنسـان وديعـاً لسـنوات طويلـة، ومـن الممكـن جـداً أن يصـبح قـاتلاً فـي لحظـة واحـدة، فـي اللحظـة التـي يتهشـم فيهـا كـل شـيء. والآن يعـرف أنّـه لـيس مـن الغريـب أن يقتـل مـلازم أول قاسـم. كـان ذلـك ضـرورياً. كمـا مـن الضـروري أن يمـلأ المـرء جوفـه بجرعـة مـن العـرق، إذا مـا أراد الاسـتمرار فـي الشـرب. هـل كـان مثاليـاً ؟ لقـد كـان مـأخوذاً بفكـرة العنـف دون الـدخول فـي تفاصـيلها ونتائجهـا. لقـد أسـرته الفكـرة فقـط. وكـان يعشـق .العنـف الثـوري. مثـل عشـقه لامـرأة جميلـة لا يسـتطيع أن ينالهـا. والآن يفعـل فعلـه الـذي أصـبح ثوريـاً مـن بـاب الصـدفة. إنّـه فـرح الآن. لقـد تجـاوز خوفـه .ازداد فـرح عـدنان بقنينـة العـرق التـي سـتنفتح بعـد لحظـات أو دقـائق، والتـي سـتمنحه لـذة سـرية مبهمـة، كالمسـاء الـذي بـدأ ينشـر قواتـه على الجبهة، ولكن بهدوء، وبلا ضجة.

علّـق عـدنان فـي سـره: .لـيس مـن الهبـاء أن يتحركـا بهـذه الحميـة، فشـرب العرق أجمل من ملاقاة الحبيب.

كـان جـلال قـد حمـل آلـة التسـجيل الصـغيرة التـي يملكهـا مـع بعـض الأشـرطة، فيمـا فـرش سـلام الأرض بـبعض البطانيـات التـي كانـت فـي السـيارة، وكـذلك حمـل سـلام أربعـة أقـداح مـن البلاسـتيك كـانوا قـد خبأوهـا فـي صـندوق السيارة. وقف جلال ليلقي نظرة على الأشياء. ضحك وأشار لعدنان:

-كل شيء جاهز أبو قحطان. لنبدأ.

افترش ثلاثتهم الأرض. فعلّق جلال:

-أنـا علـى يقـين مـن أنّ علـي سيصـحو علـى رائحـة العـرق. إنهـا أكثـر إغـراء من امراة.

ثـم ضـرب مـؤخرة سـلام الـذي جلـس علـى الأربـع، وقـد دفـع بصـدره إلـى الأمام:

fb/the.boooks

-أو من قفا سلام.

ثم تابع:

-سأعمر لكم البيك الأول .

قرَّب جلال الأقداح إلى بعضها، وأثناء ملئه لها، راح يعاين مقدار العرق فيها. وقال:

-عدالة إسلامية.

فصحح عدنان جملته ساخراً:

-أرجوك على الطريقة الإيرانية عدالت.

ضحكوا. أضاف جلال الماء إلى الأقداح ليدفعها لهم بعدها وهو يقول:

-لنشرب نخب حيادنا الإيجابي لا إيرانية ولا عراقية.

ثم حدّق بسلام وأشار:

-ربما باستثناء هذا الحزبي الجايف. لم يعلق سلام. دفع الجميع أقداحهم إلى أفواههم. لاحظ عدنان أنّ سلام لم يشرب إلا رشفة صغيرة، فيما امتدت يده بسرعة تبحث عن قطعة من الطماطم. لاحظ جلال يد سلام. فسخر:

-مستجد.

ثم دفع أحد الأشرطة إلى مسجله. وعندما شرع المطرب بالغناء:

يا صاح أن أخوك لو جار الدهر صاحبك

سكران بمودتك ما يوم أنا صاح بك

أنهضم لو شوف غيري من الخلك صاحبك

بوية. آخ أنا شسويت عاباني زماني.

ارتجّت من البعيد أصوات متقطعة للمدفعية، وخلف الشجيرات التمعت أكثر من مرة نيران في مواقع مختلفة، حتى خيل لعدنان أنّ المكان

fb/the.boooks

سيحترق. وفي البعيد لمح طائرات تتجه إلى مكان بعيد. فيما أخذ ضوؤها الأحمر يختفي رويداً رويداً. يقيناً أنها عبرت بهم قبل لحظات ولم يلاحظوها لأنها كانت في ارتفاع شاهق. ولكن أيّاً كان السبب فإنها الآن بعيدة. وتخيل مدى يأس طيّارها. ترى أين يتجه الآن.

وكلما ارتفع صوت المطرب:

أنا يا طير ضيعني نصيبي

حرت لاني لهلي ولاني لحبيبي

حرت مابين أنسى وبين ألاقيك

أخن مرة لهلي ومرات أحن ليك

وأطير ويّه الهوه لويمر طاريك

كلما واظبت المدفعية على قصفها، بدأت جملة سلام، .لننبطح. ساذجة وسخيفة، فلم يأخذوها مأخذ الجد، إنما سكبوا دفعة جديدة من العرق في أقداحهم، وشعر عدنان بقطرات العرق تنزل إلى جوفه خفيفة، ناعمة، لتمر بجدران بلعومه. أحسّ بطعم آخر للعرق على لسانه، طعم لم يألفه من قبل. هل يختلف العرق أيام الحرب عنه أيام السلم. لم يشرب العرق يوماً بهذه اللذّة. ليس هو الوحيد، إنما لمح وجوههم أيضاً، التي بدت فرحة مأخوذة بسحر القطرات. وبدت تلك الإطلاقات والطائرات لعدنان سخيفة وزائدة عن اللزوم. كم يكون جميلاً لو سكرت الجبهة كلها. آه لو كانت لديه السلطة لإصدار هذا الأمر، لأسكر المليون جندي المرابطين على الجبهتين. ضحك لفكرته. وفكر كم هي جنونية إذا ما صحّ تطبيقها، رغب بعرضها على الآخرين فقال:

-فكروا معي، تخيلوا أنّ الجيشين العراقي والإيراني يسكران. ماذا سيحدث؟

فأجاب جلال:

-كما يحدث في بار في علاوي الحلة!

فسأل عدنان دون أن يفهم:

fb/the.boooks

-ماذا تعني؟

ابتسم جلال وقال:

-أعني ببساطة· سيتقاتلان في الأول بعد سكرهما، ثم يصيحان ليريا أي دمار ألحقه أحدهما بالآخر· سيبكيان ثم يقبلان بعضهما، ويعزم أحدهما الآخر على الشرب مساءً فيأتي غريب ويحرضهما على أن يتقاتلا مثلما فعلا بالأمس ·فيفعلان· وهكذا دواليك· ما دام هناك عرق وبارات·

ضحك عدنان، ليصمت بعدها· فيما راح الليل يردد صوت المطرب:

شوية يا عين الخشف خزرات المعاتب جوني

أنا من كثر ما لوع حتى أهلي أصبحت جزعانة مني

رافقتني الونة والحسرات من بطن الحملني

وهذا عمري مقالب ويه الضيم ما مر الضحك مرة على سني·

ومع الوقت لم يعد عدنان يصغي إلى صوت الإطلاقات التي بدأت تختفي رويداً، إنما أخذ يصغي إلى صوته الداخلي الذي كان يتابع المطرب في غنائه ·وفي مكان ما في عينه اختنقت دمعة· كم كان بوده أن يصرخ· أن يخرق هذا الظلام· مثلما تمزقه قنبلة لا تعرف هدفها· ترى لماذا هو هنا؟ ما الذي حمله على الالتحاق؟ لماذا؟ هل هي حربه؟ هل صحيح أنّه أراد فقط الهروب من أبيه؟ هل أنّه استسهل أمر هذه الحرب، وظنّ أنها مجرد أيام عابرة وتنتهي· وبإمكانه إنقاذ جلده لأنه قرر ألا يشتغل في السياسة؟ هل أصبح ذلك المواطن الصالح الذي أطلق عليه أيام نشاطه السياسي .المواطن الذي يحب أمه وأباه والحكومة؟ .سيموت· وإن لم يمت لحد الآن، فسيحدث ذلك يوماً ما، ساعة ما· ربما بعد لحظات، غداً، أو بعد غد· سيأتيه الموت دون سؤاله· سيباغته ولن يمنحه فرصة الاختيار؟ هل منحت قنبلة ما الاختيار لبشر ما ذات يوم؟ سيموت طالما ظلّ لابساً بذلته الكاكية· أين عدنان القديم الذي كان يحرض الناس ضد السلطة؟ هل هي استراحة المتمرد؟ لقد كان أكثر جرأة قبل سنوات· ابتداءً من فراره الأول· وقبلها ممارساته السياسية في الأردن· ما الذي جعله يذعن ويذهب طواعية· ما الذي يقوله لنديم لو كان بعد حياً· لقد جاء كذكر الجاموس المعصوب العينين، والذي يقوده المعدان لنكاح أمه· إنّه يفعل بنفسه الآن · بالضبط· ولكنه يعرف أيضاً أنّ إمكانياته كانت أكبر قبل الآن· لقد كان

fb/the.boooks

المعارضون آنذاك أكثر قوة وصلابة، ولكن في السنتين الأخيرتين دخل العديد من رفاقه القدامى إلى الحزب الحاكم، وأصبحت الناصرية كبيرة وقاتمة. أينما اتجه يرى تلك الوجوه القديمة الملساء، والتي كانت بلا شوارب، وقد امتدت فوقها الشوارب الغليظة، التي كان يطلق عليها .ثمانية شباط. لأنها ترسم خطاً يشبه الرقم ثمانية، فيما أصبح الخروج إلى النوادي الليلية كالكابوس، حتى إنه لجأ إلى الشرب في البيت، متحملاً كابوس أبيه المزمن، الذي كان يفتح جهاز التلفاز من العصر، ولم يكتفِ بإلقاء مواعظه عن ضرورة الانتماء وعن العبقرية الفذّة لـ .الفوق.، إنما تعمد أيضاً إهانة سنية أمامه كأنه يختبر ردّ فعله إذا ما دافع عنها، لكي يدعم شكّه المتنامي. وبالرغم من هيجان أبيه، إلا أنّه لم يحقق الرغبة في الرد عليه، إنما راح يشرب كل ليلة، دونما التعليق بكلمة. وبعد انتهائه من الشرب كان يندّس في فراشه في هدوء، واستفز سلوكه هذا قاسم جبر، الذي أخذ يصرخ بصوت عالٍ ليلاً لكي يزعجه في نومه .لكن عبثاً يفعل؛ إذ لم يكن لعدنان مكان أشّد إغراءً من فراش النوم، الذي يحمله إلى أحلام مختلفة، إلى أماكن وأزمنة أخرى، رغم أنّ عدنان يعتقد بأنّ استمتاعه بأحلامه إنجاز كبير حققه بعد مران طويل، فلقد أصبح متمكناً تماماً من اختيار مادة حلمه. وكان يستمتع بالنوم. لم يكن ينام من أجل النوم إنما لكي يحلم. كم ثورة أشعل في نومه. كم امرأة جميلة نام معها. لقد قام برحلات فاق بها السندباد.مع نديم أجرى أكثر من حديث. لقد ضاجع سنية في أحلامه أكثر مما ضاجعها في الواقع. ولكن الشيء الوحيد الذي لم ينجزه هو قتل أبيه في الحلم، لأنّه لم يستطع ذلك، بل لأنّه لم يشأ. لقد صارع تلك الفكرة أكثر من مرة، كلما طفت على السطح؛ لقد كان مأخوذاً بأمنيات أكبر منها على ما يبدو .مثلاً خطر له مرة أن يصفع .القائد. في الحلم، أن يدوس عليه بنعله. وحدث ذلك بالفعل، بل إنّ .القائد. قد بال على نفسه وتغوط في بذلة المهيب الزاهية، وفي حلمه تمنى أيضاً أن ينزع عنه ثياب المهيب، ويضع في عنقه سلسلة كما تفعل السيدات مع كلابهن في الأفلام الأوروبية، ليجرّه في شوارع بغداد. لقد حدث ذلك أيضاً. وقد أخذ الناس المجتمعون خصيصاً للأمر في ساحة التحرير يضحكون ويبصقون، فيما انهالوا عليه بأنعلة تشبه نعل عدنان، لم يسخر منه مثلما سخر تلك الليلة، لكنه يعرف أنّه يحلم، ومع ذلك فقد كان فرحاً لأنّه يستطيع إنجاز أكبر الأفعال في أحلامه، حتى إنّه مارس الأمر كمزحة بدت للآخرين نوعاً من الجنون. فإذا ما اعتدى أحدهم عليه قال له: حسناً .سأحلم بك. هكذا استمرت حاله في الأيام الأخيرة. ولكن عندما نشبت الحرب فقد السيطرة

fb/the.boooks

على أحلامه. حدث له ذلك مثلما حدث عندما كان في سجن الاستخبارات، عندما كانت تراوده أحلام جنسية متلاحقة لم يستطع التحكم بها.

هكذا أصبحت حياته في الأيام الأخيرة جحيماً في البيت. وفي الجبهة فقد القدرة على الحلم تماماً، هذا ما شعر به على الأقل. ولكن هل ينفعه هذا لتبرير مجيئه إلى هنا؟ إلى مكان لا يستطيع حتى أن يحلم به؟ عليه الكف عن السؤال لماذا وكيف؟ إنه هنا. وهذا يكفي. بلا حلم. إنّه هنا مثلما تكون هنا دبّابة أو طيارة. مثل مدفع أو رشاشة. مثل بسطال. إنّه أحد أشياء الجبهة .إنّه الرقم 784112. هل تسأله الدبّابة عن وجودها؟ هل يستطيع البسطال التمرد؟ أليست تلك حقيقة لا تعرفها الأرقام الأخرى.

فجأة بدأ عدنان يضحك بصوت عال باغت الآخرين، الذين كانوا صامتين في جبهة صمتت هي الأخرى، والذين جاءوا على قدحهم الثالث. حدّق الآخران بعدنان الذي فتح فمه ضاحكاً:

-هل تعلمون أنّنا مجرد بساطيل. نعم إنّنا مجرد بساطيل على الجبهة.

لم يعلقوا فشجع ذلك عدنان على المتابعة، بعد أن جرع بقايا قدحه الأول، ليعمّر قدحه الثاني بسرعة.

-هل تساءل أحدكم لماذا نحن هنا. هل هي حربنا؟

ضحكوا. أضاف جلال الماء إلى الأقداح ليدفعها لهم بعدها وهو يقول:

-لنشرب نخب حيادنا الإيجابي لا إيرانية ولا عراقية.

ثم حدّق بسلام وأشار:

-ربما باستثناء هذا الحزبي الجايف. لم يعلق سلام. دفع الجميع أقداحهم إلى أفواههم. لاحظ عدنان أنّ سلام لم يشرب إلا رشفة صغيرة، فيما امتدت يده بسرعة تبحث عن قطعة من الطماطم. لاحظ جلال يد سلام. فسخر:

-مستجد.

ثم دفع أحد الأشرطة إلى مسجله. وعندما شرع المطرب بالغناء:

يا صاح أن أخوك لو جار الدهر صاحبك

fb/the.boooks

سكران بمودتك ما يوم أنا صاح بك

أنهضم لو شوف غيري من الخلك صاحبك

بوية· آخ أنا شسويت عاباني زماني·

ارتجّت من البعيد أصوات متقطعة للمدفعية، وخلف الشجيرات التمعت أكثر من مرة نيران في مواقع مختلفة، حتى خيل لعدنان أنّ المكان سيحترق· وفي البعيد لمح طائرات تتجه إلى مكان بعيد· فيما أخذ ضوؤها الأحمر يختفي رويداً رويداً· يقيناً أنها عبرت بهم قبل لحظات ولم يلاحظوها لأنها كانت في ارتفاع شاهق· ولكن أيّاً كان السبب فإنها الآن بعيدة· وتخيل مدى يأس طيّارها· ترى أين يتجه الآن·

وكلما ارتفع صوت المطرب:

أنا يا طير ضيعني نصيبي

حرت لاني لهلي ولاني لحبيبي

حرت مابين أنسى وبين ألاقيك

أخن مرة لهلي ومرات أحن ليك

وأطير ويّه الهوه لويمر طاريك

كلما واظبت المدفعية على قصفها، بدأت جملة سلام، لننبطح. ساذجة وسخيفة، فلم يأخذوها مأخذ الجد، إنما سكبوا دفعة جديدة من العرق في أقداحهم، وشعر عدنان بقطرات العرق تنزل إلى جوفه خفيفة، ناعمة، لتمر بجدران بلعومه· أحسّ بطعم آخر للعرق على لسانه، طعم لم يألفه من قبل· هل يختلف العرق أيام الحرب عنه أيام السلم· لم يشرب العرق يوماً بهذه اللذّة· ليس هو الوحيد، إنما لمح وجوههم أيضاً، التي بدت فرحة مأخوذة بسحر القطرات· وبدت تلك الإطلاقات والطائرات لعدنان سخيفة وزائدة عن اللزوم· كم يكون جميلاً لو سكرت الجبهة كلها· آه لو كانت لديه السلطة لإصدار هذا الأمر، لأسكر المليون جندي المرابطين على الجبهتين· ضحك لفكرته· وفكر كم هي جنونية إذا ما صحّ تطبيقها، رغب بعرضها على الآخرين فقال:

fb/the.boooks

-فكـروا معـي، تخيلـوا أنّ الجيشـين العراقـي والإيرانـي يسـكران· مـاذا سيحدث؟

فأجاب جلال:

-كما يحدث في بار في علاوي الحلة!

فسأل عدنان دون أن يفهم:

-ماذا تعني؟

ابتسم جلال وقال:

-أعنـي ببسـاطة· سـيتقاتلان فـي الأول بعـد سـكرهما، ثـم يصـيحان ليريـا أي دمـار ألحقـه أحـدهما بـالآخر· سـيبكيان ثـم يقـبلان بعضـهما، ويعـزم أحـدهما الآخـر علـى الشـرب مسـاءً فيـأتي غريـب ويحرضـهما علـى أن يتقـاتلا مثلمـا فعلا بالأمس ·فيفعلان· وهكذا دواليك· ما دام هناك عرق وبارات·

ضحك عدنان، ليصمت بعدها· فيما راح الليل يردد صوت المطرب:

شوية يا عين الخشف خزرات المعاتب جوني

أنا من كثر ما لوع حتى أهلي أصبحت جزعانة مني

رافقتني الونة والحسرات من بطن الحملني

وهذا عمري مقالب ويه الضيم ما مر الضحك مرة على سني·

ومـع الوقـت لـم يعـد عـدنان يصـغي إلـى صـوت الإطلاقـات التـي بـدأت تختفـي رويـداً، إنمـا أخـذ يصـغي إلـى صـوته الـداخلي الـذي كـان يتـابع المطـرب فـي غنائـه ·وفـي مكـان مـا فـي عينـه اختنقـت دمعـة· كـم كـان بـوده أن يصـرخ· أن يخـرق هـذا الظـلام· مثلمـا تمزقـه قنبلـة لا تعـرف هـدفها· تـرى لمـاذا هـو هنـا؟ مـا الـذي حملـه علـى الالتحـاق؟ لمـاذا؟ هـل هـي حربـه؟ هـل صـحيح أنّـه أراد فقـط الهـروب مـن أبيـه؟ هـل أنّـه استسـهل أمـر هـذه الحـرب، وظـنّ أنهـا مجـرد أيـام عـابرة وتنتهـي· وبإمكانـه إنقـاذ جلـده لأنـه قـرر ألا يشـتغل فـي السياسـة؟ هـل أصـبح ذلـك المـواطن الصـالح الـذي أطلـق عليـه أيـام نشـاطه السياسـي المـواطن الـذي يحـب أمـه وأبـاه والحكومـة؟ .سـيموت· وإن لـم يمـت لحـد الآن، فسـيحدث ذلـك يومـاً مـا، سـاعة مـا· ربمـا بعـد لحظـات، غـداً، أو بعـد غـد·

fb/the.boooks

سيأتيه الموت دون سؤاله. سيباغته ولن يمنحه فرصة الاختيار؟ هل منحت قنبلة ما الاختيار لبشر ما ذات يوم؟ سيموت طالما ظلّ لابساً بذلته الكاكية. أين عدنان القديم الذي كان يحرض الناس ضد السلطة؟ هل هي استراحة المتمرد؟ لقد كان أكثر جرأة قبل سنوات. ابتداءً من فراره الأول. وقبلها ممارساته السياسية في الأردن. ما الذي جعله يذعن ويذهب طواعية. ما الذي يقوله لنديم لو كان بعد حياً. لقد جاء كذكر الجاموس المعصوب العينين، والذي يقوده المعدان لنكاح أمه. إنّه يفعل بنفسه الآن . بالضبط. ولكنه يعرف أيضاً أنّ إمكانياته كانت أكبر قبل الآن. لقد كان المعارضون آنذاك أكثر قوة وصلابة، ولكن في السنتين الأخيرتين دخل العديد من رفاقه القدامى إلى الحزب الحاكم، وأصبحت الناصرية كبيرة وقاتمة.أينما اتجه يرى تلك الوجوه القديمة الملساء، والتي كانت بلا شوارب، وقد امتدت فوقها الشوارب الغليظة، التي كان يطلق عليها .ثمانية شباط. لأنها ترسم خطاً يشبه الرقم ثمانية، فيما أصبح الخروج إلى النوادي الليلية كالكابوس، حتى إنه لجأ إلى الشرب في البيت، متحملاً كابوس أبيه المزمن، الذي كان يفتح جهاز التلفاز من العصر، ولم يكتفِ بإلقاء مواعظه عن ضرورة الانتماء وعن العبقرية الفذّة لـ .الفوق.، إنما تعمد أيضاً إهانة سنية أمامه كأنه يختبر ردّ فعله إذا ما دافع عنها، لكي يدعم شكّه المتنامي. وبالرغم من هيجان أبيه، إلا أنّه لم يحقق الرغبة في الرد عليه، إنما راح يشرب كل ليلة، دونما التعليق بكلمة. وبعد انتهائه من الشرب كان يندّس في فراشه في هدوء، واستفز سلوكه هذا قاسم جبر، الذي أخذ يصرخ بصوت عالٍ ليلاً لكي يزعجه في نومه .لكن عبثاً يفعل؛ إذ لم يكن لعدنان مكان أشّد إغراءً من فراش النوم، الذي يحمله إلى أحلام مختلفة، إلى أماكن وأزمنة أخرى، رغم أنّ عدنان يعتقد بأنّ استمتاعه بأحلامه إنجاز كبير حققه بعد مران طويل، فلقد أصبح متمكناً تماماً من اختيار مادة حلمه. وكان يستمتع بالنوم. لم يكن ينام من أجل النوم إنما لكي يحلم. كم ثورة أشعل في نومه. كم امرأة جميلة نام معها. لقد قام برحلات فاق بها السندباد.مع نديم أجرى أكثر من حديث. لقد ضاجع سنية في أحلامه أكثر مما ضاجعها في الواقع. ولكن الشيء الوحيد الذي لم ينجزه هو قتل أبيه في الحلم، لأنّه لم يستطع ذلك، بل لأنّه لم يشأ. لقد صارع تلك الفكرة أكثر من مرة، كلما طفت على السطح؛ لقد كان مأخوذاً بأمنيات أكبر منها على ما يبدو .مثلاً خطر له مرة أن يصفع .القائد. في الحلم، أن يدوس عليه بنعله. وحدث ذلك بالفعل، بل إنّ .القائد. قد بال على نفسه وتغوط في بذلة المهيب الزاهية، وفي حلمه تمنى أيضاً أن ينزع عنه ثياب المهيب، ويضع في عنقه سلسلة كما تفعل السيدات مع كلابهن في الأفلام

fb/the.boooks

الأوروبية، ليجرّه في شوارع بغداد. لقد حدث ذلك أيضاً. وقد أخذ الناس المجتمعون خصيصاً للأمر في ساحة التحرير يضحكون ويبصقون، فيما انهالوا عليه بأنعلة تشبه نعل عدنان، لم يسخر منه مثلما سخر تلك الليلة، لكنه يعرف أنّه يحلم، ومع ذلك فقد كان فرحاً لأنّه يستطيع إنجاز أكبر الأفعال في أحلامه، حتى إنّه مارس الأمر كمزحة بدت للآخرين نوعاً من الجنون. فإذا ما اعتدى أحدهم عليه قال له: حسناً .سأحلم بك. هكذا استمرت حاله في الأيام الأخيرة. ولكن عندما نشبت الحرب فقد السيطرة على أحلامه. حدث له ذلك مثلما حدث عندما كان في سجن الاستخبارات، عندما كانت تراوده أحلام جنسية متلاحقة لم يستطع التحكم بها.

هكذا أصبحت حياته في الأيام الأخيرة جحيماً في البيت. وفي الجبهة فقد القدرة على الحلم تماماً، هذا ما شعر به على الأقل. ولكن هل ينفعه هذا لتبرير مجيئه إلى هنا؟ إلى مكان لا يستطيع حتى أن يحلم به؟ عليه الكف عن السؤال لماذا وكيف؟ إنه هنا. وهذا يكفي. بلا حلم. إنّه هنا مثلما تكون هنا دبّابة أو طيارة. مثل مدفع أو رشاشة. مثل بسطال. إنّه أحد أشياء الجبهة .إنّه الرقم 784112. هل تسأله الدبّابة عن وجودها؟ هل يستطيع البسطال التمرد؟ أليست تلك حقيقة لا تعرفها الأرقام الأخرى.

فجأة بدأ عدنان يضحك بصوت عال باغت الآخرين، الذين كانوا صامتين في جبهة صمتت هي الأخرى، والذين جاءوا على قدحهم الثالث. حدّق الآخران بعدنان الذي فتح فمه ضاحكاً:

-هل تعلمون أنّنا مجرد بساطيل. نعم إنّنا مجرد بساطيل على الجبهة.

لم يعلقوا فشجع ذلك عدنان على المتابعة، بعد أن جرع بقايا قدحه الأول، ليعمّر قدحه الثاني بسرعة.

-هل تساءل أحدكم لماذا نحن هنا. هل هي حربنا؟

خيّم صمت كثيف، حتى إنّ القطرات التي كانت تنزل في البلعوم أحدثت صوتاً أثناء اندلاقها.

-هل تعرفون أنّ الحرب لعبة خاسرة. ليس هناك من يربح. حتى الذين يعتقدون أنّهم منتصرون هم خاسرون.

جرع جلال بقية ما في قدحه وقال بحذر:

fb/the.boooks

-أنا لا أعرف الحديث مثلك. لكني أعرف أنّ الإنسان أخ للإنسان. وأعرف حتى النبي محمد...

توقف جلال ليعمر قدحاً جديداً له وليتابع:

-حتى محمد قال لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى. أنا لا أفهم ما يجري. لكني أحس أنه غلط. أحياناً أفكر بأني حمار ــ رغم أنّ أخينا الرائد كان يقول إنّ الحمير هي أذكى الحيوانات. رغم ذلك أقول هل أنا بالفعل حمار لأني لم أسمع قبل الآن بهذه الأسماء التي ظهرت للمرة الأولى والتي اسمها القعقاع، القسطل ثم أم المصائب القادسية.

قاطعه سلام الذي قرر ألا يشرب أكثر من الكأسين اللتين شربهما:

-إنهم أجدادنا الذين هزموا الفرس المجوس في معركة القادسية و ...

وقبل أن ينتهي من كلامه صفعه عدنان بقوة على وجهه، حتى إنّه لفظ نهاية الكلمة .ية. تهالك بجسمه جانباً.

ولخوفه احتمى خلف جلال الذي صفعه هو الآخر قائلاً:

-معتوه اسكت.

رجع عدنان إلى مكانه. هدّاه جلال بقوله:

-لا تأخذ كلامه جدّياً. إنّه معتوه.

هدأ عدنان بالفعل، ولكنه قرر مع نفسه أن يقتل سلاماً. ألم يقرر قتل رجال السلطة؟ سينتهي منه هذه الليلة أو غداً. سينتهي منه قبل أن يموت. هل هو مجنون. كيف يسمح لنفسه أن يموت، هل هو خائف.

هل سيكون سلام اختباره الثاني؟

بصدق عدنان على سلام. ورجع إلى مكانه. وعندما جلس سمع صوت علي:

-لم أستطع النوم. هل عندكم عرق؟

فعلق جلال:

fb/the.boooks

-أصبح الآن محترفاً· إجلس· سأسقيك·

عمّر جلال قدحاً لعلي الذي كانت آثار التعب واضحة على وجهه الدائري· تناول علي القدح من يد جلال، وصاح:

-بصحتكم، ثم دفع القدح إلى فمه حتى جاء على نصفه·

أراد جلال أن يعلق ويقول لعلي .عظيم لقد أصبحت محترفاً في شرب العرق .ولكن لم يمنحه علي الفرصة، إذ بدأ في الكلام بدون توجيه نظراته إلى أحد:

-لا أدري إذا كنا سنتجاوز المحنة· أعرف أنّنا سنموت·أنا على يقين أنّنا لن ننجو هذه المرة·

لقد بدا وجهه شاحباً وممزقاً إلى حد كبير· وظهرت تقاطيع وجهه العشريني هرمة كتقاطيع وجه خمسيني، لا سيّما الخطان اللذان رسما حفرتين تحت عينيه السوداوين الكبيرتين· وجّه علي نظراته هذه المرة صوب عدنان وقال:

-كم تعتقد أنّ هذه الحرب ستستمر· ثلاث سنوات أخرى، ثلاثون· دهر· قرن· إلى متى؟

وقبل أن يجيبه عدنان أعلن جلال:

-لن تنتهي طالما الاثنان مصّران·

فسأله عدنان:

-وما دخل ايران· العراق هو من يحتل أراضي إيرانية· وهو الذي بدأ في الحرب·

ضحك جلال وقال:

-ستستمع في يوم ما في الراديو يا أهالي مندلي والبصرة دافعوا عن أنفسكم· حينها لن تتوقف الحرب وسيزحف إخوانك المسلمون حتى كربلاء ولن يوقفهم حتى الحسين نفسه·

fb/the.boooks

صمتوا لوقت غير قصير، وفي أرجاء المكان صرخ الصمت بشكل غير مألوف. حتى إنّهم سمعوا من البعيد أصواتاً غامضة تشبه هدير ماكنة. وعندما حاولوا الإصغاء انقطعت الأصوات، دفعوا جرعات العرق إلى أفواههم. وبعد أن تناول سلام قطرات جديدة، وجد الشجاعة ليقول لعدنان:

-أعذرني أبو قحطان. أعذرني عن كلامي!

فأجابه عدنان الذي فوجئ بصوته:

-عليك أن تفكر بنفسك يا أبله. إنّك تتحدث عن الحرب وكأنها حرب أبيك.

علق جلال:

-ربما يعتقد أخونا أنّ له المصلحة نفسها؛ لأن رئيسنا نفعي مثله مصالح مشتركة.

لم يشأ سلام أخذ كلام جلال على محمل الجد. ذلك لأنّه يسمع منه للمرة الأولى شتيمة بهذه القوة ضد السلطة.

فسأل سلام نفسه، هل جنّ جلال هو الآخر؟ لذلك فقد فكر بمكر بالخروج من هذه المحنة والتكيف معهم. على الأقل حتى يصلوا وحدة عسكرية في طريقهم، إن لم يصلوا وحدتهم. أدرك سلام أنّ اعتذاره لا يكفي. كان خائفاً أن يلقى المصير الذي لاقاه نائب الضابط حميد. فأردف:

-أنا مجبور على العسكرية. أنا جندي متطوع. حتى دخولي في الحزب هو جبر. ثم إنّ لنا عائلة في سوق الشيوخ. ولا أستطيع أن أفعل شيئاً يضر بعائلتي. وأنا أريد الزواج إن شاء الله.

ضحك جلال ودفع يده إلى مؤخرة سلام:

-هه. تريد أن تتزوج. ولكن كيف هو أمر مؤخرتك؟

سكتوا جميعاً للحظات. أسند عدنان جسمه إلى الأرض، تمدد باسترخاء . أنشأت عيناه تعاينان السماء التي امتدت فوقهم واضحة وصافية. بعد برهة عاين الآخرين. كان سلام قد ابتعد عن جلال قليلاً، احتضن كأس العرق في يده وكأنه يحتمي به، وبدت بشرته الملساء متجعدة وكريهة، فيما بدا جلال صلباً وكأنّه يعرف ما يريد، وقد بعث شاربه الأسود الكثيف الشعور لدى عدنان بأنّ الأمر سيآن بالنسبة إلى هذا الرجل أن يموت أم لا، أو أنّه

fb/the.boooks

يمـزح مـع المـوت أو يناكحـه. أمـا علـي فقـد بـدا عليـه الشـرود، فيمـا انفتحـت عيناه على العالم وكأنهما تقولان له .كفى.

أبـدل جـلال الشـريط ليضـع شـرطاً جديـداً وانبعـث هـذه المـرة صـوت الطـرب يغني:

لست أشكو حرب جفني والكرى

fb/the.boooks

-أنـا لا أعـرف الحـديث مثلـك. لكنـي أعـرف أنّ الإنسـان أخ للإنسـان. وأعرف حتى النبي محمد...

توقف جلال ليعمر قدحاً جديداً له وليتابع:

-حتـى محمد قـال لا فـرق بـين عربـي وأعجمـي إلا بـالتقوى. أنـا لا أفهـم مـا يجـري. لكنـي أحس أنـه غلـط. أحيانـاً أفكـر بـأني حمـار ــ رغـم أنّ أخينـا الرائـد كـان يقـول إنّ الحميـر هـي أذكـى الحيوانـات. رغـم ذلـك أقـول هـل أنـا بالفعـل حمـار لأنـي لـم أسمع قبل الآن بهذه الأسـماء التـي ظهـرت للمـرة الأولـى والتـي اسمها القعقاع، القسطل ثم أم المصائب القادسية.

قاطعه سلام الذي قرر ألا يشرب أكثر من الكأسين اللتين شربهما:

-إنهم أجدادنا الذين هزموا الفرس المجوس في معركة القادسية و ...

وقبـل أن ينتهـي مـن كلامـه صـفعه عـدنان بقـوة علـى وجهـه، حتـى إنّـه لفـظ نهاية الكلمة .ية. تهالك بجسمه جانباً.

ولخوفه احتمى خلف جلال الذي صفعه هو الآخر قائلاً:

-معتوه اسكت.

رجع عدنان إلى مكانه. هدّاه جلال بقوله:

-لا تأخذ كلامه جدّياً. إنّه معتوه.

هـدأ عـدنان بالفعـل، ولكنـه قـرر مـع نفسـه أن يقتـل سـلاماً. ألـم يقـرر قتـل رجـال السـلطة؟ سـينتهي منـه هـذه الليلـة أو غـداً. سـينتهي منـه قبـل أن يمـوت. هـل هـو مجنون. كيف يسمح لنفسه أن يموت، هل هو خائف.

هل سيكون سلام اختباره الثاني؟

بصـدق عـدنان علـى سـلام. ورجـع إلـى مكانـه. وعنـدما جلـس سـمع صـوت علي:

-لم أستطع النوم. هل عندكم عرق؟

فعلق جلال:

fb/the.boooks

-أصبح الآن محترفاً. إجلس. سأسقيك.

عمّر جلال قدحاً لعلي الذي كانت آثار التعب واضحة على وجهه الدائري. تناول علي القدح من يد جلال، وصاح:

-بصحتكم، ثم دفع القدح إلى فمه حتى جاء على نصفه.

أراد جلال أن يعلق ويقول لعلي .عظيم لقد أصبحت محترفاً في شرب العرق .ولكن لم يمنحه علي الفرصة، إذ بدأ في الكلام بدون توجيه نظراته إلى أحد:

-لا أدري إذا كنا سنتجاوز المحنة. أعرف أنّنا سنموت.أنا على يقين أنّنا لن ننجو هذه المرة.

لقد بدا وجهه شاحباً وممزقاً إلى حد كبير. وظهرت تقاطيع وجهه العشريني هرمة كتقاطيع وجه خمسيني، لا سيّما الخطان اللذان رسما حفرتين تحت عينيه السوداوين الكبيرتين. وجّه علي نظراته هذه المرة صوب عدنان وقال:

-كم تعتقد أنّ هذه الحرب ستستمر. ثلاث سنوات أخرى، ثلاثون. دهر. قرن. إلى متى؟

وقبل أن يجيبه عدنان أعلن جلال:

-لن تنتهي طالما الاثنان مصّران.

فسأله عدنان:

-وما دخل ايران. العراق هو من يحتل أراضي إيرانية. وهو الذي بدأ في الحرب.

ضحك جلال وقال:

-ستستمع في يوم ما في الراديو يا أهالي مندلي والبصرة دافعوا عن أنفسكم. حينها لن تتوقف الحرب وسيزحف إخوانك المسلمون حتى كربلاء ولن يوقفهم حتى الحسين نفسه.

fb/the.boooks

صمتوا لوقت غير قصير، وفي أرجاء المكان صرخ الصمت بشكل غير مألوف. حتى إنّهم سمعوا من البعيد أصواتاً غامضة تشبه هدير ماكنة. وعندما حاولوا الإصغاء انقطعت الأصوات، دفعوا جرعات العرق إلى أفواههم. وبعد أن تناول سلام قطرات جديدة، وجد الشجاعة ليقول لعدنان:

-أعذرني أبو قحطان. أعذرني عن كلامي!

فأجابه عدنان الذي فوجئ بصوته:

-عليك أن تفكر بنفسك يا أبله. إنّك تتحدث عن الحرب وكأنها حرب أبيك.

علق جلال:

-ربما يعتقد أخونا أنّ له المصلحة نفسها؛ لأن رئيسنا نفعي مثله مصالح مشتركة.

لم يشأ سلام أخذ كلام جلال على محمل الجد. ذلك لأنّه يسمع منه للمرة الأولى شتيمة بهذه القوة ضد السلطة.

فسأل سلام نفسه، هل جنّ جلال هو الآخر؟ لذلك فقد فكر بمكر بالخروج من هذه المحنة والتكيف معهم. على الأقل حتى يصلوا وحدة عسكرية في طريقهم، إن لم يصلوا وحدتهم. أدرك سلام أنّ اعتذاره لا يكفي. كان خائفاً أن يلقى المصير الذي لاقاه نائب الضابط حميد. فأردف:

-أنا مجبور على العسكرية. أنا جندي متطوع. حتى دخولي في الحزب هو جبر. ثم إنّ لنا عائلة في سوق الشيوخ. ولا أستطيع أن أفعل شيئاً يضر بعائلتي. وأنا أريد الزواج إن شاء الله.

ضحك جلال ودفع يده إلى مؤخرة سلام:

-هه. تريد أن تتزوج. ولكن كيف هو أمر مؤخرتك؟

سكتوا جميعاً للحظات. أسند عدنان جسمه إلى الأرض، تمدد باسترخاء . أنشأت عيناه تعاينان السماء التي امتدت فوقهم واضحة وصافية. بعد برهة عاين الآخرين. كان سلام قد ابتعد عن جلال قليلاً، احتضن كأس العرق في يده وكأنه يحتمي به، وبدت بشرته الملساء متجعدة وكريهة، فيما بدا جلال صلباً وكأنّه يعرف ما يريد، وقد بعث شاربه الأسود الكثيف الشعور لدى عدنان بأنّ الأمر سيآن بالنسبة إلى هذا الرجل أن يموت أم لا، أو أنّه

fb/the.boooks

يمزح مع الموت أو يناكحه. أما علي فقد بدا عليه الشرود، فيما انفتحت عيناه على العالم وكأنهما تقولان له .كفى.

أبدل جلال الشريط ليضع شرطاً جديداً وانبعث هذه المرة صوت الطرب يغني:

لست أشكو حرب جفني والكرى

إن يكن بيني وبين النوم صلح

كم أداوي القلب قلّت حيلتي

كلما داويت جرحاً سال جرح.

حاول عدنان أن يتخيل ما سينجزه بعد الحرب. سيغادر الناصرية إلى بغداد .سيسكن هناك. سيمارس نشاطه السياسي. إنّه يفكر بإعادة بناء شبكة مع رفاقه القدامى. سيبحث عن شغل في بغداد. وهناك سيشتري كتباً كثيرة. سيقرأ تشيخوف وبوشكين. لقد قرأ قبل الحرب صدفة كتاباً عن حياة بوشكين. نعم سيشتري كتباً لبوشكين. سيعلق صوراً جميلة في غرفته. سيسكن في الحيدرخانة. لقد سمع من أصدقائه أنّه مكان خاص للطلاب الذين لم يُقبلوا في الأقسام الداخلية. عليه أن يكون حذراً هناك؛ لأن الدولة يقيناً تبث جواسيسها هناك. ربما عليه أن يختار بيتاً موحداً أو صغيراً في أسوأ الاحتمالات. المهم عليه أن يحاول ألا يشاركه أحد في غرفته، ففي هذه البيوت كلما قلّ عدد الساكنين، كانت أكثر أمناً. هدر صوت المسجل:

ولك يرحن جفوني من السهر يا ليل يرحن

وعن قلبي الهموم شوكت يرحن

أنا شكثر ما داوي القلب يرحن

بعد ما طاب سال الآخر عليه.

أخذت كلمات الأغنية تنغرس في نقطة ما من روحه، ومع تمايل الرؤوس الأخرى التي كانت تهتز مع الأبوذية التي صدحت في الليل الذي أخذ يفرش عباءته على الجبهة.

fb/the.boooks

حدّق عدنان في الأفق أمامه. توهجت رغباته في داخله، رغبات بدت له لوقت قصير نائمة في زوايا رأسه. رغبات قد تبدو جنونية في أيام السلم، مثلاً. لو كان مقر البطّارية الآن أمام وجهه لصوّب نيران المدفعية إليه؟ لماذا لم يفعل ذلك في معسكر المحاويل؟ لماذا لا يكتشف المرء بعض الأفعال التي كان عليه أن يفعلها، إلا في وقت متأخر؟ هل حالته الآن وانسجامه مع الأغنية هما ما يجعلانه يفكر بهذه الأمور؟ أم إنّه الفضاء الذي سيصبح أكثر لمعاناً ؟ أم داخله الذي يشتعل كمعدن ساخن؟ لو كان قد فعل ما خطر في ذهنه الآن، هل تراه الآن يجلس هنا يقاسم مائدة اليأس مع هذه الشلة اليائسة، في هذا المكان التعس؟ وإن لم يكن ذلك، فأين نام وعيه عندما سحبوه إلى خدمة الاحتياط بعد الحرب بأسابيع، وعندما كانت وحدته في الخطوط الخلفية تماماً ؟ هل اطمأنّ آنذاك وفكر أنّهم سوف لن ينتقلوا إلى خطوط التماس؟

اتسعت عيناه، وكأنهما تحاولان الانسلاخ من وجهه، وتلتصقان بالأفق الممتد بغموض أمامه، فيما استحوذت عليه رغبة عارمة في الركض. نهض. وقف بجذعه الطويل. وبدا غريباً وعملاقاً للآخرين الذين أنشأوا يحدقّون به باستغراب. لقد تملكته فعلاً الرغبة في العدو، ولكنه كبح جماحها، ليفتح فمه بصعوبة ويسأل جلال:

-ما الذي تريد أن تفعله إذا انتهت الحرب؟

ابتسم جلال وبدا على وجهه وكأنه ينتظر السؤال منذ مدة. مسّد شاربه الغليظ وبدأ في الكلام:

-آخ. ماذا سأفعل. إنّ الأمر بسيط.

سكت وفي الوقت نفسه سكت صوت المسجل. دفع جرعة أخرى من العرق وأكمل:

-إنّ كل طموحي هو التسرح من هذا الخرة. نحن المتطوعون ليس من السهولة علينا مغادرة الجيش، أما بالنسبة لي فلا فرق كيف ستنتهي هذه الحرب إذا ما عرفت أنني سأتسرح بعدها. ولكني أعرف أنّه في حالة انتصار العراق فإنّ تسريحي سيكون من سابع المستحيلات. ولكن هل تعلمون أنّني أتمنى أن تدخل إيران. فلربما سأتسرح.

قاطعه علي:

fb/the.boooks

-لكن أعرف في حالة دخول إيران سيصبح العراق جمهورية إسلامية.

ثم غمز عدنان إلى جلال وأشار بيده باتجاه قدح العرق:

-وسيصبح على الأقل من سابع المستحيلات شرب قطرة من العرق، فماذا تفعل بدون حليب السباع يا سبع؟

فكر جلال للحظات ثم قال:

-إنّ الحاجة أم الاختراع. هل تدري أنّ معظم الإيرانيين يصنعون العرق في بيوتهم. سنفعل ذلك أيضاً في العراق. ثم أخذ يضحك:

-تخيل تأتي أمي إلى أمك وفي يدها سطل فارغ. وتقول لها خية .سطل عرق لابني.

جرع جلال بقية القدح:

-ماذا يعنيني إذا دخل الإيرانيون. إنّني بلا أمل. من يسرح أولئك الذين تورطوا في محنة الجيش.

صمت. ومع الوقت راح صوته يصبح حزيناً. لم يتكلم الآخرون، إنّما حدّقوا به وكأنهم يطلبون منه أن يستمر:

-قد تقولون هناك أموراً أهم. صحيح فأنتم لا تعرفون بأنّني متزوج، ولكن زوجتي تعيش عند أهلها في الديوانية. وهي لا تريد الرجوع إلي بحجة أنّني رجعي، لماذا؟ سأقولها بصراحة.

أخرج جلال سيجارة من جيبه. وضعها في فمه. أشعلها. نفث دخانها بقوة ونظر إلى وجوههم وكأنه يريد أن يدرس ردود أفعالهم. ثم أكمل وقد تصبب بعض العرق فوق جبهته:

-تقول إنّني رجعي لأنّني لا اسمع أغاني غربية، فأنا أسمع دائماً أغاني شعبية. لا أدري من علّمها ذلك فأنا أعرفها منذ كانت صغيرة، وتأتي إلى بيت عمتها التي كانت جارتنا في مدينة الحرية. لا أدري من علّمها. ربما أخوها. ولكني أعتقد... ولم يستطع في بادئ الأمر أن يأتي على نهاية الجملة .وتلعثم لسانه قليلاً، ثم جمع أنفاسه ليلقي بجملته:

fb/the.boooks

-سأقولها بصراحة. لها صديق طالب. وهي تريد أن تعيش معه كما تقول .حياة معاصرة.، تريد أن ترقص تويست روك أندروك. إنّه أمر مضحك فهي لم تكمل الثالث متوسط وأمها مملوءة بالوشم من رأسها حتى أخمص قدميها.

خيم الصمت مرة أخرى، ليقطعه جلال أيضاً:

-لقد حاولت إرجاعها أكثر من مرة. أعتقد أنّها لن تقبل حتى لو تسرحت من الجيش. وفي الفترة الأخيرة أخرجت دعاية عليّ بأنني .فرخجي.

سكت ثم عاين سلام وأشار إليه:

-ثقوا لولا الحرب لما اضطررت أن أفعل معه شيئاً.

استند جلال بكوعه إلى الأرض. وشعر بأنّه قد ارتاح الآن. هزّ يده. وألقى بيده الأخرى سيجارته التي انتهت من دون أن يدخن منها الكثير:

-المهم. أنا سأهرب هذه المرة وليحدث ما يحدث.

فجأة أنشأ صوته يتهدج وحبس دموعه التي لم يرد إظهارها. لقد عاد اضطرابه مرة أخرى.

-تطوعت آنذاك لأنّنا لم نملك نقوداً كافية لزواجي منها. والآن تقابلني بسلوكها بنت الكلب.

كلما استمر جلال في سرده للقصة ازداد تهدج صوته. عدل من وضعه، ملأ لنفسه قدحاً جديداً. تناول جرعة منه. ظل محتفظاً بالقدح في يده:

-هل تعرفون ماذا سأفعل بعد انتهاء القدح. الشيء الوحيد الذي سأفعله هو قتلها. أقسم بالعرق الذي بيدي. أحلف بكل منيوك وقواد بأنّني سأقتلها.

سكت جلال. وضع يده على وجهه. لقد سكت وفيه الرغبة ألا يقول شيئاً بعد. لقد نفض كل ما علق في داخله.

وبدون أن يدري فتح عدنان فمه وهو يحدق في الأرض:

-وأنت ماذا تود أن تفعل يا سلام؟

حاول سلام أن يتصنع وجهاً جدياً:

fb/the.boooks

كم أداوي القلب قلّت حيلتي

كلما داويت جرحاً سال جرح.

حاول عدنان أن يتخيل ما سينجزه بعد الحرب. سيغادر الناصرية إلى بغداد .سيسكن هناك. سيمارس نشاطه السياسي. إنّه يفكر بإعادة بناء شبكة مع رفاقه القدامى. سيبحث عن شغل في بغداد. وهناك سيشتري كتباً كثيرة. سيقرأ تشيخوف وبوشكين. لقد قرأ قبل الحرب صدفة كتاباً عن حياة بوشكين. نعم سيشتري كتباً لبوشكين. سيعلق صوراً جميلة في غرفته. سيسكن في الحيدرخانة. لقد سمع من أصدقائه أنّه مكان خاص للطلاب الذين لم يُقبلوا في الأقسام الداخلية. عليه أن يكون حذراً هناك؛ لأن الدولة يقيناً تبث جواسيسها هناك. ربما عليه أن يختار بيتاً موحداً أو صغيراً في أسوأ الاحتمالات. المهم عليه أن يحاول ألا يشاركه أحد في غرفته، ففي هذه البيوت كلما قلّ عدد الساكنين، كانت أكثر أمناً. هدر صوت المسجل:

ولك يرحن جفوني من السهر يا ليل يرحن

وعن قلبي الهموم شوكت يرحن

أنا شكثر ما داوي القلب يرحن

بعد ما طاب سال الآخر عليه.

أخذت كلمات الأغنية تنغرس في نقطة ما من روحه، ومع تمايل الرؤوس الأخرى التي كانت تهتز مع الأبوذية التي صدحت في الليل الذي أخذ يفرش عباءته على الجبهة.

حدّق عدنان في الأفق أمامه. توهجت رغباته في داخله، رغبات بدت له لوقت قصير نائمة في زوايا رأسه. رغبات قد تبدو جنونية في أيام السلم، مثلاً. لو كان مقر البطّارية الآن أمام وجهه لصوّب نيران المدفعية إليه؟ لماذا لم يفعل ذلك في معسكر المحاويل؟ لماذا لا يكتشف المرء بعض الأفعال التي كان عليه أن يفعلها، إلا في وقت متأخر؟ هل حالته الآن وانسجامه مع الأغنية هما ما يجعلانه يفكر بهذه الأمور؟ أم إنّه الفضاء الذي سيصبح أكثر لمعاناً ؟ أم داخله الذي يشتعل كمعدن ساخن؟ لو كان قد فعل ما خطر في ذهنه الآن، هل تراه الآن يجلس هنا يقاسم مائدة اليأس مع هذه الشلة اليائسة، في هذا المكان التعس؟ وإن لم يكن ذلك، فأين نام وعيه

fb/the.boooks

عندما سحبوه إلى خدمة الاحتياط بعد الحرب بأسابيع، وعندما كانت وحدته في الخطوط الخلفية تماماً ؟ هل اطمأنّ آنذاك وفكر أنّهم سوف لن ينتقلوا إلى خطوط التماس؟

اتسعت عيناه، وكأنهما تحاولان الانسلاخ من وجهه، وتلتصقان بالأفق الممتد بغموض أمامه، فيما استحوذت عليه رغبة عارمة في الركض. نهض. وقف بجذعه الطويل. وبدا غريباً وعملاقاً للآخرين الذين أنشأوا يحدقّون به باستغراب. لقد تملكته فعلاً الرغبة في العدو، ولكنه كبح جماحها، ليفتح فمه بصعوبة ويسأل جلال:

-ما الذي تريد أن تفعله إذا انتهت الحرب؟

ابتسم جلال وبدا على وجهه وكأنه ينتظر السؤال منذ مدة. مسّد شاربه الغليظ وبدأ في الكلام:

-آخ. ماذا سأفعل. إنّ الأمر بسيط.

سكت وفي الوقت نفسه سكت صوت المسجل. دفع جرعة أخرى من العرق وأكمل:

-إنّ كل طموحي هو التسرح من هذا الخرة. نحن المتطوعون ليس من السهولة علينا مغادرة الجيش، أما بالنسبة لي فلا فرق كيف ستنتهي هذه الحرب إذا ما عرفت أنني سأتسرح بعدها. ولكني أعرف أنّه في حالة انتصار العراق فإنّ تسريحي سيكون من سابع المستحيلات. ولكن هل تعلمون أنّني أتمنى أن تدخل إيران. فلربما سأتسرح.

قاطعه علي:

-لكن أعرف في حالة دخول إيران سيصبح العراق جمهورية إسلامية.

ثم غمز عدنان إلى جلال وأشار بيده باتجاه قدح العرق:

-وسيصبح على الأقل من سابع المستحيلات شرب قطرة من العرق، فماذا تفعل بدون حليب السباع يا سبع؟

فكر جلال للحظات ثم قال:

fb/the.boooks

-إنّ الحاجة أم الاختراع. هل تدري أنّ معظم الإيرانيين يصنعون العرق في بيوتهم. سنفعل ذلك أيضاً في العراق. ثم أخذ يضحك:

-تخيل تأتي أمي إلى أمك وفي يدها سطل فارغ. وتقول لها خية .سطل عرق لابني.

جرع جلال بقية القدح:

-ماذا يعنيني إذا دخل الإيرانيون. إنّني بلا أمل. من يسرح أولئك الذين تورطوا في محنة الجيش.

صمت. ومع الوقت راح صوته يصبح حزيناً. لم يتكلم الآخرون، إنّما حدّقوا به وكأنهم يطلبون منه أن يستمر:

-قد تقولون هناك أموراً أهم. صحيح فأنتم لا تعرفون بأنّني متزوج، ولكن زوجتي تعيش عند أهلها في الديوانية. وهي لا تريد الرجوع إلي بحجة أنّني رجعي، لماذا؟ سأقولها بصراحة.

أخرج جلال سيجارة من جيبه. وضعها في فمه. أشعلها. نفث دخانها بقوة ونظر إلى وجوههم وكأنه يريد أن يدرس ردود أفعالهم. ثم أكمل وقد تصبب بعض العرق فوق جبهته:

-تقول إنّني رجعي لأنّني لا اسمع أغاني غربية، فأنا أسمع دائماً أغاني شعبية. لا أدري من علّمها ذلك فأنا أعرفها منذ كانت صغيرة، وتأتي إلى بيت عمتها التي كانت جارتنا في مدينة الحرية. لا أدري من علّمها. ربما أخوها. ولكني أعتقد... ولم يستطع في بادئ الأمر أن يأتي على نهاية الجملة .وتلعثم لسانه قليلاً، ثم جمع أنفاسه ليلقي بجملته:

-سأقولها بصراحة. لها صديق طالب. وهي تريد أن تعيش معه كما تقول .حياة معاصرة.، تريد أن ترقص تويست روك أندروك. إنّه أمر مضحك فهي لم تكمل الثالث متوسط وأمها مملوءة بالوشم من رأسها حتى أخمص قدميها.

خيم الصمت مرة أخرى، ليقطعه جلال أيضاً:

-لقد حاولت إرجاعها أكثر من مرة. أعتقد أنّها لن تقبل حتى لو تسرحت من الجيش. وفي الفترة الأخيرة أخرجت دعاية عليّ بأنني .فرخجي.

fb/the.boooks

سكت ثم عاين سلام وأشار إليه:

-ثقوا لولا الحرب لما اضطررت أن أفعل معه شيئاً.

استند جلال بكوعه إلى الأرض. وشعر بأنّه قد ارتاح الآن. هزّ يده. وألقى بيده الأخرى سيجارته التي انتهت من دون أن يدخن منها الكثير:

-المهم. أنا سأهرب هذه المرة وليحدث ما يحدث.

فجأة أنشأ صوته يتهدج وحبس دموعه التي لم يرد إظهارها. لقد عاد اضطرابه مرة أخرى.

-تطوعت آنذاك لأنّنا لم نملك نقوداً كافية لزواجي منها. والآن تقابلني بسلوكها بنت الكلب.

كلما استمر جلال في سرده للقصة ازداد تهدج صوته. عدل من وضعه، ملأ لنفسه قدحاً جديداً. تناول جرعة منه. ظل محتفظاً بالقدح في يده:

-هل تعرفون ماذا سأفعل بعد انتهاء القدح. الشيء الوحيد الذي سأفعله هو قتلها. أقسم بالعرق الذي بيدي. أحلف بكل منيوك وقواد بأنّني سأقتلها.

سكت جلال. وضع يده على وجهه. لقد سكت وفيه الرغبة ألا يقول شيئاً بعد. لقد نفض كل ما علق في داخله.

وبدون أن يدري فتح عدنان فمه وهو يحدق في الأرض:

-وأنت ماذا تود أن تفعل يا سلام؟

حاول سلام أن يتصنع وجهاً جدياً:

-سأتزوج ابنة خالتي. فهي قد ملّت من انتظاري. نحن مخطوبان منذ طفولتنا. المانع الوحيد هو ابن عمها الذي سمعت بأنّه سقط في جبهة سربيل ذهاب. هذا يعني بأنه لن يبقى أمامنا أيما عائق. بالتأكيد سأترفع بعد الحرب.

سكت. ابتسم بانفعال وقال جملته التي بدت كريهة لعدنان:

-أنا لدي طموح أن أصبح نائب ضابط. سأحقق ذلك ما إن تنتهي الحرب. هناك صعوبة هو أنّ بعض أعدائي يحاولون إبعادي عن الحزب!

fb/the.boooks

قاطعه عدنان بانزعاج:

-لا حاجة بك أن تحدثنا عن وضعك في الحزب. حدثنا عما ستفعله بعد الحرب. وإذا لا تستطيع فاخرس.

فقال بودٍ بدا وكأنه مجبر عليه:

-من الأفضل أن تحدثنا أنت وعلي؛ فأنتما الوحيدان اللذان ستتسرحان. أما أنا وجلال فباقيان إلى الأبد.

لقد أدرك عدنان في تلك اللحظة كم كان سلام مقرفاً وسخيفاً، وتمنى في الوقت نفسه لو أنّ فمه ينغلق إلى الأبد، وإلا فإنّه سيضطر في النهاية إلى قتله.

للحظة حدّق علي بعدنان وكأنه يسأله .من يبدأ منّا؟. بحلق عدنان بعلي أيضاً وفي رأسه السؤال ذاته، هكذا استمرا يحدقان أحدهما في الآخر، مثلما استمر الليل يكثف ظلامه فوقهم. وفي اللحظة التي أراد عدنان أن يفتح فمه بها فتح علي فمه:

-حسناً قد تسألني ما الذي سأفعله. سأقول باختصار. سأدرس في الجامعة . سأستأجر غرفة قريبة من الجامعة. سأفعل الكثير. سأقرأ. أسافر. سأحب من النساء الكثير. هل يكفي ذلك؟

وقبل أن يسمع جواباً من عدنان قال بانفعال ولكنه حزين:

-ولكن هل أنت متأكد بأنّنا سنبقى أحياء. أنا متأكد أنّنا سنموت. إن لم يكن اليوم فغداً أو بعد غد. سنموت لا محالة. سكت. وتابع:

-من أين لك اليقين بأنّ لنا مستقبلاً. كيف تجرؤ على السؤال عن المستقبل. إنّ هذه الحرب ليست كباقي الحروب التي قرأنا عنها في كتبنا المدرسية. كم كنت واهماً بالتحاقي، لقد اعتقدت ببساطة ليس من الخطر الاشتراك في حرب. ثم ماذا. لأذهب وأرى ماذا يحدث هناك. والآن أعرف سخف توقعاتي.

ابتسم ثم قال بسخرية:

ــ إنّها حرب المصابين برؤوسهم. آه لو رأيت ذلك الرائد الذي كان مصاباً برأسه. لقد ذهب وذهبت معه حكمته. ولكني أحتفظ ببعض من قناعاته .

fb/the.boooks

حسناً المهم. ألا ترى معي هذا الجدار الهائل من الدمار أمامك، والذي يغلق أية إمكانية للسؤال عن المستقبل.

سكت علي ليحدّق في عدنان الذي عذّل من جلسته وأصبح بوضع يمكّنه تماماً من رؤية علي وهو يتكلم:

-قل أنت مثلاً ماذا ستفعل بعد الحرب، في الأصح أنا لا أطالبك بجواب. الأصح أن تسأل لماذا اشتركنا بها؟

فقاطعه عدنان:

-لقد ذكر ذلك عندما كنت نائماً .

فرذّ علي بصمت لم تبدُ به حياة:

-ألا تدري أنّ محنتنا الأساسية أنّنا جئنا إلى هذه الحرب وكل منّا يحمل عذره. لكنها بالتالي حرب مصنوعة منا جميعاً. تلك هي الكارثة.

فأجابه عدنان :

-ومتى اختار الانسان الحرب؟

سكت علي ولم يجب، سمّر عينيه هكذا وكأنه مصّر على سماع جملة ما من عدنان .

حاول عدنان أن يقول شيئاً، لكن ما أراد إخراجه من جوفه بقي مكانه. شعر عدنان بحرقة غير طبيعية تصعد إلى بلعومه. حرقة جعلته يقف الآن ويتجه إلى شجرة قريبة ليفرغ ما تجمع بجوفه بقوة. وبسرعة غريبة اندفع كل ما تجمع في معدته وكأنه يدفع وهماً استقر هناك. أخذ يتقيأ بصوت صاخب. اقترب سلام منه ومدّ يده ليربت على كتفه، فدفع عدنان يده عنه. ومع تقيؤه راح يدمدم مع نفسه بصوت لم يسمعه سوى علي الذي كان أكثر قرباً منه، والذي فتح أذنيه تماماً، لا سيّما بعد ابتعاد سلام عن عدنان:

-أما أنا فأعرف ما أفعله بعد تسريحي. سأقتل قاسم جبر . سأعمل على إسقاط السلطة. سأضاجع سنية. سأكتب عن نديم وما حصل في الناصرية. سأكتب عن الحرب.

بصق عدنان بقايا القيء. رجع إلى مكانه وسأل جلال:

fb/the.boooks

-هلاّ قلت أين ستقودنا؟

ابتسم جلال وقال بحذر:

-صحيح أننا قد أضعنا الطريق في البداية. إلا أنّني قررت أن أقودكم إلى حي الطرب.

فتح عدنان فاه وصاح:

-أنت مجنون، جميل بحق، لماذا أخفيت عنّا هذا الخبر الجميل؟

فأردف علي:

-لقد تكهنت بذلك. كنت على ثقة من أنّ جلال يخفي مفاجأة.

ثم عقّب:

-أتمنى ألا نموت قبل أن نصل حي الطرب!

فقال جلال بمرح:

-لنشرب باقي العرق وبعدها نتجه إلى بيت الله.

لم يبقَ في القنينة سوى القليل. فوزعوه بينهم ودفعوا به إلى بلعومهم، باستثناء سلام الذي اعتذر عن شرب قدحه والذي وقف وهو يتحايل بعض الشيء وقال:

-زي الناس.

وراح يبتعد عنهم حتى إنّ جلال قال ساخراً:

-هل تريد أن تتجه إلى الحدود لتخري هناك. لا تخاف لا أحد سيرى طيزك.

ثم قال بصوت واطئ:

-يستحي منكم لكن من عيري لا.

كان الليل قد بسط ظلمته الكثيفة فوقهم وبدا حالكاً بلون يفوق لون طائرة الميغ. في ذلك الوقت سمعوا صوت طائرات تأتي من البعيد. وقبل أن

fb/the.boooks

يسألوا عن هويتها، كانت الطائرات تحلق فوقهم. كانت ثلاث طائرات تطارد طائرة لم يستطيعوا تمييز لونها في ذلك الظلام، إذ لم يظهر سوى ضوئها الأحمر. لقد دارت الطائرة المُطاردة في مكانها، ودارت الطائرات الثلاث وراءها. وبسرعة البرق انبطحوا عندما رأوا كتلاً ضخمة تسقط من الطائرة المطاردة التي حلّقت بعلو منخفض، والتي يبدو أنّها أرادت أن

سكت. ابتسم بانفعال وقال جملته التي بدت كريهة لعدنان:

-أنا لدي طموح أن أصبح نائب ضابط. سأحقق ذلك ما إن تنتهي الحرب. هناك صعوبة هو أنّ بعض أعدائي يحاولون إبعادي عن الحزب!

قاطعه عدنان بانزعاج:

-لا حاجة بك أن تحدثنا عن وضعك في الحزب. حدثنا عما ستفعله بعد الحرب. وإذا لا تستطيع فاخرس.

فقال بودٍ بدا وكأنه مجبر عليه:

-من الأفضل أن تحدثنا أنت وعلي؛ فأنتما الوحيدان اللذان ستتسرحان. أما أنا وجلال فباقيان إلى الأبد.

لقد أدرك عدنان في تلك اللحظة كم كان سلام مقرفاً وسخيفاً، وتمنى في الوقت نفسه لو أنّ فمه ينغلق إلى الأبد، وإلا فإنّه سيضطر في النهاية إلى قتله.

للحظة حدّق علي بعدنان وكأنه يسأله .من يبدأ منّا؟. بحلق عدنان بعلي أيضاً وفي رأسه السؤال ذاته، هكذا استمرا يحدقان أحدهما في الآخر، مثلما استمر الليل يكثف ظلامه فوقهم. وفي اللحظة التي أراد عدنان أن يفتح فمه بها فتح علي فمه:

-حسناً قد تسألني ما الذي سأفعله. سأقول باختصار. سأدرس في الجامعة . سأستأجر غرفة قريبة من الجامعة. سأفعل الكثير. سأقرأ. أسافر. سأحب من النساء الكثير. هل يكفي ذلك؟

وقبل أن يسمع جواباً من عدنان قال بانفعال ولكنه حزين:

-ولكن هل أنت متأكد بأنّنا سنبقى أحياء. أنا متأكد أنّنا سنموت. إن لم يكن اليوم فغداً أو بعد غد. سنموت لا محالة. سكت. وتابع:

fb/the.boooks

-من أين لك اليقين بأنّ لنا مستقبلاً. كيف تجرؤ على السؤال عن المستقبل. إنّ هذه الحرب ليست كباقي الحروب التي قرأنا عنها في كتبنا المدرسية. كم كنت واهماً بالتحاقي، لقد اعتقدت ببساطة ليس من الخطر الاشتراك في حرب. ثم ماذا. لأذهب وأرى ماذا يحدث هناك. والآن أعرف سخف توقعاتي.

ابتسم ثم قال بسخرية:

ــ إنّها حرب المصابين برؤوسهم. آه لو رأيت ذلك الرائد الذي كان مصاباً برأسه. لقد ذهب وذهبت معه حكمته. ولكني أحتفظ ببعض من قناعاته . حسناً المهم. ألا ترى معي هذا الجدار الهائل من الدمار أمامك، والذي يغلق أية إمكانية للسؤال عن المستقبل.

سكت علي ليحدّق في عدنان الذي عدّل من جلسته وأصبح بوضع يمكّنه تماماً من رؤية علي وهو يتكلم:

-قل أنت مثلاً ماذا ستفعل بعد الحرب، في الأصح أنا لا أطالبك بجواب. الأصح أن تسأل لماذا اشتركنا بها؟

فقاطعه عدنان:

-لقد ذكر ذلك عندما كنت نائماً .

فرذّ علي بصمت لم تبدُ به حياة:

-ألا تدري أنّ محنتنا الأساسية أنّنا جئنا إلى هذه الحرب وكل منّا يحمل عذره. لكنها بالتالي حرب مصنوعة منا جميعاً. تلك هي الكارثة.

فأجابه عدنان :

-ومتى اختار الانسان الحرب؟

سكت علي ولم يجب، سمّر عينيه هكذا وكأنه مصّر على سماع جملة ما من عدنان .

حاول عدنان أن يقول شيئاً، لكن ما أراد إخراجه من جوفه بقي مكانه. شعر عدنان بحرقة غير طبيعية تصعد إلى بلعومه. حرقة جعلته يقف الآن ويتجه إلى شجرة قريبة ليفرغ ما تجمع بجوفه بقوة. وبسرعة غريبة اندفع

fb/the.boooks

كل ما تجمع في معدته وكأنه يدفع وهماً استقر هناك. أخذ يتقيأ بصوت صاخب. اقترب سلام منه ومدّ يده ليربت على كتفه، فدفع عدنان يده عنه. ومع تقيؤه راح يدمدم مع نفسه بصوت لم يسمعه سوى علي الذي كان أكثر قرباً منه، والذي فتح أذنيه تماماً، لا سيّما بعد ابتعاد سلام عن عدنان:

-أما أنا فأعرف ما أفعله بعد تسريحي. سأقتل قاسم جبر. سأعمل على إسقاط السلطة. سأضاجع سنية. سأكتب عن نديم وما حصل في الناصرية. سأكتب عن الحرب.

بصق عدنان بقايا القيء. رجع إلى مكانه وسأل جلال:

-هلاّ قلت أين ستقودنا؟

ابتسم جلال وقال بحذر:

-صحيح أننا قد أضعنا الطريق في البداية. إلا أنّني قررت أن أقودكم إلى حي الطرب.

فتح عدنان فاه وصاح:

-أنت مجنون، جميل بحق، لماذا أخفيت عنّا هذا الخبر الجميل؟

فأردف علي:

-لقد تكهنت بذلك. كنت على ثقة من أنّ جلال يخفي مفاجأة.

ثم عقّب:

-أتمنى ألا نموت قبل أن نصل حي الطرب!

فقال جلال بمرح:

-لنشرب باقي العرق وبعدها نتجه إلى بيت الله.

لم يبقَ في القنينة سوى القليل. فوزعوه بينهم ودفعوا به إلى بلعومهم، باستثناء سلام الذي اعتذر عن شرب قدحه والذي وقف وهو يتحايل بعض الشيء وقال:

-زي الناس.

fb/the.boooks

وراح يبتعد عنهم حتى إنّ جلال قال ساخراً:

-هل تريد أن تتجه إلى الحدود لتخري هناك. لا تخاف لا أحد سيرى طيزك.

ثم قال بصوت واطئ:

-يستحي منكم لكن من عيري لا.

كان الليل قد بسط ظلمته الكثيفة فوقهم وبدا حالكاً بلون يفوق لون طائرة الميغ. في ذلك الوقت سمعوا صوت طائرات تأتي من البعيد. وقبل أن يسألوا عن هويتها، كانت الطائرات تحلق فوقهم. كانت ثلاث طائرات تطارد طائرة لم يستطيعوا تمييز لونها في ذلك الظلام، إذ لم يظهر سوى ضوئها الأحمر. لقد دارت الطائرة المُطاردة في مكانها، ودارت الطائرات الثلاث وراءها. وبسرعة البرق انبطحوا عندما رأوا كتلاً ضخمة تسقط من الطائرة المطاردة التي حلّقت بعلو منخفض، والتي يبدو أنّها أرادت أن تفرغ حمولتها ليصبح هروبها أسهل .لقد اتجهت تلك الكتل في المكان الواقع بينهم وبين سلام. وإذ اختفى صوت الطائرات سمعوا صرخة عالية ذابت وسط انفجار مدوٍ بقربهم. لقد حدث كل شيء بسرعة، أدارت رؤوسهم حتى أنّهم لم يلاحظوا اختفاء الطائرات التام. وعندما رفعوا عيونهم قليلاً وبحذر، لم ينتبهوا فيما إذا كانت أشلاء سلام قد تطايرت في الهواء أمامهم أم الشظايا. لقد ضاع كل شيء أمام وجوههم واختلط مع الدوي هناك، الذي خمد بشكل تدريجي. كان بإمكان أيديهم التي أخذت تتحسس إلى جانبها الشظايا التي استقرت حارّة في المكان. لم يرفعوا أجسادهم عن الأرض، إنما حدّق أحدهم بالآخر. كانوا كمن زُرع هناك. حاولوا الإصغاء إلى صوت ما .فلم تكن سوى أنفاسهم التي لهثت بعد انقطاع. عبثاً، لقد اختفى صوت سلام تماماً من دون حاجة عدنان إلى إسكاته بعد الآن. وفجأة حاول جلال النهوض من مكانه. أمسكه عدنان وعلي اللذان انبطحا حواليه:

-من الأفضل البقاء في مكانك فلن تجد غير الرماد.

سكت جلال، ثم وضع وجهه بين يديه وراح يبكي كطفل أضاع أمه:

-يا عيني يا سلام!

fb/the.boooks

للحظة هدأ جلال. مدّ يده إلى العرق الباقي هناك. لقد كان قدح سلام المتبقي. جلس على الأربع كأم تندب رضيعها. جرع باقي الكأس وقال:

-هكذا هو الموت. يأتي من دون أن يوقفه أحد. هل تعرفون كيف سنموت .

فجأة صرخ وقد اتجه وجهه إلى السماء

-حتى لو كنت موجوداً فأنا لا أحترمك.

وبسرعة نهض من مكانه واتجه إلى مقدمة السيارة ليسحب رشاشه، وراح يطلق بجنون باتجاه السماء. وهو يصيح:

-لو كنت رجلاً لقتلتك.

ثم سقط مع بندقيته على الأرض.

لقد بقي عدنان وعلي على وضعيهما منبطحين. حدّق أحدهما بالآخر. ولما استقر جلال في مكان قريب منهم على الأرض وهو يجهش بالبكاء، توقف عدنان عن ضحكة أراد إطلاقها بوجه علي .

fb/the.boooks

حي الطرب

اختفى القمر خلف سحابة رقيقة صعدت للتو من عمق الأفق. ألقت تلك السحابة ظلاً فضياً ممتزجاً مع عتمة كئيبة أفقدت السهل والشجيرات الممتدة فوقه ألقها، فيما بدت البيوت القليلة المنتشرة خلف تلك الشجيرات كقوارب صغيرة في بحر كبير. وقفت السيارة عند مدخل الحي. بدت البيوت وكأنها تسترخي في ذلك المرج الواسع، أو كأنها رسمت بطريقة نافرة هناك. هبّت ريح خفيفة. حام غراب فوق السيارة وصاحبها ليقترب معها من البيوت .

وقفوا ثلاثتهم عند مقدمة السيارة. لقد بدا لهم كما لو أنّ الحياة قد توقفت في الحي. لم يعلقوا بادئ الأمر. إنما شرعوا في التوغل في أزقة الحي .لمحوا رجلين كهلين، يجلسان عند أحد البيوت، واللذين انفضا عن بعضهما عندما رأوا الثلاثة في بذلاتهم العسكرية. ناداهما جلال بصوت عالٍ لا يخلو من المرح:

-لا تذهبا. نريد أن نفعل مثل الآخرين. هل فلوس الكويتيين أحسن.

ثم استدار إلى عدنان:

-حتى عند الكاولية ليس لـ .أبو خليل. حظ.

انتبه عدنان إلى أنّ جلال ينوي اللحاق بالرجلين؛ فقال له وهو يمسكه من كوعه:

-الأحسن أن ترى ما الذي يحصل في هذا الحي. فأنا أعتقد أنّ الأمر ليس كما كان في السابق.

فسأل علي:

-ماذا تعني؟

فأجابه عدنان على الفور:

-أنا أعرف الحي. ففي هذه الساعة يجب أن تصدح الموسيقى والطبل، بحيث يصل صوتهما إلى المشتل، على الأقل تقف واحدة من البنات عند أحد البيوت وفي يديها كاسيت وتقول دك وركص أو بدون كاسيت يعني هيص. هذه المرة الجو هادئ تماماً، وحدسي يقول لي. هناك أمر ما.

fb/the.boooks

فقال جلال بسخرية :

-ربما فتحوا جبهة هنا!

لم تكن الحياة قد توقفت تماماً في بيوت الحي. ففيها أكثر من ضوء . وعليهم الآن أن يطرقوا فقط بيتاً ما. لكنهم كانوا أشبه من خُدر، أو أشبه من غُلف بالفضول ليرى كيف سيؤول الأمر. ماذا يحدث؟ وهذا على الأقل بالنسبة لعدنان وجلال فهما يعرفان الحي من قبل. أما علي فهو يطأ هذا المكان للمرة الأولى. سرى فيه خوف مبهم. خوف أشبه بذلك الخوف الذي غزاه أول صعوده للسيارة. يعرف أنّه سيموت. لكنه يخاف هذه المرة من شيء آخر. ماذا تراه يفعل لو دخل إلى أحد البيوت. ما الذي سيقوله وهو الذي لم ينم مرة مع امرأة. سخر من نفسه وراح يقارن بين خوفه من أن يموت وخوفه من أن ينتهي إلى حضن غجرية أو عاهرة. راح يقلب الأمر، ليقول لنفسه: .ما معنى هذا الخوف. ستموت غداً أو اليوم أو بعد غد. في حي الطرب، في الزبير. البصرة، ستموت. إن لم تمت بقصف إيراني، فتحت رحمة مطاردي الهاربين.

شعر ببرد مألوف. اللعنة. كوّر نفسه. وبدا له حي الطرب كسجن دخله عنوة أو مستشفى يمكث فيه مجبراً. ولم تمنحه الأضواء التي لم يزدد خفقانها الآن فقط، إنما بدأت تنشر ظلالاً ومربعات من الضوء في الزقاق الذي دخلوه للتو، والذي انطلقت منه موسيقى عود هادئة، جعلته يقف في مكانه مثلما وقف الآخرون، وجعلته يهتف مثلما يهتف التائه في الصحراء لزملائه معلناً عن اكتشاف الماء. صاح من مكانه:

-موسيقى.

اتجهوا دفعة واحدة إلى الدار التي انبعثت منها تلك الموسيقى. دفعوا الباب بهدوء. قطعوا باحة الدار التي امتلأت الآن لا بضوء الشموع المنبعث من الغرفتين المجاورتين وحسب، إنما بضياء القمر الذي بدا وكأنه يتكئ على حافة الأفق.

نادى عدنان:

-هل من أحد هنا؟

توقفت الموسيقى. وبعد لحظات خرجت فتاة إليهم. وقفت بجذعها الجميل عند عتبة الباب. وكما تنشر سدرة النبق ظلالها على الأرض المشمسة،

fb/the.boooks

نشرت الفتاة ظلها على مقدمة الباب. بان وجهها المستدير الأبيض متألقاً. وقفت عند العتبة وكأنها تود استفزازهم بقامتها الطويلة وشعرها الأسود الذي نزل على كتفيها فوق الثوب الحريري البرّاق كشباك صيّاد. انفتحت عيناها السوداوان باتساعهما، فيما انفتحت شفتاها العريضتان بخطوطهما المستقيمة؛ لتقذف بالسؤال كما يقذف القمر سهامه البيضاء على صفحة السماء.

-أهلاً وسهلاً. هل تأمرون بشيء؟

وقفوا منذهلين ولم يراود أحدهم أي جواب. ولم تتركهم هي في انذهالهم طويلاً. ضحكت كساخرة وحرّكت خصرها بمجون متعمد. وضعت يدها فوق خصرها بزاوية .45مطّت شفتيها ثم دفعت بيدها الأخرى شعرها لتكومه كله في الجهة اليسرى من كتفها وفتحت فمها الصغير :

-ادخلوا.

حدّق أحدهم بالآخر وزحفوا خلفها إلى داخل الغرفة. في الغرفة ثمة عازف عود لم ينظر إلى وجوههم. كان منشغلاً في شدّ أوتار آلته. فيما جلست حوله ثلاث نساء ورجلان.

استطاع عدنان تمييز ملامح العازف التي لا تمت إلى ملامح الغجر بصلة .جلس الثلاثة واحتضنوا أسلحتهم التي كانت طوال الوقت معلقة فوق أكتافهم. ما أثار استغرابهم هو أنّ وجوههم لم تثر أي اضطراب بين الجالسين وكأنهم قد ألفوا المشهد .

توقف عازف العود عن عمله. نظر إلى وجوههم التي ظهر عليها التعب، فيما نمت لحاهم ناشزة وقبيحة. تكلم صاحب العود بلهجة جنوبية:

-أهلاً بأبو خليل. ألا تريدون أن تستحموا وتحلقوا لحاكم؟

وقبل أن يردّوا هتف:

-نعيمة، أعدي ماءً حاراً.

نهضت الفتاة ذاتها التي وقفت قبل قليل عند الباب. اتجهت إلى غرفة أخرى .

وبعد برهة سأل العازف:

fb/the.boooks

-هل لديكم سيارة؟.

وعندما هزّوا رؤوسهم بالإيجاب. قال:

-حسناً أدخلوها إلى الكراج.

وقف جلال بقامته الطويلة. وقد أشرق وجهه بفرح خفي، فسأله علي فيما إذا كان سيأتي بحقيبته التي وضعها خلف السيارة، فأجابه بالإيجاب.

راح الشاب يداعب أوتار عوده بين لحظة وأخرى أثناء حديثه معهما، فيما تابعت عيناه عدنان الذي انشغل بالنظر إلى إحدى النساء الجالسات هناك. كانت في أواخر الثلاثينات من عمرها. جسمها مكتنز. نشرت شعرها فوق الكتفين فيما بدا وجهها شهوانياً حاداً. بدا جسدها لعدنان ذا تماسك، وتراءت لعينيه عارية في جلستها، فتخيل فرجها يستقر بانشطاره فوق البساط. شعر بحرارة تصعد إلى صدغيه. التهب وجهه. أثار اضطرابه عازف العود الذي مسّه بخفة وهمس وهو يقترب منه:

-حاول أن تنام معها. أكيد ستقبل. هل معك فلوس؟

لم يفهم عدنان أول الأمر فأوضح له الآخر:

-لقد كانت أغلاهنّ هنا. ولكن منذ انحسار العربان بعد الحرب قلّ سعرها. أنت تعرف سوق الدعارة لا يختلف عن الأسواق الأخرى. عرض وطلب.

حدّق عدنان بعازف العود بإمعان:

-إنّك لست غجرياً. إذاً صدق حدسي. إنّ لغتك لغة أخرى.

فأجابه:

-دعنا من الأمر. سنتكلم غداً. ولكن من الأفضل أن نتعارف. اسمي عبد الحسن بدر.

وهو الذي لم ينم مرة مع امرأة. سخر من نفسه وراح يقارن بين خوفه من أن يموت وخوفه من أن ينتهي إلى حضن غجرية أو عاهرة. راح يقلب الأمر، ليقول لنفسه: .ما معنى هذا الخوف. ستموت غداً أو اليوم أو بعد غد. في حي الطرب، في الزبير. البصرة، ستموت. إن لم تمت بقصف إيراني، فتحت رحمة مطاردي الهاربين.

fb/the.boooks

شعر ببرد مألوف. اللعنة. كوّر نفسه. وبدا له حي الطرب كسجن دخله عنوة أو مستشفى يمكث فيه مجبراً. ولم تمنحه الأضواء التي لم يزدد خفقانها الآن فقط، إنما بدأت تنشر ظلالاً ومربعات من الضوء في الزقاق الذي دخلوه للتو، والذي انطلقت منه موسيقى عود هادئة، جعلته يقف في مكانه مثلما وقف الآخرون، وجعلته يهتف مثلما يهتف التائه في الصحراء لزملائه معلناً عن اكتشاف الماء. صاح من مكانه:

-موسيقى.

اتجهوا دفعة واحدة إلى الدار التي انبعثت منها تلك الموسيقى. دفعوا الباب بهدوء. قطعوا باحة الدار التي امتلأت الآن لا بضوء الشموع المنبعث من الغرفتين المجاورتين وحسب، إنما بضياء القمر الذي بدا وكأنه يتكئ على حافة الأفق.

نادى عدنان:

-هل من أحد هنا؟

توقفت الموسيقى. وبعد لحظات خرجت فتاة إليهم. وقفت بجذعها الجميل عند عتبة الباب. وكما تنشر سدرة النبق ظلالها على الأرض المشمسة، نشرت الفتاة ظلها على مقدمة الباب. بان وجهها المستدير الأبيض متألقاً. وقفت عند العتبة وكأنها تود استفزازهم بقامتها الطويلة وشعرها الأسود الذي نزل على كتفيها فوق الثوب الحريري البرّاق كشباك صيّاد. انفتحت عيناها السوداوان باتساعهما، فيما انفتحت شفتاها العريضتان بخطوطهما المستقيمة؛ لتقذف بالسؤال كما يقذف القمر سهامه البيضاء على صفحة السماء.

-أهلاً وسهلاً. هل تأمرون بشيء؟

وقفوا منذهلين ولم يراود أحدهم أي جواب. ولم تتركهم هي في انذهالهم طويلاً. ضحكت كساخرة وحرّكت خصرها بمجون متعمد. وضعت يدها فوق خصرها بزاوية 45٠مطّت شفتيها ثم دفعت بيدها الأخرى شعرها لتكومه كله في الجهة اليسرى من كتفها وفتحت فمها الصغير :

-ادخلوا.

fb/the.boooks

حدّق أحدهم بالآخر وزحفوا خلفها إلى داخل الغرفة. في الغرفة ثمة عازف عود لم ينظر إلى وجوههم. كان منشغلاً في شّد أوتار آلته. فيما جلست حوله ثلاث نساء ورجلان.

استطاع عدنان تمييز ملامح العازف التي لا تمت إلى ملامح الغجر بصلة .جلس الثلاثة واحتضنوا أسلحتهم التي كانت طوال الوقت معلقة فوق أكتافهم. ما أثار استغرابهم هو أنّ وجوههم لم تثر أي اضطراب بين الجالسين وكأنهم قد ألفوا المشهد .

توقف عازف العود عن عمله. نظر إلى وجوههم التي ظهر عليها التعب، فيما نمت لحاهم ناشزة وقبيحة. تكلم صاحب العود بلهجة جنوبية:

-أهلاً بأبو خليل. ألا تريدون أن تستحموا وتحلقوا لحاكم؟

وقبل أن يردّوا هتف:

-نعيمة، أعدي ماءً حاراً.

نهضت الفتاة ذاتها التي وقفت قبل قليل عند الباب. اتجهت إلى غرفة أخرى .

وبعد برهة سأل العازف:

-هل لديكم سيارة؟.

وعندما هزّوا رؤوسهم بالإيجاب. قال:

-حسناً أدخلوها إلى الكراج.

وقف جلال بقامته الطويلة. وقد أشرق وجهه بفرح خفي، فسأله علي فيما إذا كان سيأتي بحقيبته التي وضعها خلف السيارة، فأجابه بالإيجاب.

راح الشاب يداعب أوتار عوده بين لحظة وأخرى أثناء حديثه معهما، فيما تابعت عيناه عدنان الذي انشغل بالنظر إلى إحدى النساء الجالسات هناك. كانت في أواخر الثلاثينات من عمرها. جسمها مكتنز. نشرت شعرها فوق الكتفين فيما بدا وجهها شهوانياً حاداً. بدا جسدها لعدنان ذا تماسك، وتراءت لعينيه عارية في جلستها، فتخيل فرجها يستقر بانشطاره فوق

fb/the.boooks

البساط· شعر بحرارة تصعد إلى صدغيه· التهب وجهه· أثار اضطرابه عازف العود الذي مسّه بخفة وهمس وهو يقترب منه:

-حاول أن تنام معها· أكيد ستقبل· هل معك فلوس؟

لم يفهم عدنان أول الأمر فأوضح له الآخر:

-لقد كانت أغلاهنّ هنا· ولكن منذ انحسار العربان بعد الحرب قلّ سعرها· أنت تعرف سوق الدعارة لا يختلف عن الأسواق الأخرى· عرض وطلب·

حدّق عدنان بعازف العود بإمعان:

-إنّك لست غجرياً· إذاً صدق حدسي· إنّ لغتك لغة أخرى·

فأجابه:

-دعنا من الأمر· سنتكلم غداً· ولكن من الأفضل أن نتعارف· اسمي عبد الحسن بدر·

فأجابه عدنان:

-اسمي عدنان·

ثم أشار باتجاه علي:

-اسمه علي· والسائق اسمه جلال·

توقف عدنان عن إلقاء جملة تردد بها كثيراً· وعندما صمتوا لاحظ عدنان أنّ من الضروري الإفصاح:

-اطمئن لسنا من الحزب·

ضحك عبد الحسن وظهر صوته من خلال أسنانه البيضاء:

-لقد خمّنت ذلك· هل تعتقد أنّكم أول جنود يأتون هنا· أستطيع تمييز رجالهم· فزائداً ملامحهم الفظة بدلاتهم، فهم يأتون بزيهم المعروف· وأقول لك أستطيع تمييزهم بالشم·

صمتوا· قال علي:

fb/the.boooks

-هل يأتون غالباً ؟

فأجاب عبد الحسن:

-بين الوقت والآخر. يستفزون الناس هنا. ثم إنّ لهم جواسيسهم من المصريين في الحي.

من مكانهم أصغوا إلى صوت محرك السيارة عند الباب. ثم تصاعده وانخفاضه. لتهدأ أنفاسه بعد لحظات تماماً. ثم سمعوا صوت إنزال باب.

دخل جلال. رمى بالحقيبة باتجاه علي. وقال:

-الكراج ضيق. ولكن حشرت السيارة فيه.

فأجابه عبد الحسن:

-لقد صنع خصيصاً لسيارات الخصوصي الكويتية.

جلس جلال. كان قلقاً بادئ الأمر. ومما زاد قلقه سماع عدنان وهو يتحدث مع عبد الحسن:

-إذا جاء أحد رجال السلطة فأرجو ألا يجد السيارة.

فطمأنه عبد الحسن:

-كلا. إنّ الكراج سري وخاص.

أجال جلال النظر بين عبد الحسن وعدنان. وقد ارتسمت الدهشة في عينيه. سأل بفضول:

-هل تعارفتم اشرحوا لي الأمر.

فأجابه عدنان:

-أقدم لك الأخ عبد الحسن بدر.

ثم إلى عبد الحسن:

-الأخ سائق المدرعة بوتمكين.

fb/the.boooks

ضحك عبد الحسن وقال:

-أخ بوتمكين· ايه كان زمان·

سكت علي وجلال عند هذه الجملة؛ إذ لم يفهما ما تعني بوتمكين·

فيما فرح عبد الحسن وعدنان بتعارفهما حتى أخذا يضحكان بصوت عالٍ، لم يخطر ببال أي منهما أن يلتقي بشخص قريب إليه ولا سيّما في مثل هذه المحنة ·وهذه الكلمة التي صدرت عفوية وصدفة من فم عدنان .بوتمكين. كانت كذلك الذي يقترب من غريق ويقول له .خذ يدي. وفي تلك اللحظة عشقا كلمة بوتمكين التي عبرت بينهما ككلمة السر· يعرفان أنّ الذين شاهدوا هذا الفلم هم جمهور معروف وواحد· وإلى هذا الجمهور ينتمي الاثنان· ومع نفسه همس عدنان .أعرف أنّ حياتي هي مجموعة من المصادفات· لقد شكلتني كما شكلتني ضرورة أن أعيش. أليس صدفة جميلة أن يلتقي بأحدهم في هذا المكان وفي هذا الوقت يقاسمه أفكاره ·ولم يمنحه عبد الحسن الوقت الكثير للتأمل إنما قال له:

-لقد مرّ الكثيرون من هنا· أقصد الكثيرين الذين ركبوا مدرعة بوتمكين·

وقبل أن يسرح عدنان في خواطر أخرى، طالبهما جلال أن يشرحا هذه المرة معنى هذه الـ .بوتمكين. عبثاً فعل فقد سرح الاثنان هذه المرة، ولا سيّما عدنان الذي نسي كل شيء في تلك الساعة، حتى إنّه لم يعد يحدّق بالمرأة التي التهمها بنظراته أول الأمر، والتي اقتربت لتجلس إلى جانبه وتوقظه من سرحانه، وقد قربت شفتين حارتين من أذنه وهمست:

-الماء حار· أقدر أن أغسل ظهرك·

لقد صحا عدنان فعلاً من خواطره· فنهض من مكانه دون أن يعترض وقال لها :

-أريدك أن تزيلي كل أوساخ ظهري·

عندما دخلا الغرفة كانت هي قد انتهت من إشعال المصباح النفطي هناك · كانت غرفة عريضة لم ينتصب بها سوى منضدة خشبية استقر فوقها المصباح، وفي وسط الغرفة قبع طشت الاستحمام· هدر بجانبه صوت الطباخ النفطي الذي وُضعت قدر الماء فوقه·

fb/the.boooks

وقـف الاثنـان وسـط الغرفـة. تـردد عـدنان فـي نـزع ملابسـه أول الأمـر فسألته :

-ألا تريد أن تغتسل؟

تلعثم في إجابته:

-بلى. ما هو اسمك؟

فأجابت:

-رضية.

أخذ عدنان ينضو ثيابه. سألها:

-كم يعطيك العربان.

fb/the.boooks

دخل جلال· رمى بالحقيبة باتجاه علي· وقال:

-الكراج ضيق· ولكن حشرت السيارة فيه·

فأجابه عبد الحسن:

-لقد صنع خصيصاً لسيارات الخصوصي الكويتية·

جلس جلال· كان قلقاً بادئ الأمر· ومما زاد قلقه سماع عدنان وهو يتحدث مع عبد الحسن:

-إذا جاء أحد رجال السلطة فأرجو ألا يجد السيارة·

فطمأنه عبد الحسن:

-كلا· إنّ الكراج سري وخاص·

أجال جلال النظر بين عبد الحسن وعدنان· وقد ارتسمت الدهشة في عينيه· سأل بفضول:

-هل تعارفتم اشرحوا لي الأمر·

فأجابه عدنان:

-أقدم لك الأخ عبد الحسن بدر·

ثم إلى عبد الحسن:

-الأخ سائق المدرعة بوتمكين·

ضحك عبد الحسن وقال:

-أخ بوتمكين· ايه كان زمان·

سكت علي وجلال عند هذه الجملة؛ إذ لم يفهما ما تعني بوتمكين·

فيما فرح عبد الحسن وعدنان بتعارفهما حتى أخذا يضحكان بصوت عالٍ، لم يخطر ببال أي منهما أن يلتقي بشخص قريب إليه ولا سيّما في مثل هذه المحنة ·وهذه الكلمة التي صدرت عفوية وصدفة من فم عدنان .بوتمكين. كانت كذلك الذي يقترب من غريق ويقول له .خذ يدي. وفي تلك اللحظة

fb/the.boooks

عشقا كلمة بوتمكين التي عبرت بينهما ككلمة السر. يعرفان أنّ الذين شاهدوا هذا الفلم هم جمهور معروف وواحد. وإلى هذا الجمهور ينتمي الاثنان. ومع نفسه همس عدنان .أعرف أنّ حياتي هي مجموعة من المصادفات. لقد شكلتني كما شكلتني ضرورة أن أعيش. أليس صدفة جميلة أن يلتقي بأحدهم في هذا المكان وفي هذا الوقت يقاسمه أفكاره .ولم يمنحه عبد الحسن الوقت الكثير للتأمل إنما قال له:

-لقد مرّ الكثيرون من هنا. أقصد الكثيرين الذين ركبوا مدرعة بوتمكين.

وقبل أن يسرح عدنان في خواطر أخرى، طالبهما جلال أن يشرحا هذه المرة معنى هذه الـ .بوتمكين. عبثاً فعل فقد سرح الاثنان هذه المرة، ولا سيّما عدنان الذي نسي كل شيء في تلك الساعة، حتى إنّه لم يعد يحدّق بالمرأة التي التهمها بنظراته أول الأمر، والتي اقتربت لتجلس إلى جانبه وتوقظه من سرحانه، وقد قربت شفتين حارتين من أذنه وهمست:

-الماء حار. أقدر أن أغسل ظهرك.

لقد صحا عدنان فعلاً من خواطره. فنهض من مكانه دون أن يعترض وقال لها :

-أريدك أن تزيلي كل أوساخ ظهري.

عندما دخلا الغرفة كانت هي قد انتهت من إشعال المصباح النفطي هناك . كانت غرفة عريضة لم ينتصب بها سوى منضدة خشبية استقر فوقها المصباح، وفي وسط الغرفة قبع طشت الاستحمام. هدر بجانبه صوت الطباخ النفطي الذي وُضعت قدر الماء فوقه.

وقف الاثنان وسط الغرفة. تردد عدنان في نزع ملابسه أول الأمر فسألته :

-ألا تريد أن تغتسل؟

تلعثم في إجابته:

-بلى. ما هو اسمك؟

فأجابت:

fb/the.boooks

-رضية.

أخذ عدنان ينضو ثيابه. سألها:

-كم يعطيك العربان.

ضحكت بغنج قالت متحدية:

-هل تستطيع أن تدفع ثمنهم؟

ضحك وقال بسخرية لم تفهمها رضية:

-إنّه المبدأ ذاته.

فسألته:

-ماذا تعني؟

سكت. ضحكت. دغدغها عدنان فضحكت أكثر. سألها:

-كم تريدين؟

انحنى بجذعه على قميصه الذي نزعته للتو. دفع يده في داخله وأخرج ورقة ذات العشرة دنانير. أخذتها وقالت:

-مع ذلك سأرجع لك النصف؛ لأن عبد الحسن أوصى بك.

فقال لها:

-وما قيمة عبد الحسن عندك؟

فأجابت بزهو:

-عبد الحسن بشر. ويكفي هذا.

اتجه عدنان إلى الطشت. جلس في داخله. اتجهت هي إلى الطباخ. أخذت قدر الماء الحار لتسكبه في قدر من الماء البارد استقر بجانب الطشت. سألته:

-ضع يدك في الماء وقل لي، إذا كانت حرارته تكفي .

fb/the.boooks

وضع عدنان يده بآلية هناك وكأن الماء ليس له فأجاب:

-يكفي.

وراحت تسكب بإحدى يديها الماء فوق جسمه وفي اليد الأخرى تمرر الصابونة عليه. خدّرته تلك اليد التي شرعت تتحرك فوق جسده بحرية تثير فيه كل ما نام في مسامات جلده. لقد فعل ذلك مرة مع سنية. يذكر كم كان جميلاً عندما غسلت له ظهره. ولكنها كانت خجلة بعض الشيء. لقد أغمض عينيه آنذاك مثلما أغمضهما الآن. فقد كان يقاوم آنذاك موجة الشهوة التي اصطخبت داخله. ففي ذلك الوقت لم يبُح أحدهما بمشاعره للآخر. لقد كان يشعر بأناملها التي امتلأت شهوة. كم كانت حارّة وصادقة تلك الأصابع.

نهض عدنان عندما أدرك أنّها تصب عليه القطرات الأخيرة. وقف أمامها بعريه وقد انتصب عضوه وتصلب كعصا. سألها:

-أين الفراش؟

فقالت له:

-سأعدّه.

ظلّ عدنان محافظاً على وقفته. سحب منشفة موضوعة فوق المنضدة، وراح ينشف جسده بها وقال:

-والآن يا رضية.

راحت رضية تجفف عضوه بطرف المنشفة. فازداد تصلباً فيما برز الشريان الذي به نافراً بشكل حاد. أزاح عدنان يدها جانباً. رفعها عن مكانها. مدّ يده ليخلع ملابسها فأوقفته قائلة:

-لا داعي.

توقفت يداه. أدارها له. انحنت بجذعها أمامه. رفع ثوبها من الخلف. لم تكن ترتدي لباساً داخلياً. مدّ يده إلى عجيزتها. تأمل في الوقت ذاته فرجها الذي انفتح بشفتيه خلف غابة الشعر الأسود هناك. أراد عدنان أن يضحك لذلك الصوت. لكن الشهوة كانت قد أغلقت فمه تماماً. ومنذ تلك اللحظة. نام كل شيء في رأسه. نام كل ما هو خارج هذه الغرفة. الحرب.

fb/the.boooks

الأصدقاء. المعارف. أمر واحد كان يقظاً في ذهنه، هو هذا اللحم الأسمر المكتنز الذي يتحرك أمامه باندفاعات متموجة وجميلة. حتى إنّه نسي أن يحرك عضوه فصاحت به بشهوة.

-حركه.

ولكنه كان قد قذف هذه المرة وبهدوء.

تحركت رضية من مكانها. وانحنت وسط الطشت لتغسل فرجها ثم سحبته إليها وأخذت تغسل عضوه أيضاً. ابتسم عدنان لها وحاول أن يظهر وجهاً متحمساً رغم أنّ التعب قد بدا غالباً عليه. فقالت له بهدوء:

-من الأحسن أن تنام. لقد أعددنا لك فراشاً.

فسألها وهو يلبس ملابسه:

-ألا تأتين معي إلى الفراش.

ضحكت بمجون وقالت:

-وهل تقدر أن تنام معي مرة أخرى.

هزّ رأسه بشك. وهو يدري أنّه كان يمزح معها. فلقد كان يود من صميم أعماقه أن ينام لوحده. النوم فوق فراش كم أفتقد ذلك؟

تحرك عدنان من مكانه واتجه إلى الغرفة التي يجلس فيها الآخرون. قطع الممر الصغير الذي يفصل الغرفتين. وعندما ظهر كان لا يزال يجفف خصلات شعره.

هتف عبد الحسن إلى عدنان:

-نعيماً. يبدو أنّه كان حمّاماً غير عادي.

ضحك عدنان. سحب سيجارة من علبة استقرت فوق الأرض. جلس بجانب عبد الحسن. انتبه إلى غياب جلال فسأل:

-أين جلال؟

فأوضح له علي:

fb/the.boooks

-ذهب لينام.

-هل تستطيع أن تدفع ثمنهم؟

ضحك وقال بسخرية لم تفهمها رضية:

-إنّه المبدأ ذاته.

فسألته:

-ماذا تعني؟

سكت. ضحكت. دغدغها عدنان فضحكت أكثر. سألها:

-كم تريدين؟

انحنى بجذعه على قميصه الذي نزعته للتو. دفع يده في داخله وأخرج ورقة ذات العشرة دنانير. أخذتها وقالت:

-مع ذلك سأرجع لك النصف؛ لأن عبد الحسن أوصى بك.

فقال لها:

-وما قيمة عبد الحسن عندك؟

فأجابت بزهو:

-عبد الحسن بشر. ويكفي هذا.

اتجه عدنان إلى الطشت. جلس في داخله. اتجهت هي إلى الطباخ. أخذت قدر الماء الحار لتسكبه في قدر من الماء البارد استقر بجانب الطشت. سألته:

-ضع يدك في الماء وقل لي، إذا كانت حرارته تكفي .

وضع عدنان يده بآلية هناك وكأن الماء ليس له فأجاب:

-يكفي.

fb/the.boooks

وراحت تسكب بإحدى يديها الماء فوق جسمه وفي اليد الأخرى تمرر الصابونة عليه. خدّرته تلك اليد التي شرعت تتحرك فوق جسده بحرية تثير فيه كل ما نام في مسامات جلده. لقد فعل ذلك مرة مع سنية. يذكر كم كان جميلاً عندما غسلت له ظهره. ولكنها كانت خجلة بعض الشيء. لقد أغمض عينيه آنذاك مثلما أغمضهما الآن. فقد كان يقاوم آنذاك موجة الشهوة التي اصطخبت داخله. ففي ذلك الوقت لم يبُح أحدهما بمشاعره للآخر. لقد كان يشعر بأناملها التي امتلأت شهوة. كم كانت حارّة وصادقة تلك الأصابع.

نهض عدنان عندما أدرك أنّها تصب عليه القطرات الأخيرة. وقف أمامها بعريه وقد انتصب عضوه وتصلب كعصا. سألها:

-أين الفراش؟

فقالت له:

-سأعدّه.

ظلّ عدنان محافظاً على وقفته. سحب منشفة موضوعة فوق المنضدة، وراح ينشف جسده بها وقال:

-والآن يا رضية.

راحت رضية تجفف عضوه بطرف المنشفة. فازداد تصلباً فيما برز الشريان الذي به نافراً بشكل حاد. أزاح عدنان يدها جانباً. رفعها عن مكانها. مدّ يده ليخلع ملابسها فأوقفته قائلة:

-لا داعي.

توقفت يداه. أدارها له. انحنت بجذعها أمامه. رفع ثوبها من الخلف. لم تكن ترتدي لباساً داخلياً. مدّ يده إلى عجيزتها. تأمل في الوقت ذاته فرجها الذي انفتح بشفتيه خلف غابة الشعر الأسود هناك. أراد عدنان أن يضحك لذلك الصوت. لكن الشهوة كانت قد أغلقت فمه تماماً. ومنذ تلك اللحظة. نام كل شيء في رأسه. نام كل ما هو خارج هذه الغرفة. الحرب. الأصدقاء. المعارف. أمر واحد كان يقظاً في ذهنه، هو هذا اللحم الأسمر المكتنز الذي يتحرك أمامه باندفاعات متموجة وجميلة. حتى إنّه نسي أن يحرك عضوه فصاحت به بشهوة.

fb/the.boooks

-حركه.

ولكنه كان قد قذف هذه المرة وبهدوء.

تحركت رضية من مكانها. وانحنت وسط الطشت لتغسل فرجها ثم سحبته إليها وأخذت تغسل عضوه أيضاً. ابتسم عدنان لها وحاول أن يظهر وجهاً متحمساً رغم أنّ التعب قد بدا غالباً عليه. فقالت له بهدوء:

-من الأحسن أن تنام. لقد أعددنا لك فراشاً.

فسألها وهو يلبس ملابسه:

-ألا تأتين معي إلى الفراش.

ضحكت بمجون وقالت:

-وهل تقدر أن تنام معي مرة أخرى.

هزّ رأسه بشك. وهو يدري أنّه كان يمزح معها. فلقد كان يود من صميم أعماقه أن ينام لوحده. النوم فوق فراش كم أفتقد ذلك؟

تحرك عدنان من مكانه واتجه إلى الغرفة التي يجلس فيها الآخرون. قطع الممر الصغير الذي يفصل الغرفتين. وعندما ظهر كان لا يزال يجفف خصلات شعره.

هتف عبد الحسن إلى عدنان:

-نعيماً. يبدو أنّه كان حمّاماً غير عادي.

ضحك عدنان. سحب سيجارة من علبة استقرت فوق الأرض. جلس بجانب عبد الحسن. انتبه إلى غياب جلال فسأل:

-أين جلال؟

فأوضح له علي:

-ذهب لينام.

ثم همس في أذن عدنان بمرح:

fb/the.boooks

-يبدو أنّه خجل من أن يسأل عبد الحسن. لقد اعتقد أنّه لا يمكن النوم مع إحداهن طالما عبد الحسن هنا.

ابتسم عدنان. ولم يجد الأمر غريباً من جلال.

صمتوا وقتاً غير قصير، وأمام وجوههم تناثر دخان سيجارة عدنان كثيفاً، متشابكاً وكأنّ أفكارهم تشابكت الآن. ومثلما يصعد الدخان في حلقات غير متناهية، حدّق علي وعدنان ببعضهما وكأنهما يتساءلان عن نهاية هذه الرحلة التي ستكون أخطر من رحلات السندباد جميعاً.

خاطب عبد الحسن عدنان وهو يؤشر باتجاه علي:

-يبدو أنّ صاحبك لا يحب الكلام. فهو لم يبح إلا بالقليل أثناء غيابك.

ثم وجّه كلامه إلى علي:

-أعتقد من الأفضل أن تغتسل يا علي وغداً سنتحدث في أمور كثيرة.

أبعد عبد الحسن العود عن حضنه. وهتف:

-سليمة.

ومن زاوية الغرفة نهضت فتاة تشبه نعيمة في وجهها إلا أنّها ربطت شعرها على شكل جديلة.

وقفت لتسمع عبد الحسن الذي قال لها:

-خذي علي إلى غرفتك. فقد آن له أن يستحم.

وعندما انتهى من ذلك قال لعدنان:

-دعنا نذهب إلى الفراش.

نهض الاثنان وهتفا لعلي:

-نتمنى لك ليلة سعيدة.

تبع عدنان عبد الحسن ثم اختفيا في الممر المؤدي إلى الغرفة المجاورة.

اقتربت سليمة من علي وقالت له بصوت رقيق:

fb/the.boooks

-هل تأتي معي؟

نهض علي بعد تردد قصير. عاينها. لقد رآها منذ دخوله الغرفة. وقد أعجبه شكلها، لكنه لم يجرؤ على أن يحملق فيها. زحفت أمامه فسار خلفها حتى وصلا إلى غرفة خلف الكراج الذي قبعت به السيارة. دخلا الغرفة. وهناك تناهى إليه صوت الطباخ الغازي وغليان الماء. وفي وسط الغرفة انتصب الطشت. سألته سليمة:

-ألا تخلع ملابسك؟ احمّر وجهه وقال:

-هل تبقين هنا!

ضحكت بمجون وقالت:

-أنت تستحي؟

اتجهت حيث سريرها في زاوية الغرفة. سحبت شرشفين وراحت تعلقهما على حبل الغسيل المربوط وسط الغرفة. وهتفت من خلف الحاجز:

-اسبح الآن. سأفتح المسجل!

اتجهت إلى مسجلها الذي وضعته على منضدة إلى جانب فراشها. بحثت بين الأشرطة. ثم اختارت أحدها لعبد الحليم حافظ. وضعته في الجهاز وضغطت على زر التشغيل. عدّلت من وضع الشراشف فوق فراشها. ثم بحثت في جرارات دولاب الملابس القديم عن أعواد البخور التي وجدت بعضها. ثبّتتها في الحائط وأشعلتها. استلقت فوق الفراش. ومع رائحة البخور انبعث صوت عبد الحليم حافظ.

نشرت أعواد البخور رائحتها ودخانها في الغرفة. صفّرت سليمة مع الأغنية ووجّهت بصرها إلى الحاجز. فرأت خيال علي العاري وهو يتجه إلى الطشت، والذي بدأ يسكب الماء فوق جسمه. سألته:

-هل أغسل ظهرك؟

فأجاب:

-لا. شكراً.

fb/the.boooks

هـزّت رأسـها بتعجـب وفكـرت كـم هـو خجـول هـذا الرجـل. وكفّـت بعـد ذلـك عن سؤاله عندما لم يجبها عن ما قالته له:

-أول مرة تنزع ملابسك بحضرة بنت؟

لـم يجبهـا فقد غلّفـه المـاء الـدافئ بطمأنينـة لـم يعشـها منـذ وقـت طويـل. فـي تلـك اللحظـة شـعر بـدفء المـاء يـدخل مسـامات جلـده. ينتشـر فـي الأوردة والشرايين .ومع كل قطرة ماء تدخل هناك، يفكر ــ بل يود من كل أعماقه ــ أن يبقى ذلك الشعور أبدياً.

كـان مـن الصـعب عليـه أن يتخيـل الأمـر مجـرد لحظـة عـابرة. حـدث سـينتهي غـداً أو بعـد غـد. إنّـه لا يريـد عـيش هـذا الهـاجس. ومـع انـدلاق كـل قطـرة، يمسد جسده بأصابعه وكأنه يود التأكد من وجوده، يلمس جلده لا لأنّه ناعم وطـري ونظيـف الآن، إنّمـا لأنّـه يريـد التيقن مـن أنّـه حـي. لا طلقـة. لا شـظية لحـد الآن. لا يريـد أن يمـوت ولا يريـد تصـديق أنّـه سـيموت الليلـة أو غـداً أو بعـد غـد. تملكتـه تلـك الفكـرة، وأصـبح كـل شـيء بعيـداً عنـه، أصـبح صـوت عبـد الحلـيم وصـوت سـليمة بعيـدين مثـل صـوت أمـه وأختـه ريمـا. كـل شـيء يبتعـد عنـه. ولكنهـا وحـدها التـي لا تبتعـد تلـك الفكـرة اللعينـة، بأنّـه سـيموت. سـيموت لا محالـة. ومـع سـكبه لقطـرات المـاء فـوق جسـده فإنّـه لا يـزيح القـذارات التـي علقـت هنـاك، إنّمـا كـان يفعـل ذلـك وكأنـه يـود إزاحـة فكـرة أنـه سـيموت. لقـد كـان مغلفـاً بـالموت مثلمـا أحاطتـه الأوسـاخ قبـل الآن. وكلمـا اقتربـت تلـك الفكـرة مـن دماغـه ازداد إيقـاع سـكبه للمـاء. وبعـد برهـة هـدأ؛ إذ لم يبق بعدها ماء في القدر فهتف من مكانه:

-ادفعي لي حقيبتي رجاء من خلف الشرشف .

نهضت سليمة من فراشها وقالت له:

-لا توجد أي حقيبة هنا.

فأردف:

-صحيح لقد نسيتها في الغرفة.

اختفـت سـليمة لترجـع بسـرعة وفـي يـدها الحقيبـة. ناولتـه إيّاهـا. فـتح علـي الحقيبـة. أخـرج منشـفته. راح يجفـف نفسـه. علّـق المنشـفة فـوق الحبـل وأخـرج لباساً داخلياً جديداً ودشداشة. لبسهما. أزاح الشرشف كمن يزيح ستارة.

fb/the.boooks

قالت له سليمة:

-استلقِ في الفراش... سألقي الماء في الشارع.

واختفت مرة أخرى لدقائق. دخل علي إلى الفراش. أخذت عيناه تحدّقان بالسقف. سمع صوت طرطشة الماء في الشارع. رغم انغلاق الباب الخارجي. ثم خطوات سليمة التي اقتربت، والتي راحت تسارع في اقترابها مثل دقّات قلبه التي لا يستطيع التحكم بها الآن، والتي راحت تبالغ في ضرباتها عندما دخلت سليمة الغرفة. وقد تركت الطشت في باحة الدار.

ابتسم عدنان. ولم يجد الأمر غريباً من جلال.

صمتوا وقتاً غير قصير، وأمام وجوههم تناثر دخان سيجارة عدنان كثيفاً، متشابكاً وكأنّ أفكارهم تشابكت الآن. ومثلما يصعد الدخان في حلقات غير متناهية، حدّق علي وعدنان ببعضهما وكأنهما يتساءلان عن نهاية هذه الرحلة التي ستكون أخطر من رحلات السندباد جميعاً.

خاطب عبد الحسن عدنان وهو يؤشر باتجاه علي:

-يبدو أنّ صاحبك لا يحب الكلام. فهو لم يبح إلا بالقليل أثناء غيابك.

ثم وجّه كلامه إلى علي:

-أعتقد من الأفضل أن تغتسل يا علي وغداً سنتحدث في أمور كثيرة.

أبعد عبد الحسن العود عن حضنه. وهتف:

-سليمة.

ومن زاوية الغرفة نهضت فتاة تشبه نعيمة في وجهها إلا أنّها ربطت شعرها على شكل جديلة.

وقفت لتسمع عبد الحسن الذي قال لها:

-خذي علي إلى غرفتك. فقد آن له أن يستحم.

وعندما انتهى من ذلك قال لعدنان:

fb/the.boooks

-دعنا نذهب إلى الفراش.

نهض الاثنان و هتفا لعلي:

-نتمنى لك ليلة سعيدة.

تبع عدنان عبد الحسن ثم اختفيا في الممر المؤدي إلى الغرفة المجاورة.

اقتربت سليمة من علي وقالت له بصوت رقيق:

-هل تأتي معي؟

نهض علي بعد تردد قصير. عاينها. لقد رآها منذ دخوله الغرفة. وقد أعجبه شكلها، لكنه لم يجرؤ على أن يحملق فيها. زحفت أمامه فسار خلفها حتى وصلا إلى غرفة خلف الكراج الذي قبعت به السيارة. دخلا الغرفة. وهناك تناهى إليه صوت الطباخ الغازي وغليان الماء. وفي وسط الغرفة انتصب الطشت. سألته سليمة:

-ألا تخلع ملابسك؟ احمّر وجهه وقال:

-هل تبقين هنا!

ضحكت بمجون وقالت:

-أنت تستحي؟

اتجهت حيث سريرها في زاوية الغرفة. سحبت شرشفين وراحت تعلقهما على حبل الغسيل المربوط وسط الغرفة. وهتفت من خلف الحاجز:

-اسبح الآن. سأفتح المسجل!

اتجهت إلى مسجلها الذي وضعته على منضدة إلى جانب فراشها. بحثت بين الأشرطة. ثم اختارت أحدها لعبد الحليم حافظ. وضعته في الجهاز وضغطت على زر التشغيل. عدّلت من وضع الشراشف فوق فراشها. ثم بحثت في جرارات دولاب الملابس القديم عن أعواد البخور التي وجدت بعضها. ثبّتتها في الحائط وأشعلتها. استلقت فوق الفراش. ومع رائحة البخور انبعث صوت عبد الحليم حافظ.

fb/the.boooks

نشرت أعواد البخور رائحتها ودخانها في الغرفة. صفّرت سليمة مع الأغنية ووجّهت بصرها إلى الحاجز. فرأت خيال علي العاري وهو يتجه إلى الطشت، والذي بدأ يسكب الماء فوق جسمه. سألته:

-هل أغسل ظهرك؟

فأجاب:

-لا. شكراً.

هزّت رأسها بتعجب وفكرت كم هو خجول هذا الرجل. وكفّت بعد ذلك عن سؤاله عندما لم يجبها عن ما قالته له:

-أول مرة تنزع ملابسك بحضرة بنت؟

لم يجبها فقد غلّفه الماء الدافئ بطمأنينة لم يعشها منذ وقت طويل. في تلك اللحظة شعر بدفء الماء يدخل مسامات جلده. ينتشر في الأوردة والشرايين .ومع كل قطرة ماء تدخل هناك، يفكر ــ بل يود من كل أعماقه ــ أن يبقى ذلك الشعور أبدياً.

كان من الصعب عليه أن يتخيل الأمر مجرد لحظة عابرة. حدث سينتهي غداً أو بعد غد. إنّه لا يريد عيش هذا الهاجس. ومع اندلاق كل قطرة، يمسد جسده بأصابعه وكأنه يود التأكد من وجوده، يلمس جلده لا لأنّه ناعم وطري ونظيف الآن، إنّما لأنّه يريد التيقن من أنّه حي. لا طلقة. لا شظية لحد الآن. لا يريد أن يموت ولا يريد تصديق أنّه سيموت الليلة أو غداً أو بعد غد. تملكته تلك الفكرة، وأصبح كل شيء بعيداً عنه، أصبح صوت عبد الحليم وصوت سليمة بعيدين مثل صوت أمه وأخته ريما. كل شيء يبتعد عنه. ولكنها وحدها التي لا تبتعد تلك الفكرة اللعينة، بأنّه سيموت. سيموت لا محالة. ومع سكبه لقطرات الماء فوق جسده فإنّه لا يزيح القذارات التي علقت هناك، إنّما كان يفعل ذلك وكأنه يود إزاحة فكرة أنه سيموت. لقد كان مغلفاً بالموت مثلما أحاطته الأوساخ قبل الآن. وكلما اقتربت تلك الفكرة من دماغه ازداد إيقاع سكبه للماء. وبعد برهة هدأ؛ إذ لم يبق بعدها ماء في القدر فهتف من مكانه:

-ادفعي لي حقيبتي رجاء من خلف الشرشف .

نهضت سليمة من فراشها وقالت له:

fb/the.boooks

-لا توجد أي حقيبة هنا.

فأردف:

-صحيح لقد نسيتها في الغرفة.

اختفت سليمة لترجع بسرعة وفي يدها الحقيبة. ناولته إيّاها. فتح علي الحقيبة. أخرج منشفته. راح يجفف نفسه. علّق المنشفة فوق الحبل وأخرج لباساً داخلياً جديداً ودشداشة. لبسهما. أزاح الشرشف كمن يزيح ستارة.

قالت له سليمة:

-استلقِ في الفراش... سألقي الماء في الشارع.

واختفت مرة أخرى لدقائق. دخل علي إلى الفراش. أخذت عيناه تحدّقان بالسقف. سمع صوت طرطشة الماء في الشارع. رغم انغلاق الباب الخارجي. ثم خطوات سليمة التي اقتربت، والتي راحت تسارع في اقترابها مثل دقّات قلبه التي لا يستطيع التحكم بها الآن، والتي راحت تبالغ في ضرباتها عندما دخلت سليمة الغرفة. وقد تركت الطشت في باحة الدار.

أغلقت سليمة باب الغرفة خلفها وأسندت حجراً عليه. وعندما دخلت إلى الفراش، تسرب إلى علي دفء غير مألوف. ارتعش جسده قليلاً. ارتجفت شفتاه أيضاً. سمّر عينيه في السقف ولم يتجرأ أن يديرهما باتجاهها، لمسته بيدها و همست:

-هل تبقى بوضعك هذا. هل أنا .طنطل. أخيفك؟

لم يجبها. إنما تسمّر في مكانه. ضحكت ومدّت أصابعها إلى بطنه لتغرغره .قربت جسمها منه. في تلك اللحظة أدرك أنّه عبثاً يقاوم. وإلا لماذا وافق أن يأتي معها؟ هل قال لنفسه .لأذهب وأرى ما يحدث. هكذا مثلما فعل عندما اتجه إلى الجبهة؟ هل قاده الفضول إلى سليمة، مثلما قاده فضوله إلى الحرب؟ كيف يسمح لنفسه بمقارنة الوضعين؟ هل فعل الحب يشبه فعل الحرب؟ كان غارقاً في تساؤلاته، فلم يدرِ كيف تمّ الأمر. لا يدري فيما إذا كانت هي التي بدأت أم هو الذي بدأ. كل ما يعرفه هو أنّه في لحظة واحدة انتبه إلى أنّ شفتيه قد تداخلتا مع شفتيها. في لحظة واحدة أحسّ بشفتيها الغليظتين الحارتين تفترسان شفتيه. وفي لحظة واحدة أحسّ

fb/the.boooks

بعضوه ينتصب وشهوة لم يعرفها قبل الآن. شهوة تندلق في الأوعية والشرايين وتفتح صمّامات الرأس. وكلما ازدادت هي في الضغط على الشفتين كلما ازدادت تلك الرغبة العارمة. ولم يدرِ كيف تمّ الأمر وقد نضا الاثنان عنهما ثيابهما. من بدأ. لا يدري. يبدو أنّه لا يريد أن يعرف . لقد رميا ثيابهما بعيداً. واستلقى جسداهما جنباً إلى جنب، وأخذ المصباح النفطي يلقي انعكاساته المتموجة فوق الجسدين اللذين كانا يتحركان بتوسل إلى الشمال واليمين. ومثلما خفق الضوء في المصباح، خفق قلب علي. هي بحس المحترفة ضمّته إليها. ضمّته وكأنها تضّم خاتماً ثميناً لن تناله بسهولة .ومثلما تلوى الضوء فوق جسديهما، تلوّت أرجلهما وتداخلت مع بعضها. وفي لحظة واحدة لم يدرِ من دخل بمن. لم يدرِ فيما إذا كان هو الذي دفع بعضوه إلى فرجها، أم هي التي التهمت عضوه في فرجها. لم يدرِ فيما إذا كان هو الذي يحرك عضوه داخل فرجها الذي اشتعل حرارة الآن، أم هي التي تفتح وتسد فرجها على عضوه الملتهب الآن. لم يدرِ، ولا يريد أن يدري. لم يحدّق علي بوجه سليمة. وكأنه يخاف أن يرى وجهها. لقد أغمض عينيه وكأنه لا يرغب أن يرى، إنما أن يُرى فقط؛ إذ لم تغلق سليمة عينيها أبداً. وكأنها تفعل ذلك بتعمد .وكأنها تريد أن تعرف كم هو جميل هذا الملقى بين ذراعيها. والذي لم يعض جسمها أو يضطهدها أو يملي عليها رغباته المجنونة، مثل أولئك الشاذين من العربان أو أزلام الحزب والحكومة. كانت تفتح عينيها باتساعهما لترى كيف يفعل معها هذا الـ .علي. الذي بدا لها غريباً تماماً للوهلة الأولى، والذي أخذت تألفه الآن. حتى اختفى من رأسه تماماً عمّا سيدفعه. غريب. لقد كانت مخدّرة بتلك اللحظة، وفي رأسها تلعب كلمات أختها نعيمة التي حدّثتها مراراً عن سحر النوم مع عبد الحسن، الذي ربما يشبه علي في سلوكه. وهناك عند التفاف ساقيها راحت تحدّق بعضوه الذي بدا لها جميلاً وأنيساً عكس .عيورة .الآخرين التي ألّمتها مراراً. والآن شعرت بتلك الفرحة الجميلة التي شرع يوزعها هذا العضو في فرجها لتنتشر في مسامات جسدها. وكذلك، فقد أدركت كم هي قوية وعميقة تلك الرغبة التي تذهب فيها بعيداً في العمق، وتجعل فرجها ينفتح أكثر، وتجعل ساقيها تضغطان عليه.

وبعد زمن، لا يدري فيما إذا هو قذف أول الأمر، أم هي التي ارتعش جسدها كله بقوة واحدة جعلت عظامها تتماسك مع بعضها. لم يدرِ في تلك اللحظة فيما إذا كان هو من فتح عينيه أولاً ليجد أنّهما قد انفصلا عن بعضهما واستلقيا جنباً إلى جنب، وقد وضع كل منهما رأسه على ذراع

fb/the.boooks

الآخر، فيما كانت عيونهما تحدقان بالسقف، ليس لأنّه سقف فقط، إنما كانت تثقبه لتتحاور مع روحيهما التي علقت في دعامات الخشب هناك.

رفعت سليمة رأسها عن صدره. عاينته وسألته:

-هل هي المرة الأولى لك؟

هزّ رأسه نافياً.

هل هو الكبرياء ما جعله يقول ذلك. لماذا لم يعترف أنّها المرة الأولى . وهل يعد مداعبته لابنة عمته جنساً ؟ أم أنّه تذكر الآن تلك السيدة التي كانت في الخامسة والأربعين من عمرها. زوجة التاجر الذي شغّله أبوه عنده في العطلة الصيفية. كان آنذاك في العاشرة من عمره. وذهب يحمل حقيبة أرسلها إليها زوجها من المتجر. وعندما أصبح عندها في الدار، أمرته أن ينتظر، ثم راحت تستبدل ملابسها الداخلية أمام عينه. ثم استلقت فوق الفراش وسحبته بين فخذيها. وهو يذكر كيف أنّه سبح في عرقه. ويذكر أيضاً أنّها لم تفعل معه أكثر من أنّها راحت تضغط عليه بفخذيها. وهو من طرفه لم يعتبر ذلك خطيئة .لأنّه لم يختر ذلك. حتى عندما حاول عدّ خطاياه أمام تابوت قريبهم الفلاّح، لم يخطر على باله سوى ما قام به مع ابنة عمته. ترى لماذا كذب الآن على سليمة؟ أراد أن يتراجع عن جوابه، لكن سليمة سألته:

-هل لديك صاحبة، خطيبة؟

فأجابها.

-أخ. لقد أحببت مرة واحدة ولكن من طرف واحد. لم أصارحها بحبي.

لبرهة ظلا ساكتين. حولهما يصرخ الصمت في كل زوايا الغرفة، وفي الخارج سمعا بصورة متقطعة مواء قطط سائبة. ومن البعيد أتاهما عواء كلب. وللحظة تخيل علي الكلب يجري بسرعة وخلفه يهرول عسكريون، شرطة والبنادق في أيديهم، والكلب يجري، يقفز، كما لو كان جارهم عمران الفارّ من العسكرية يقفز إذا ما لمح انضباطاً عسكرياً. كيف قفزت هذه الصورة إلى ذهنه. ولكن عمران الذي ظنّه علي أكثر من بطل، والذي حسد أيضاً على شجاعته كجندي، فإنّه انتهى إلى نهاية لم يتوقعها علي على الإطلاق. لقد شدّ عمران دائماً إلى حزامه سيفاً وجده أبوه الذي يشتغل في مقبرة الإنكليز مع جد علي. وجده في المقبرة ذاتها .وبدل أن

fb/the.boooks

يغرز عمران هذا السيف في بطن رجال السلطة الذين كانوا يطاردونه، فقد غرزه في بطن خبّاز المحلة مجيد الذي ــ كما ادعى عمران ــ استفزه ونافسه حتى حصل على المرأة التي أحبّها عمران طوال حياته.

ترى لماذا انتهى عمران هكذا؟ ألم يكن من الأجدر به أن يفعل شيئاً آخر؟ تقلب علي في مكانه. تحركت سليمة أيضاً. خطر في ذهن علي أن يسألها؟ فقال بوجل:

-هل أحببت يوماً ؟

ضحكت وكأنها لا تريد أن تصدق أنّه أخيراً تجرأ وسألها هذا السؤال. عدّلت من وضعها واستندت بكوعها إلى الوسادة وقالت:

-المايحب عمره خسارة.

ثم أكملت بحماسة:

-نعم أحببت. أكثر من مرة.

فسأل علي باستغراب:

-أكثر من مرة؟ أعتقد أنّ الإنسان لا يستطيع أن يحب إلا مرة واحدة.

ضحكت. ثم أردفت بسخرية:

-الإنسان يحب طالما هو في الحياة. كل شيء يجيء ويروح. الكثيرون يجيئون ويروحون. مثل الحياة. شتاء. ربيع. صيف. خريف.

سحبت آهة صغيرة:

-القلب مثل البيت. وهو مثل البيت يوسع للكثيرين. ولكن ينجرح عندما يهجره أحد. هناك جروح تلتئم. ولكن تبقى آثارها مثل ندبة بالروح.

سألها:

-كيف؟

فقالت بصوت حزين بعض الشيء:

fb/the.boooks

-إنّك لا تعرف بأنّ حياتنا هنا مقيدة. يجب أن نبقى هنا. وإذا حبينا فعلى الحبيب قبول كل شيء والسكن هنا. شوف عبد الحسن. قبل بالعيش هنا بسبب نعيمة.

سكت علي. فتابعت سليمة وقد برقت عيناها:

-مرة أحببت شاباً اسمه سلمان. بقي هناك حوالي أسبوع وما كان بإمكانه البقاء أطول. أراد أن نغادر. اتفقت معه بالسر. دبّرنا أمر هروبنا. وكدنا ننجح في خطتنا إلا أنّهم ظفروا بنا. وعند شجرة النبق الكبيرة قبضوا علينا .طردوا سلمان وشدّوني إلى السدرة. بقيت هناك يومين. بدون أكل وماء. مع جلدهم لي يومياً .

أدارت له ظهرها. وتحت ضوء الفانوس شخصت خطوط السياط على ظهرها. وفي بعض الأماكن انحصرت عميقة. لمسها علي بحذر، استدارت له فجأة. وراحت تبكي ببطء:

-ضربوه هو الآخر. طردوه خارج الحي. أفهمني عبد الحسن بعدها بأنّه لو كان سلمان من أعوان السلطة لما فعلوا به فعلتهم. ما عرفت ما يقصده لكن في تلك اللحظة ما تمنيته أن يكون من أعوان السلطة؛ لأنّي أعرف أصحاب البذلات الرمادية والشوارب الغليظة يأتون بسيارات التويوتا إلى هنا، وكيف أنّهم يعذبونني ويعذبون صاحباتي حين يريدون النوم معنا. سلمان عمره ما كان قاسياً.

توقفت عن البكاء. سألها علي:

-لم تريه بعد هذه الحادثة؟

فأجابته وقد جففت خدّها وعينيها:

-لقد وعدني بالزواج. وبالسكن عنده في البيت. وقال إنّه راح يعلمني القراءة والكتابة. ويا خسارة.

فعلّق علي:

-ندمانة على ما حدث؟

فتحت عينيها بسعتهما، فبانت أكثر جمالاً وقالت:

fb/the.boooks

-هل تبقى بوضعك هذا. هل أنا .طنطل. أخيفك؟

لم يجبها. إنما تسمّر في مكانه. ضحكت ومدّت أصابعها إلى بطنه لتغرغره .قربت جسمها منه. في تلك اللحظة أدرك أنّه عبثاً يقاوم. وإلا لماذا وافق أن يأتي معها؟ هل قال لنفسه .لأذهب وأرى ما يحدث. هكذا مثلما فعل عندما اتجه إلى الجبهة؟ هل قاده الفضول إلى سليمة، مثلما قاده فضوله إلى الحرب؟ كيف يسمح لنفسه بمقارنة الوضعين؟ هل فعل الحب يشبه فعل الحرب؟ كان غارقاً في تساؤلاته، فلم يدرِ كيف تمّ الأمر. لا يدري فيما إذا كانت هي التي بدأت أم هو الذي بدأ. كل ما يعرفه هو أنّه في لحظة واحدة انتبه إلى أنّ شفتيه قد تداخلتا مع شفتيها. في لحظة واحدة أحسّ بشفتيها الغليظتين الحارتين تفترسان شفتيه. وفي لحظة واحدة أحسّ بعضوه ينتصب وشهوة لم يعرفها قبل الآن. شهوة تندلق في الأوعية والشرايين وتفتح صمّامات الرأس. وكلما ازدادت هي في الضغط على الشفتين كلما ازدادت تلك الرغبة العارمة. ولم يدرِ كيف تمّ الأمر وقد نضا الاثنان عنهما ثيابهما. من بدأ. لا يدري. يبدو أنّه لا يريد أن يعرف . لقد رميا ثيابهما بعيداً. واستلقى جسداهما جنباً إلى جنب، وأخذ المصباح النفطي يلقي انعكاساته المتموجة فوق الجسدين اللذين كانا يتحركان بتوسل إلى الشمال واليمين. ومثلما خفق الضوء في المصباح، خفق قلب علي. هي بحس المحترفة ضمّته إليها. ضمّته وكأنها تضّم خاتماً ثميناً لن تناله بسهولة .ومثلما تلوى الضوء فوق جسديهما، تلوّت أرجلهما وتداخلت مع بعضها. وفي لحظة واحدة لم يدرِ من دخل بمن. لم يدرِ فيما إذا كان هو الذي دفع بعضوه إلى فرجها، أم هي التي التهمت عضوه في فرجها. لم يدرِ فيما إذا كان هو الذي يحرك عضوه داخل فرجها الذي اشتعل حرارة الآن، أم هي التي تفتح وتسد فرجها على عضوه الملتهب الآن. لم يدرِ، ولا يريد أن يدري. لم يحدّق علي بوجه سليمة. وكأنه يخاف أن يرى وجهها. لقد أغمض عينيه وكأنه لا يرغب أن يرى، إنما أن يُرى فقط؛ إذ لم تغلق سليمة عينيها أبداً. وكأنها تفعل ذلك بتعمد .وكأنها تريد أن تعرف كم هو جميل هذا الملقى بين ذراعيها. والذي لم يعض جسمها أو يضطهدها أو يملي عليها رغباته المجنونة، مثل أولئك الشاذين من العربان أو أزلام الحزب والحكومة. كانت تفتح عينيها باتساعهما لترى كيف يفعل معها هذا الـ .علي. الذي بدا لها غريباً تماماً للوهلة الأولى، والذي أخذت تألفه الآن. حتى اختفى من رأسه تماماً عمّا سيدفعه. غريب. لقد كانت مخدّرة بتلك اللحظة، وفي رأسها تلعب كلمات أختها نعيمة التي حدّثتها مراراً عن سحر النوم مع عبد الحسن، الذي ربما يشبه علي في سلوكه.

fb/the.boooks

وهناك عند التفاف ساقيها راحت تحدّق بعضوه الذي بدا لها جميلاً وأنيساً عكس .عيورة .الآخرين التي ألّمتها مراراً. والآن شعرت بتلك الفرحة الجميلة التي شرع يوزعها هذا العضو في فرجها لتنتشر في مسامات جسدها. وكذلك، فقد أدركت كم هي قوية وعميقة تلك الرغبة التي تذهب فيها بعيداً في العمق، وتجعل فرجها ينفتح أكثر، وتجعل ساقيها تضغطان عليه.

وبعد زمن، لا يدري فيما إذا هو قذف أول الأمر، أم هي التي ارتعش جسدها كله بقوة واحدة جعلت عظامها تتماسك مع بعضها. لم يدرِ في تلك اللحظة فيما إذا كان هو من فتح عينيه أولاً ليجد أنّهما قد انفصلا عن بعضهما واستلقيا جنباً إلى جنب، وقد وضع كل منهما رأسه على ذراع الآخر، فيما كانت عيونهما تحدقان بالسقف، ليس لأنّه سقف فقط، إنما كانت تثقبه لتتحاور مع روحيهما التي علقت في دعامات الخشب هناك.

رفعت سليمة رأسها عن صدره. عاينته وسألته:

-هل هي المرة الأولى لك؟

هزّ رأسه نافياً.

هل هو الكبرياء ما جعله يقول ذلك. لماذا لم يعترف أنّها المرة الأولى . وهل يعد مداعبته لابنة عمته جنساً ؟ أم أنّه تذكر الآن تلك السيدة التي كانت في الخامسة والأربعين من عمرها. زوجة التاجر الذي شغّله أبوه عنده في العطلة الصيفية. كان آنذاك في العاشرة من عمره. وذهب يحمل حقيبة أرسلها إليها زوجها من المتجر. وعندما أصبح عندها في الدار، أمرته أن ينتظر، ثم راحت تستبدل ملابسها الداخلية أمام عينه. ثم استلقت فوق الفراش وسحبته بين فخذيها. وهو يذكر كيف أنّه سبح في عرقه. ويذكر أيضاً أنّها لم تفعل معه أكثر من أنّها راحت تضغط عليه بفخذيها. وهو من طرفه لم يعتبر ذلك خطيئة .لأنّه لم يختر ذلك. حتى عندما حاول عدّ خطاياه أمام تابوت قريبهم الفلاّح، لم يخطر على باله سوى ما قام به مع ابنة عمته. ترى لماذا كذب الآن على سليمة؟ أراد أن يتراجع عن جوابه، لكن سليمة سألته:

-هل لديك صاحبة، خطيبة؟

فأجابها.

fb/the.boooks

-أخ· لقد أحببت مرة واحدة ولكن من طرف واحد· لم أصارحها بحبي·

لبرهة ظلا ساكتين· حولهما يصرخ الصمت في كل زوايا الغرفة، وفي الخارج سمعا بصورة متقطعة مواء قطط سائبة· ومن البعيد أتاهما عواء كلب· وللحظة تخيل علي الكلب يجري بسرعة وخلفه يهرول عسكريون، شرطة والبنادق في أيديهم، والكلب يجري، يقفز، كما لو كان جارهم عمران الفارّ من العسكرية يقفز إذا ما لمح انضباطاً عسكرياً· كيف قفزت هذه الصورة إلى ذهنه· ولكن عمران الذي ظنّه علي أكثر من بطل، والذي حسد أيضاً على شجاعته كجندي، فإنّه انتهى إلى نهاية لم يتوقعها علي على الإطلاق· لقد شدّ عمران دائماً إلى حزامه سيفاً وجده أبوه الذي يشتغل في مقبرة الإنكليز مع جد علي· وجده في المقبرة ذاتها ·وبدل أن يغرز عمران هذا السيف في بطن رجال السلطة الذين كانوا يطاردونه، فقد غرزه في بطن خبّاز المحلة مجيد الذي ــ كما ادعى عمران ــ استفزه ونافسه حتى حصل على المرأة التي أحبّها عمران طوال حياته·

ترى لماذا انتهى عمران هكذا؟ ألم يكن من الأجدر به أن يفعل شيئاً آخر؟ تقلب علي في مكانه· تحركت سليمة أيضاً· خطر في ذهن علي أن يسألها؟ فقال بوجل:

-هل أحببت يوماً ؟

ضحكت وكأنها لا تريد أن تصدق أنّه أخيراً تجرأ وسألها هذا السؤال· عدّلت من وضعها واستندت بكوعها إلى الوسادة وقالت:

-المايحب عمره خسارة·

ثم أكملت بحماسة:

-نعم أحببت· أكثر من مرة·

فسأل علي باستغراب:

-أكثر من مرة؟ أعتقد أنّ الإنسان لا يستطيع أن يحب إلا مرة واحدة·

ضحكت· ثم أردفت بسخرية:

-الإنسان يحب طالما هو في الحياة· كل شيء يجيء ويروح· الكثيرون يجيئون ويروحون· مثل الحياة· شتاء· ربيع· صيف· خريف·

fb/the.boooks

سحبت آهة صغيرة:

-القلب مثل البيت. وهو مثل البيت يوسع للكثيرين. ولكن ينجرح عندما يهجره أحد. هناك جروح تلتئم. ولكن تبقى آثارها مثل ندبة بالروح.

سألها:

-كيف؟

فقالت بصوت حزين بعض الشيء:

-إنّك لا تعرف بأنّ حياتنا هنا مقيدة. يجب أن نبقى هنا. وإذا حبينا فعلى الحبيب قبول كل شيء والسكن هنا. شوف عبد الحسن. قبل بالعيش هنا بسبب نعيمة.

سكت علي. فتابعت سليمة وقد برقت عيناها:

-مرة أحببت شاباً اسمه سلمان. بقي هناك حوالي أسبوع وما كان بإمكانه البقاء أطول. أراد أن نغادر. اتفقت معه بالسر. دبّرنا أمر هروبنا. وكدنا ننجح في خطتنا إلا أنّهم ظفروا بنا. وعند شجرة النبق الكبيرة قبضوا علينا .طردوا سلمان وشدّوني إلى السدرة. بقيت هناك يومين. بدون أكل وماء. مع جلدهم لي يومياً .

أدارت له ظهرها. وتحت ضوء الفانوس شخصت خطوط السياط على ظهرها. وفي بعض الأماكن انحصرت عميقة. لمسها علي بحذر، استدارت له فجأة. وراحت تبكي ببطء:

-ضربوه هو الآخر. طردوه خارج الحي. أفهمني عبد الحسن بعدها بأنّه لو كان سلمان من أعوان السلطة لما فعلوا به فعلتهم. ما عرفت ما يقصده لكن في تلك اللحظة ما تمنيته أن يكون من أعوان السلطة؛ لأنّي أعرف أصحاب البذلات الرمادية والشوارب الغليظة يأتون بسيارات التويوتا إلى هنا، وكيف أنّهم يعذبونني ويعذبون صاحباتي حين يريدون النوم معنا. سلمان عمره ما كان قاسياً.

توقفت عن البكاء. سألها علي:

-لم تريه بعد هذه الحادثة؟

fb/the.boooks

فأجابته وقد جففت خدّها وعينيها:

-لقد وعدني بالزواج· وبالسكن عنده في البيت· وقال إنّه راح يعلمني القراءة والكتابة· ويا خسارة·

فعلّق علي:

-ندمانة على ما حدث؟

فتحت عينيها بسعتهما، فبانت أكثر جمالاً وقالت:

-ليش أكون ندمانة· يجوز كان أحسن لي مغادرة المكان· تعبت من زلمهم ·تعبت من العربان يدفعون الدنانير لكنهم لا يشترون فرشاة أسنان لغسل فمهم الجايف·

غمرت رائحة البخور الغرفة تماماً، وتسربت إلى أنفيهما· دفنت سليمة رأسها تحت إبط علي وقالت له:

-لك رائحة أصيلة·

تمنى علي أن يضّمها تلك اللحظة بقوة إليه· إلا أنّ هناك ما يمنعه· لا يدري ما هو· خجل، خوف، اضطراب؟ هاج داخله كقط محاصر· وفي رأسه وثبت فكرة جنونية فقال لها بحماسة:

-سليمة ما رأيك أن أبقى هنا؟

وبدون أن ينتظر جوابها أكمل:

-أخاف أن أموت· تفهمين؟ لا أريد أن أموت· رأيت الموت أكثر من مرة · بالأحرى رآني الموت أكثر من مرة·، إذا تجاوزني بعض المرات فإنّه لن يفعل ذلك دائماً· سأموت· اليوم· غداً أو بعد غد·

فجأة سكت علي وكأنه خجل مما تحدث به؛ فقال لها وقد دفن رأسه بين يديه:

-انسي هذياني!

fb/the.boooks

رفعت سليمة رأسها. لمست جبهته التي أصبحت حارة دفعة واحدة، فيما نضحت بعرق غزير. شعر علي بأناملها الرقيقة تتحرك فوق وجهه. ضمّها إليه بقوة وكأنه يود الاختفاء تحت جلدها. ولبرهة فتح فمه:

-هل تعلمين أي حزن يبعث المطر

وكيف تنشج المزاريب فيه إذا انهمر.

حدّقت به بدهشة وسألت:

-ماذا قلت؟

فقال:

-لم أقصد شيئاً. فقط خطرت جملة في ذهني تعلمتها في المدرسة.

وبدون قرار منه فتح فمه مرة أخرى:

-تعرفين أنّ هذا الإنسان الذي يجلس بجانبك لا شيء. لا شيء. ثقي أنّه مجرد لا شيء. تعرفين لماذا؟ لأنني ككل أولئك الذين يقولون بأنّ من يتزوج أمي يصير عمي.

توقف لحظات. نظر إليها. كانت عيناها السوداوان قد استقرتا بوجهه تنتظران تفسيراً لما يقول. وبدل أن يفعل ذلك استمر في تداعيه:

-يجب أن تفهمني. إني مسؤول عن وضعي هذا. هل وجب علي فعلاً أن ألتحق بالجبهة. تصورت أنّ هذه الحرب تشبه تلك الحروب التي يصفونها لنا في الكتب المدرسية. لقد كنت أبله. لقد اعتقدت ببساطة أنّها لن تستمر أكثر من أسابيع ـ ثم لأذهب وأرى ماذا يحدث هناك في الجبهة.

وبعد صمت قصير أكمل:

-يحدثوننا عن الانتصارات. حسناً إنّ جيشنا على مشارف المحمرة. ولكن تعرفين كم كانت خسائرنا؟ لقد أعلنوا صلاة الغائب. ذلك يعني أنّه كان من المستحيل إحصاء القتلى. يعني أنّهم أكثر من 70%، لماذا؟ من أجل المحمرة أو خورمشهر. ولكني على ثقة أنّ الإيرانيين سيستعيدون منا المدينة وسنعطي أيضاً ضحايا أكثر من 70%، لماذا؟ لماذا؟

fb/the.boooks

بدت سليمة في تلك اللحظة تعبة، مجهضة. صحيح أنّها كانت مليئة بالفضول، تود أن تعرف ما يعنيه علي في كلامه الذي لم تفهمه. إلا أنّها رغبت من صميم نفسها النوم بين ذراعيه. ولكن علي ظلّ مستمراً في حديثه كأنه غير معني بإجاباتها على الإطلاق:

-أخ. سندفع ثمنها كلنا. سندفعه يا سليمة، حتى أنت ستدفعينه.

وعندما سمعت اسمها تيقظت أكثر. وأخذت ترمق شفتيه لتفهم معنى ما يقول .ولكنه إذ أسهب في تداعياته فإنّه لم يستطع منع جفنيه من الاسترخاء كجناحي فراشة ليّنتين. ومع كلماته الأخيرة. .لا أريد أن أموت. لا أقبل ان أموت .التي بدأت تخف بالتدريج، رأت سليمة كيف أنّه استسلم إلى النوم ببطء.

ثبتت سليمة نظرها عليه. لقد هدأ واستقر رأسه فوق الوسادة. ظلّ فمه منفتحاً وكأنه لا يزال يلقي بكلماته. تأملته قليلاً وطافت بنظراتها من أخمص قدمه حتى الرأس. بدا لها في تلك اللحظة جميلاً وهادئاً كنسمة صيف. في داخلها سرى الوجد ورغبت حينها بلمسه. تجس مساماته. وعندما مدّت يدها لتلمسه، سحبتها، كانت تخشى إيقاظه، يقيناً أنّه قد زرع الحيرة في نفسها هذه الليلة. فهي لا تعرف بالضبط ماذا يفعلون في الحرب. إنّ الأشياء معتمة أمام عينيها. هم يقتتلون فيما بينهم؟ أمّا لماذا فهي لا تعرف. لقد سمعت كلاماً من عبد الحسن يشبه كلام علي. لكنها أيضاً لم تفهمه. يقول لها رجال الحكومة الذين يأتون إلى هنا .نحن ندافع عن الوطن. وأيضاً لم تفهم ما يعنونه بكلمة وطن. فهي لا تعرف سوى هذه المجموعة من البشر التي تنقلت معها منذ طفولتها .وأن يقيموا هنا في حي الطرب في بيوت طينية فذلك أمر جديد بالنسبة لها. لم يعجبها في الأول مثلما لم يعجب بني قومها. لكن الدنانير الكويتية جعلتهم يكفّون عن التساؤل. وبدا لهم الترحال من مكان إلى مكان قبيحاً ! والآن يقولون إنّهم قريبون من مكان الحرب. ولكنها لم ترَ الحرب إلا من خلال المارّين بالحي. وما عدا ذلك فهي تملك فكرة معتمة عن الحرب في ذهنها. فكرة لا تستطيع تعيينها. فكرة استفزّها علي بكلامه. لقد جعل داخلها يضطرب. وهي على يقين أنّها لن تعرف الهدوء بعد هذه الليلة. لم تكن ليلة كلياليها السابقة. لقد ذكّرتها بسلمان، بل شعرت أنّ الألم يفوق ما حدث قبل سنين مع سلمان. هل هو حب جديد؟ أم هي رجفة تلمس قلبها مؤقتاً، وستختفي غداً أو بعد غد؟ لقد مرّ بها رجال كثيرون. كويتيون. سعوديون. شماليون. جنوبيون، ولكن هناك ما يختلف هذه المرة. لقد خبرت بسنيها التسعة عشر

fb/the.boooks

بين رجل وآخر. تعرف من يريد فقط ادخال .عضوه. في فخذيها. لقد خبرت الكثيرين الذين جاءوا فقط من أجل مضاجعتها. أما علي فهو آخر. للمرة الأولى يخجل أمامها رجل. إذاً هي إمراة غير رخيصة. لقد ذكّرها خجله، بخجلها عندما أدخل أخوها عليها الكويتي الذي دفع خمسمائة دينار من أجل فض بكارتها. لقد بكت ليلتها، لأنّها لم ترد تسليم بكارتها إلا لمن تحب. لقد كان فيها شيء ما جعلها تختلف عن بنات سنّها الأخريات. وحاولت تلك الليلة الاحتيال على الكويتي بمسك قضيبه وجعله يقذف في يدها، لعله يهدأ. ولكن عبثاً فقد تحوّل الكويتي برمته إلى قضيب. لقد آلمها تلك الليلة عندما أدخل قضيبه الصلب فيها. حتى إنّها تخيلت أنّه مزّق الشريط بين الفرج والمؤخرة. ومنذ ذلك الوقت لم تنسَ ما حدث. وكلما تذكرته شعرت بالقرف. حتى إنّ الرغبة في التقيؤ تزداد عندها. ولأكثر من مرة لم تستطع منعه. وهذا ما حصل الآن أيضاً. إذ إنّ مجرد تذكرها للقصة جعلها تشعر بشيء يصعد في البلعوم. وبأعجوبة أوقفته لترجعه إلى مكانه. لم ترغب بمغادرة الفراش، لذلك فقد جاهدت ألا تتذكر هذه القصة بعد الآن ــ ولبرهة بكت .وحاولت جاهدة ألا تخرج دموعها أيما صوت لكي لا توقظه. لم تدرِ لماذا تبكي؟ هل لأنّها تدري بأنّها ستفقده؟ هل تبكي هذه الليلة الجميلة؟ أم ما يحدث غداً. ومع نفسها كانت مصممة ألا يحدث لها هذه المرة مثلما حدث مع سلمان .ولذلك فقد كانت حذرة من أفكارها. لم تقل له بأنّه يستطيع البقاء. رغم أنّها على دراية بأنّه لن يفعل ذلك. ولا تستطيع الذهاب معه؛ لأنّهم إذا ما أدركوها فسيجلدونها كما حصل في السابق. وحتى عبد الحسن لا يحق له التدخل .كوّرت نفسها. وراحت تضم جسمها بين ذراعيها وكأنها لُسعت من ضربة سوط للتو .عضّت على شفتيها. دفعت بذراعها اليمنى إلى رأسها، عصرت جبهتها وكأنها تعصر برتقالة. ومع نفسها راحت تردد: .قرري يا سليمة. وفي نفسها شعرت بقشعريرة لذيذة تسري، تجعل أجفانها تنسدل بين لحظة وأخرى. ومع ضوء الفانوس الذي راح يخفت مع الوقت ملقياً على الغرفة نوراً يتحرك رجراجاً بين القوة والشحوب، تصاعد صخب أفكارها، كأنّها في حلم جميل. بعيون ناعسة تفحصت وجهه، لقد تفحصته بنهم وكأنها تعاينه للمرة الأخيرة. سمّرت النظر هناك. لم تغيرها حتى تعب جفناها اللذان لم يريا يدها التي امتدت بآلية إلى الفانوس الموضوع بجانب السرير، والتي رفعت زجاجته ثم لتقرّب فمها وتنفخ نوره على الفور. وفي تلك اللحظة غمرت الظلمة الغرفة.

fb/the.boooks

استرخى جفناها بحيرة وغرقت في نوم لا يشبه ــ ربما ــ في عمقه إلا نوم علي· لم يغزُها النوم فقط، إنما تكالب حول البيت، حول الغرفة رجال لا تستطيع عدّهم· ربما كانوا آلافاً· سحنات خليجية بزيها ولهجتها· من المستحيل إحصاؤهم· لكنهم يتقدمون· بإمكانها لمح سياراتهم التي امتدت طابوراً كبيراً من مقدمة دارهم حتى مدينة الزبير· وهي تقف خائفة· عند العتبة خلفها لاذ علي بالصمت· وعندما التفتت خلفها لتطمئن عليه كان ممدداً بتابوت وبدل أن يُلف بكفن أبيض كان ملفوفاً بدشداشة خليجية أذيالها مطرزة بالذهب· شهقت وحدّقت بالكوفية السعودية التي لثمت وجهه· حوّلت نظرها إلى الرجال الذين وقفوا بجانب سياراتهم· وإذ ضحك بعضهم، راح البعض الآخر يطلق بوق سيارته ·ومن البعيد ارتفعت همهمات وصياح .عجلي يبه· عجلي· لاتظلي واجفة بالباب. كم بدت لها تلك الجمل كريهة· حاولت أن تدخل إلى الدار وتغلق الباب خلفها· كان التابوت قد سدّ الطريق· صرخت: .عبد الحسن، نعيمة· أنقذوني. وفي الشارع المقابل لها ظهر رجال ببذلات رمادية ورشاشات يجرّون عبد الحسن إلى الشجرة التي رُبطت إليها قبل سنوات· ومع ضرباتهم تتصاعد كلمات الخليجيين .عجلي ·عجلي يُبه. وعند الشجرة يلقون بنعيمة· ويربطون عبد الحسن الذي انتصب هناك عارياً· تقدم إليه أحدهم بشوارب غليظة وبيده ليطة راح يغرزها في خصية عبد الحسن· ضحك الآخرون· وسحب أحدهم من سترته حبلاً مطاطياً رُبط أحد طرفيه إلى خصية عبد الحسن وفي الطرف شدّ حصوة صغيرة، وبين لحظة وأخرى كان يترك هذا الحبل لترتطم الحصوة بخصية عبد الحسن فيصرخ· نهضت نعيمة لتمنعه فتقدمت سيارات المرسيدس بأرقامها الخاصة، تقدم لها أكثر من رجل وراحوا يخلعون ملابسها ويضحكون ويرمون فوق جسدها دنانير كثيرة· أخذت نعيمة تدفع عنها الدنانير وهي تصيح: .خلوها في قفاكم.

لم يعيروها انتباهاً إنما استمروا في ضحكهم الهستيري الذي أرعبها وجعلها ترتد إلى الباب أكثر· ثم سمعت صوتاً خلفها· كان غجرياً ينهض من تابوته· ينزع دشداشة من الحرير· سألته:

-هل أنت علي؟

ابتسم لها وظهرت أسنانه الذهبية· حرّكت يدها بامتعاض· فقال لها:

-أوصاني علي ان أكون علياً·

fb/the.boooks

وأشارت بيدها إلى الربابة التي يحملها بين يديه. ففهم الغجري أنّها تسخر منه. مسك الربابة بقوة فتحولت إلى رشّاشة. اضطربت سليمة. ثم فرحت عندما لمحت السلاح في يده. غادر الغجري مكانه وعندما أصبح في الشارع صاح به الخليجيون:

-عجّل. يُبه عجّل. خلينا ننيكها من طيزها.

ضحك الغجري واتجه إلى الشجرة حيث شُدّ عبد الحسن. غادر الرجال ذوو البذلات الرمادية أماكنهم واقتربوا من الخليجيين. مدّ الغجري يده إلى نعيمة ورفعها عن الأرض. فكّ وثاق عبد الحسن. وعندما انتهى من ذلك صوّب رشاشته إلى الرجال المتجمعين أمامه وراح يمطرهم برصاصه. لقد وصلت رصاصاته الخليجيين الذين كلما سقط أحد منهم انتصب آخر خلفه. ومن مكانها صاحت سليمة بصوت لم تستطع إخراجه من فمها: حيل. حيل.

ومع صوت الإطلاقات يزداد صياح الخليجيين:

-عجلي يُبه. دوري وادخلي غرفتك. خلينا ننيك من الوراء. دوري راوينا عزك.

غمرت رائحة البخور الغرفة تماماً، وتسربت إلى أنفيهما. دفنت سليمة رأسها تحت إبط علي وقالت له:

-لك رائحة أصيلة.

تمنى علي أن يضّمها تلك اللحظة بقوة إليه. إلا أنّ هناك ما يمنعه. لا يدري ما هو. خجل، خوف، اضطراب؟ هاج داخله كقط محاصر. وفي رأسه وثبت فكرة جنونية فقال لها بحماسة:

-سليمة ما رأيك أن أبقى هنا؟

وبدون أن ينتظر جوابها أكمل:

-أخاف أن أموت. تفهمين؟ لا أريد أن أموت. رأيت الموت أكثر من مرة . بالأحرى رآني الموت أكثر من مرة.، إذا تجاوزني بعض المرات فإنّه لن يفعل ذلك دائماً. سأموت. اليوم. غداً أو بعد غد.

fb/the.boooks

فجأة سكت علي وكأنه خجل مما تحدث به؛ فقال لها وقد دفن رأسه بين يديه:

-انسي هذياني!

رفعت سليمة رأسها. لمست جبهته التي أصبحت حارة دفعة واحدة، فيما نضحت بعرق غزير. شعر علي بأناملها الرقيقة تتحرك فوق وجهه. ضمّها إليه بقوة وكأنه يود الاختفاء تحت جلدها. ولبرهة فتح فمه:

-هل تعلمين أي حزن يبعث المطر

وكيف تنشج المزاريب فيه إذا انهمر.

حدّقت به بدهشة وسألت:

-ماذا قلت؟

فقال:

-لم أقصد شيئاً. فقط خطرت جملة في ذهني تعلمتها في المدرسة.

وبدون قرار منه فتح فمه مرة أخرى:

-تعرفين أنّ هذا الإنسان الذي يجلس بجانبك لا شيء. لا شيء. ثقي أنّه مجرد لا شيء. تعرفين لماذا؟ لأنني ككل أولئك الذين يقولون بأنّ من يتزوج أمي يصير عمي.

توقف لحظات. نظر إليها. كانت عيناها السوداوان قد استقرتا بوجهه تنتظران تفسيراً لما يقول. وبدل أن يفعل ذلك استمر في تداعيه:

-يجب أن تفهمني. إني مسؤول عن وضعي هذا. هل وجب علي فعلاً أن ألتحق بالجبهة. تصورت أنّ هذه الحرب تشبه تلك الحروب التي يصفونها لنا في الكتب المدرسية. لقد كنت أبله. لقد اعتقدت ببساطة أنّها لن تستمر أكثر من أسابيع ـ ثم لأذهب وأرى ماذا يحدث هناك في الجبهة.

وبعد صمت قصير أكمل:

-يحدثوننا عن الانتصارات. حسناً إنّ جيشنا على مشارف المحمرة. ولكن تعرفين كم كانت خسائرنا؟ لقد أعلنوا صلاة الغائب. ذلك يعني أنّه كان من

fb/the.boooks

المستحيل إحصاء القتلى. يعني أنّهم أكثر من 70%، لماذا؟ من أجل المحمرة أو خورمشهر. ولكني على ثقة أنّ الإيرانيين سيستعيدون منا المدينة وسنعطي أيضاً ضحايا أكثر من 70%، لماذا؟ لماذا؟

بدت سليمة في تلك اللحظة تعبة، مجهضة. صحيح أنّها كانت مليئة بالفضول، تود أن تعرف ما يعنيه علي في كلامه الذي لم تفهمه. إلا أنّها رغبت من صميم نفسها النوم بين ذراعيه. ولكن علي ظلّ مستمراً في حديثه كأنه غير معني بإجاباتها على الإطلاق:

-أخ. سندفع ثمنها كلنا. سندفعه يا سليمة، حتى أنت ستدفعينه.

وعندما سمعت اسمها تيقظت أكثر. وأخذت ترمق شفتيه لتفهم معنى ما يقول .ولكنه إذ أسهب في تداعياته فإنّه لم يستطع منع جفنيه من الاسترخاء كجناحي فراشة ليّنتين. ومع كلماته الأخيرة. لا أريد أن أموت. لا أقبل ان أموت .التي بدأت تخف بالتدريج، رأت سليمة كيف أنّه استسلم إلى النوم ببطء.

ثبتت سليمة نظرها عليه. لقد هدأ واستقر رأسه فوق الوسادة. ظلّ فمه منفتحاً وكأنه لا يزال يلقي بكلماته. تأملته قليلاً وطافت بنظراتها من أخمص قدمه حتى الرأس. بدا لها في تلك اللحظة جميلاً وهادئاً كنسمة صيف. في داخلها سرى الوجد ورغبت حينها بلمسه. تجس مساماته. وعندما مدّت يدها لتلمسه، سحبتها، كانت تخشى إيقاظه، يقيناً أنّه قد زرع الحيرة في نفسها هذه الليلة. فهي لا تعرف بالضبط ماذا يفعلون في الحرب. إنّ الأشياء معتمة أمام عينيها. هم يقتتلون فيما بينهم؟ أمّا لماذا فهي لا تعرف. لقد سمعت كلاماً من عبد الحسن يشبه كلام علي. لكنها أيضاً لم تفهمه. يقول لها رجال الحكومة الذين يأتون إلى هنا .نحن ندافع عن الوطن. وأيضاً لم تفهم ما يعنونه بكلمة وطن. فهي لا تعرف سوى هذه المجموعة من البشر التي تنقلت معها منذ طفولتها .وأن يقيموا هنا في حي الطرب في بيوت طينية فذلك أمر جديد بالنسبة لها. لم يعجبها في الأول مثلما لم يعجب بني قومها. لكن الدنانير الكويتية جعلتهم يكفّون عن التساؤل. وبدا لهم الترحال من مكان إلى مكان قبيحاً ! والآن يقولون إنّهم قريبون من مكان الحرب. ولكنها لم ترَ الحرب إلا من خلال المارّين بالحي. وما عدا ذلك فهي تملك فكرة معتمة عن الحرب في ذهنها. فكرة لا تستطيع تعيينها. فكرة استفزّها علي بكلامه. لقد جعل داخلها يضطرب. وهي على يقين أنّها لن تعرف الهدوء بعد هذه الليلة. لم تكن ليلة كلياليها

fb/the.boooks

السابقة. لقد ذكّرتها بسلمان، بل شعرت أنّ الألم يفوق ما حدث قبل سنين مع سلمان. هل هو حب جديد؟ أم هي رجفة تلمس قلبها مؤقتاً، وستختفي غداً أو بعد غد؟ لقد مرّ بها رجال كثيرون. كويتيون. سعوديون. شماليون. جنوبيون، ولكن هناك ما يختلف هذه المرة. لقد خبرت بسنيها التسعة عشر بين رجل وآخر. تعرف من يريد فقط ادخال .عضوه. في فخذيها. لقد خبرت الكثيرين الذين جاءوا فقط من أجل مضاجعتها. أما علي فهو آخر. للمرة الأولى يخجل أمامها رجل. إذاً هي إمراة غير رخيصة. لقد ذكّرها خجله، بخجلها عندما أدخل أخوها عليها الكويتي الذي دفع خمسمائة دينار من أجل فض بكارتها. لقد بكت ليلتها، لأنّها لم ترد تسليم بكارتها إلا لمن تحب. لقد كان فيها شيء ما جعلها تختلف عن بنات سنّها الأخريات. وحاولت تلك الليلة الاحتيال على الكويتي بمسك قضيبه وجعله يقذف في يدها، لعله يهدأ. ولكن عبثاً فقد تحوّل الكويتي برمته إلى قضيب. لقد آلمها تلك الليلة عندما أدخل قضيبه الصلب فيها. حتى إنّها تخيلت أنّه مزّق الشريط بين الفرج والمؤخرة. ومنذ ذلك الوقت لم تنسَ ما حدث. وكلما تذكرته شعرت بالقرف. حتى إنّ الرغبة في التقيؤ تزداد عندها. ولأكثر من مرة لم تستطع منعه. وهذا ما حصل الآن أيضاً. إذ إنّ مجرد تذكرها للقصة جعلها تشعر بشيء يصعد في البلعوم. وبأعجوبة أوقفته لترجعه إلى مكانه. لم ترغب بمغادرة الفراش، لذلك فقد جاهدت ألا تتذكر هذه القصة بعد الآن ــ ولبرهة بكت .وحاولت جاهدة ألا تخرج دموعها أيما صوت لكي لا توقظه. لم تدرِ لماذا تبكي؟ هل لأنّها تدري بأنّها ستفقده؟ هل تبكي هذه الليلة الجميلة؟ أم ما يحدث غداً. ومع نفسها كانت مصممة ألا يحدث لها هذه المرة مثلما حدث مع سلمان .ولذلك فقد كانت حذرة من أفكارها. لم تقل له بأنّه يستطيع البقاء. رغم أنّها على دراية بأنّه لن يفعل ذلك. ولا تستطيع الذهاب معه؛ لأنّهم إذا ما أدركوها فسيجلدونها كما حصل في السابق. وحتى عبد الحسن لا يحق له التدخل .كوّرت نفسها. وراحت تضم جسمها بين ذراعيها وكأنها لُسعت من ضربة سوط للتو .عضّت على شفتيها. دفعت بذراعها اليمنى إلى رأسها، عصرت جبهتها وكأنها تعصر برتقالة. ومع نفسها راحت تردد: .قرري يا سليمة. وفي نفسها شعرت بقشعريرة لذيذة تسري، تجعل أجفانها تنسدل بين لحظة وأخرى. ومع ضوء الفانوس الذي راح يخفت مع الوقت ملقياً على الغرفة نوراً يتحرك رجراجاً بين القوة والشحوب، تصاعد صخب أفكارها، كأنّها في حلم جميل. بعيون ناعسة تفحصت وجهه، لقد تفحصته بنهم وكأنها تعاينه للمرة الأخيرة. سمّرت النظر هناك. لم تغيرها حتى تعب جفناها اللذان لم يريا يدها التي امتدت بآلية إلى الفانوس الموضوع بجانب السرير، والتي رفعت

fb/the.boooks

زجاجته ثم لتقرّب فمها وتنفخ نوره على الفور. وفي تلك اللحظة غمرت الظلمة الغرفة.

استرخى جفناها بحيرة وغرقت في نوم لا يشبه ــ ربما ــ في عمقه إلا نوم علي. لم يغزُها النوم فقط، إنما تكالب حول البيت، حول الغرفة رجال لا تستطيع عدّهم. ربما كانوا آلافاً. سحنات خليجية بزيها ولهجتها. من المستحيل إحصاؤهم. لكنهم يتقدمون. بإمكانها لمح سياراتهم التي امتدت طابوراً كبيراً من مقدمة دارهم حتى مدينة الزبير. وهي تقف خائفة. عند العتبة خلفها لاذ علي بالصمت. وعندما التفتت خلفها لتطمئن عليه كان ممدداً بتابوت وبدل أن يُلف بكفن أبيض كان ملفوفاً بدشداشة خليجية أذيالها مطرزة بالذهب. شهقت وحدّقت بالكوفية السعودية التي لثمت وجهه. حوّلت نظرها إلى الرجال الذين وقفوا بجانب سياراتهم. وإذ ضحك بعضهم، راح البعض الآخر يطلق بوق سيارته .ومن البعيد ارتفعت همهمات وصياح .عجلي يبه. عجلي. لاتظلي واجفة بالباب. كم بدت لها تلك الجمل كريهة. حاولت أن تدخل إلى الدار وتغلق الباب خلفها. كان التابوت قد سدّ الطريق. صرخت: .عبد الحسن، نعيمة. أنقذوني. وفي الشارع المقابل لها ظهر رجال ببذلات رمادية ورشاشات يجرّون عبد الحسن إلى الشجرة التي رُبطت إليها قبل سنوات. ومع ضرباتهم تتصاعد كلمات الخليجيين .عجلي .عجلي يُبه. وعند الشجرة يلقون بنعيمة. ويربطون عبد الحسن الذي انتصب هناك عارياً. تقدم إليه أحدهم بشوارب غليظة وبيده ليطة راح يغرزها في خصية عبد الحسن. ضحك الآخرون. وسحب أحدهم من سترته حبلاً مطاطياً رُبط أحد طرفيه إلى خصية عبد الحسن وفي الطرف شدّ حصوة صغيرة، وبين لحظة وأخرى كان يترك هذا الحبل لترتطم الحصوة بخصية عبد الحسن فيصرخ. نهضت نعيمة لتمنعه فتقدمت سيارات المرسيدس بأرقامها الخاصة، تقدم لها أكثر من رجل وراحوا يخلعون ملابسها ويضحكون ويرمون فوق جسدها دنانير كثيرة. أخذت نعيمة تدفع عنها الدنانير وهي تصيح: .خلوها في قفاكم.

لم يعيروها انتباهاً إنما استمروا في ضحكهم الهستيري الذي أرعبها وجعلها ترتد إلى الباب أكثر. ثم سمعت صوتاً خلفها. كان غجرياً ينهض من تابوته. ينزع دشداشة من الحرير. سألته:

-هل أنت علي؟

ابتسم لها وظهرت أسنانه الذهبية. حرّكت يدها بامتعاض. فقال لها:

fb/the.boooks

-أوصاني علي ان أكون علياً.

وأشارت بيدها إلى الربابة التي يحملها بين يديه. ففهم الغجري أنّها تسخر منه. مسك الربابة بقوة فتحولت إلى رشّاشة. اضطربت سليمة. ثم فرحت عندما لمحت السلاح في يده. غادر الغجري مكانه وعندما أصبح في الشارع صاح به الخليجيون:

-عجّل. يُبه عجّل. خلينا ننيكها من طيزها.

ضحك الغجري واتجه إلى الشجرة حيث شُدّ عبد الحسن. غادر الرجال ذوو البذلات الرمادية أماكنهم واقتربوا من الخليجيين. مدّ الغجري يده إلى نعيمة ورفعها عن الأرض. فكّ وثاق عبد الحسن. وعندما انتهى من ذلك صوّب رشاشته إلى الرجال المتجمعين أمامه وراح يمطرهم برصاصه. لقد وصلت رصاصاته الخليجيين الذين كلما سقط أحد منهم انتصب آخر خلفه. ومن مكانها صاحت سليمة بصوت لم تستطع إخراجه من فمها: حيل. حيل.

ومع صوت الإطلاقات يزداد صياح الخليجيين:

-عجلي يُبه. دوري وادخلي غرفتك. خلينا ننيك من الوراء. دوري راوينا عزك.

ومع الوقت تحاول جاهدة إخراج صوتها لكنها لا تستطيع. ضغطت على نفسها وحاولت أن تصرخ بصوت عال. لم تستطع. جربت في المرة الأخرى الهرولة باتجاه الخليجيين. ولكن ساقيها لم تطاوعاها هذه المرة. ما الذي حصل لها. هل هي تحلم؟ تريد أن تعرف، فتسقط في مكانها. تحاول النهوض. بل تحاول الصراخ، وفي تلك اللحظة تحس بيد تهزها بخفة وبصوت فيه حياة:

-سليمة. سليمة.

فتحت عينيها فرأت علي واقفاً بجانبها وقد لبس ملابسه المدنية. مدّت يدها إليه وقالت له:

-علي تعال بوسني.

ضحك وقال:

fb/the.boooks

-إذا قمت من الفراش.

دفعت بالإزار عنها. ووقفت أمامه عارية. أصبحت بمواجهته. طوّقته بذراعيها وألقت برأسها فوق كتفه، وراحت تحرك جبهتها على كتفه، فيما خرج صوتها حزيناً:

-آخ علي. الحياة صعبة. لو بيدي أضمّك في روحي.

سكنا وظلاّ واقفين وقد احتضن أحدهما الآخر. واقفين وسط الغرفة بلا حراك. وفي رأسها يدور حلم الليلة الفائتة، فيما راحت فكرة البقاء في الحي تجوب رأس علي وتطن كذبابة. لقد كان متناقضاً في داخله؛ فهو ليس متأكداً تماماً بأنّه يود البقاء هنا فعلاً، وما أفصح عنه البارحة مجرد رغبة يملؤها تولهه العارم بسليمة. صحيح أنّه مستعد للمغامرة إلا أنّ هناك أموراً أخرى عزيزة عليه. أهله مثلاً. كم بوده موازنة حاله الآن. وكلما طنّت فكرة البقاء في رأسه، راحت يده الناعمة تمسد شعرها الذي استقر فوق كتفها كالليل. وكلما ضمّها إليه، ازداد الشعور عنده في ألا يفقدها. لقد فقد الكثير في حياته .وهذه المرة عليه أن لا يفعل. ربما تمنع سليمة عنه موته المحّتم؟ ازدادت سرعة أنفاسه التي شعر بها تصعد إلى أذنيه. ولم يقطع فوضى خواطره سوى صوت جلال الذي وقف عند الباب بوجه مرح ونظيف؛ إذ يبدو أنّه قد استحم وحلق في الصباح الباكر:

-عجّل يا عريس.

ابتسم وقال لها.

-عليّ الخروج لهم .

فسألته:

-تسافرون اليوم؟

فأجاب:

-لا أدري.

اتجه إلى خارج الغرفة يتبع جلال، فصاحت به بصوت ربما لم يسمعه علي لأنّه أصبح خارج الغرفة:

fb/the.boooks

-إذا سافرتم فمع السلامة.

ألقت شمس النهار أشعتها على الحي. وعند الساحة ارتطم شعاعها في الجدار الطيني، الذي أخذ يعكس ظلال الرجال الأربعة الذين وقفوا عند الباحة.

لقد بدوا مرحين كالنهار. وبين لحظة وأخرى تنطلق ضحكة وجلة من أحدهم .باستثناء عبد الحسن الذي كان يضحك بحذر وقد بدا مهموماً بعض الشيء. ولكنه لم يشأ إزعاجهم فقد اقترح:

-ما هو رأيكم أن نأكل تشريب عند سي محمود؟

فضحك جلال:

-اقتراح حلو.

ثم تساءل: سي محمود؟ مصريون في حي الطرب؟

فأجاب عبد الحسن ساخرا باللهجة المصريةً:

-أُمّال.

أصبحوا خارج الدار، ومثلما بدأ النهار بعمله دبّت الحركة في شوارع الحي. ففي الطرقات توزع الأطفال يمارسون لعبهم، فيما جلس الشيوخ قبالة البيوت الواطئة. وعند بعض العتبات وقفت بعض الغجريات والعاهرات، فمن السهولة للقادم أن يرى وجوه تلك النساء، اللواتي جئن إلى حي الطرب من بغداد أو البصرة، اللواتي لم يكنّ في الأصل غجريات.

باستثناء علي الذي لبس ملابسه المدنية وعبد الحسن الذي ارتدى ملابس الغجريين وظهر ربما مضحكاً... فقد لفت منظر جلال وعدنان الشيوخ والنساء لأنّهم ظلّوا في زيهم العسكري، ليس حباً به، إنما لعدم وجود ملابس مدنية عندهم. لقد لاحظ عبد الحسن ذلك، ورغم علمه صعوبة أن يظهر الآخرون بهذه الملابس، زائداً النتائج التي قد تترتب على ذلك إذا ما قدم رجال السلطة هنا، فإنّه لم يشأ مصارحتهم في الموضوع لكي لا يزيد إرباكهم. هذا أولاً، وثانياً، رغم أنّه كان بإمكانه إعارتهم ملابس غجرية، إلا أنّه ظنّ أنّ تلك الملابس أكثر إثارة ولا سيّما أنّ أهالي الحي يعرفون

fb/the.boooks

كل صغيرة وكبيرة ويعرفون كل قادم. فحتى وجهه الذي أصبح مع الوقت عادياً بالنسبة إليهم، لم يصبح كذلك لولا أنّه قدم منذ سنوات إلى هنا. وبالذات قبل الحرب. ولقد قبلوه عندما قرر العيش مع نعيمة. فالغجر يحترمون هكذا رجالاً يتركون حياة المدينة ويأتون للعيش معهم. يحفظون أسرارهم. ومع الوقت تكيف مع حياتهم وأصبح في سلوكه شبيهاً بهم. يقيناً أنّ ذلك استغرق وقتاً طويلاً إلا أنّه استطاع أن ينصهر في مجتمعهم، حتى إنّهم لم يحسبوا يوماً أنّه ليس غجرياً .وحتى المصريون اعتقدوا أنّه غجري.

أصبحوا عند نهاية الشارع الذي ينتهي بأزقة الحي، وينفتح على الخلاء الممتد حيث الشارع الرئيسي المؤدي إلى مدينة الزبير ومنه إلى مدينة البصرة .وعند نهاية الشارع انتشرت بعض المحلات التي لم تكن كثيرة، مطعمان أحدهما للمشويات والآخر لمختلف المأكولات. وبجانب المطعم حلاق. وعلى يمين مطعم المشويات مقهى صغير تقف عنده السيارات القادمة من وإلى الزبير. وفي اللحظة التي دخلوا بها المطعم، كان المقهى مشغولاً بنفر قليل من الغجر الذين ينتظرون السيارات من أجل السفر إلى الزبير.

دخلوا إلى مطعم سي محمود. جلسوا في مقدمة المطعم. صاح عبد الحسن:

-أربعة تشريب يا سي محمود.

فأجابه:

-بعيني.

ثم هتف جلال من مكانه:

-لا تنس البصل.

ظلوا للحظة صامتين. كان المطعم فارغاً؛ إذ كان الوقت مبكراً لأولئك الذين سيأتون بالتأكيد من البصرة إلى الزبير. سحب جلال عبد الحسن إليه، وهمس في أذنه بصوت لم يسمعه الآخران:

-بودي أن تدلنا على مهربين يستطيعون تهريبنا إلى الكويت أو السعودية.

fb/the.boooks

فأجابه:

-حسناً. سنتحدث بالأمر بعد الأكل.

وعندما أراد عدنان أن يسأل عما يدور بين الاثنين حمل لهم سي محمود صحون التشريب. وضع الأطباق أمام كل واحد منهم ثم ذهب ليحمل لهم قطع البصل التي وضعها في صحن صغير.

علّق علي:

-إذا حضر الهرس، بطل الدرس.

-سليمة. سليمة.

فتحت عينيها فرأت علي واقفاً بجانبها وقد لبس ملابسه المدنية. مدّت يدها إليه وقالت له:

-علي تعال بوسني.

ضحك وقال:

-إذا قمت من الفراش.

دفعت بالإزار عنها. ووقفت أمامه عارية. أصبحت بمواجهته. طوّقته بذراعيها وألقت برأسها فوق كتفه، وراحت تحرك جبهتها على كتفه، فيما خرج صوتها حزيناً:

-آخ علي. الحياة صعبة. لو بيدي أضمّك في روحي.

سكنا وظلاّ واقفين وقد احتضن أحدهما الآخر. واقفين وسط الغرفة بلا حراك. وفي رأسها يدور حلم الليلة الفائتة، فيما راحت فكرة البقاء في الحي تجوب رأس علي وتطن كذبابة. لقد كان متناقضاً في داخله؛ فهو ليس متأكداً تماماً بأنّه يود البقاء هنا فعلاً، وما أفصح عنه البارحة مجرد رغبة يملؤها تولهه العارم بسليمة. صحيح أنّه مستعد للمغامرة إلا أنّ هناك أموراً أخرى عزيزة عليه. أهله مثلاً. كم بوده موازنة حاله الآن. وكلما طنّت فكرة البقاء في رأسه، راحت يده الناعمة تمسد شعرها الذي استقر فوق كتفها كالليل. وكلما ضمّها إليه، ازداد الشعور عنده في ألا يفقدها. لقد فقد الكثير في حياته .وهذه المرة عليه أن لا يفعل. ربما تمنع سليمة عنه

fb/the.boooks

موتـه المحّـتم؟ ازدادت سـرعة أنفاسـه التـي شـعر بهـا تصـعد إلـى أذنيـه. ولـم يقطـع فوضـى خـواطره سـوى صـوت جـلال الـذي وقـف عنـد البـاب بوجـه مرح ونظيف؛ إذ يبدو أنّه قد استحم وحلق في الصباح الباكر:

-عجّل يا عريس.

ابتسم وقال لها.

-عليّ الخروج لهم .

فسألته:

-تسافرون اليوم؟

فأجاب:

-لا أدري.

اتجـه إلـى خـارج الغرفـة يتبـع جـلال، فصـاحت بـه بصـوت ربمـا لـم يسـمعه علي لأنّه أصبح خارج الغرفة:

-إذا سافرتم فمع السلامة.

ألقـت شـمس النهـار أشـعتها علـى الحـي. وعنـد السـاحة ارتطـم شـعاعها فـي الجـدار الطينـي، الـذي أخـذ يعكـس ظـلال الرجـال الأربعـة الـذين وقفـوا عنـد الباحة.

لقـد بـدوا مـرحين كالنهـار. وبـين لحظـة وأخـرى تنطلـق ضـحكة وجلـة مـن أحدهم .باستثناء عبد الحسن الذي كان يضحك بحذر وقد بدا مهموماً بعض الشيء. ولكنه لم يشأ إزعاجهم فقد اقترح:

-ما هو رأيكم أن نأكل تشريب عند سي محمود؟

فضحك جلال:

-اقتراح حلو.

ثم تساءل: سي محمود؟ مصريون في حي الطرب؟

fb/the.boooks

فأجاب عبد الحسن ساخرا باللهجة المصريةً:

-أُمّال.

أصبحوا خارج الدار، ومثلما بدأ النهار بعمله دبّت الحركة في شوارع الحي. ففي الطرقات توزع الأطفال يمارسون لعبهم، فيما جلس الشيوخ قبالة البيوت الواطئة. وعند بعض العتبات وقفت بعض الغجريات والعاهرات، فمن السهولة للقادم أن يرى وجوه تلك النساء، اللواتي جئن إلى حي الطرب من بغداد أو البصرة، اللواتي لم يكنّ في الأصل غجريات.

باستثناء علي الذي لبس ملابسه المدنية وعبد الحسن الذي ارتدى ملابس الغجريين وظهر ربما مضحكاً... فقد لفت منظر جلال وعدنان الشيوخ والنساء لأنّهم ظلّوا في زيهم العسكري، ليس حباً به، إنما لعدم وجود ملابس مدنية عندهم. لقد لاحظ عبد الحسن ذلك، ورغم علمه صعوبة أن يظهر الآخرون بهذه الملابس، زائداً النتائج التي قد تترتب على ذلك إذا ما قدم رجال السلطة هنا، فإنّه لم يشأ مصارحتهم في الموضوع لكي لا يزيد إرباكهم. هذا أولاً، وثانياً، رغم أنّه كان بإمكانه إعارتهم ملابس غجرية، إلا أنّه ظنّ أنّ تلك الملابس أكثر إثارة ولا سيّما أنّ أهالي الحي يعرفون كل صغيرة وكبيرة ويعرفون كل قادم. فحتى وجهه الذي أصبح مع الوقت عادياً بالنسبة إليهم، لم يصبح كذلك لولا أنّه قدم منذ سنوات إلى هنا. وبالذات قبل الحرب. ولقد قبلوه عندما قرر العيش مع نعيمة. فالغجر يحترمون هكذا رجالاً يتركون حياة المدينة ويأتون للعيش معهم. يحفظون أسرارهم. ومع الوقت تكيف مع حياتهم وأصبح في سلوكه شبيهاً بهم. يقيناً أنّ ذلك استغرق وقتاً طويلاً إلا أنّه استطاع أن ينصهر في مجتمعهم، حتى إنّهم لم يحسبوا يوماً أنّه ليس غجرياً .وحتى المصريون اعتقدوا أنّه غجري.

أصبحوا عند نهاية الشارع الذي ينتهي بأزقة الحي، وينفتح على الخلاء الممتد حيث الشارع الرئيسي المؤدي إلى مدينة الزبير ومنه إلى مدينة البصرة .وعند نهاية الشارع انتشرت بعض المحلات التي لم تكن كثيرة، مطعمان أحدهما للمشويات والآخر لمختلف المأكولات. وبجانب المطعم حلاق. وعلى يمين مطعم المشويات مقهى صغير تقف عنده السيارات القادمة من وإلى الزبير. وفي اللحظة التي دخلوا بها المطعم، كان المقهى

fb/the.boooks

مشغولاً بنفر قليل من الغجر الذين ينتظرون السيارات من أجل السفر إلى الزبير.

دخلوا إلى مطعم سي محمود. جلسوا في مقدمة المطعم. صاح عبد الحسن:

-أربعة تشريب يا سي محمود.

فأجابه:

-بعيني.

ثم هتف جلال من مكانه:

-لا تنس البصل.

ظلوا للحظة صامتين. كان المطعم فارغاً؛ إذ كان الوقت مبكراً لأولئك الذين سيأتون بالتأكيد من البصرة إلى الزبير. سحب جلال عبد الحسن إليه، وهمس في أذنه بصوت لم يسمعه الآخران:

-بودي أن تدلنا على مهربين يستطيعون تهريبنا إلى الكويت أو السعودية.

فأجابه:

-حسناً. سنتحدث بالأمر بعد الأكل.

وعندما أراد عدنان أن يسأل عما يدور بين الاثنين حمل لهم سي محمود صحون التشريب. وضع الأطباق أمام كل واحد منهم ثم ذهب ليحمل لهم قطع البصل التي وضعها في صحن صغير.

علّق علي:

-إذا حضر الهرس، بطل الدرس.

شرعوا في الأكل. ولم تخرج أفواههم سوى صوت مضغ الثريد. لقد أقبل الجميع على أكل التشريب بشهية، باستثناء عبد الحسن الذي بدا ساهماً منشغلاً إلى حد ما. لقد قلب الأمر على وجهه. يقيناً أنّ كلام جلال لم يكن عبثاً .ولكنه سيسأل الآخرين بعد ذلك، فيما إذا كانوا يودون مغادرة العراق. فعدنان يبدو مزمعاً على أمور أخرى. وهو عبد الحسن بماذا

fb/the.boooks

يفكر؟ نظر عبد الحسن إلى وجه علي الذي مسح عينه الآن بطرف يده. وفكر ألا يشبه وضعه وضع علي الذي لم يبح إلا بالقليل، والذي بدا بلا مشاريع تماماً. وبحس العارف راوده اعتقاد قوي بأنّ الأمر سواء لعلي، أبَقي في العراق أم غادره. إنّه في الحالة نفسها التي ردّد فيها المتنبي:

أياً شئت يا طرقاً فكوني

هلاكاً أم نجاةً أم مماتا

ولماذا علي فقط؟ ألا يعيش هو الحالة ذاتها؟ ترى ما الذي يفعله في هذا الحي؟ حسناً لقد أحبّ نعيمة وهل يكفي ذلك؟ ولكن لو كان وضعه يختلف عما هو الآن هل تراه أذعن لاشتراطات الغجر عليه بالبقاء ومنع نعيمة من السفر معه .ولن ينفعه تفسير بقائه بوجوب اقتناعه بما يطلبه الغجر؛ لصعوبة تنازلهم عن وسيلة إنتاجهم الوحيدة وهي المرأة. وبغرابة تلك التجربة، التي استحوذت عليه برومانسيتها، زائداً وضعه غير المعروف آنذاك، فلقد كان مطلوباً من قبل السلطة، وقد سافر الكثير من رفاقه إلى المنفى، إلى أوروبا وآسيا. وهو ارتضى اختيار هذا المنفى مع عوده؛ أو على الأقل لم يختره بحرية إنما قبله. لقد قبل هذا المنفى وقبل أن يصبح عازف العود الذي يجعل الكويتيين والسعوديين وكل الخليجيين وأزلام السلطة ومقاولي العراق الجدد يطربون على أنغام وتره الذي ترقص معه نعيمة وسليمة والغجريات الأخريات. والآن يدرك كيف أتى إلى سجن آخر، لكن جدرانه من ذهب. هل يختار الهروب معهم؟ هل عليه الهروب دائماً ؟ كيف سمح لنفسه بإطراب أولئك المخمورين الذين كانوا يهزّون كروشهم على موسيقاه الأخيرة. الآن يدرك كم هو مؤلم هذا الجرح الذي ينفتح مرة واحدة، ويهيج كلما حاول تهدئته في الأيام، وبالقدر الذي يزيد الكابوس عليه الآن هجومه، كلما حاول صعب عليه دفع اللقمة إلى بلعومه. وفجأة شعر أنّه لا يستطيع البقاء طويلاً. توقفت يده عن تناول الطعام. وللحظة شعر بأنّ قواه تخور فأخرج صوتاً ضعيفاً:

-أخرجوني إلى البيت.

توقفوا عن الأكل. واتجه عدنان وعلي بسرعة ليغسلا أيديهم، تاركين جلال بجانبه. أمسكه بيده النظيفة. رجع عدنان وعلي، ثم رفعا عبد الحسن بصورة لم تثر صاحب المطعم وقال جلال لهم:

-سألحق بكم. سأدفع ثمن الأكل.

fb/the.boooks

اتكأ عبد الحسن عليهما بالتناوب. وفي الطريق راحا يهدئانه:

-شد حيلك.

فقال يشكو:

-أشعر بوعكة ستذهب بعد لحظات.

سار على مهل في الطريق. ومن مكانه لمحهم جلال الذي كان يقف قبالة سي محمود وهو يسأله بحذر:

-تعرف مهربين إلى الكويت؟

فاستنكر سي محمود قائلاً:

-الله يا بيه. أعوذ بالله.

فأخرج جلال من جيبه كمية من النقود وهو ينظر يميناً ويساراً، ثم لوّح لسي محمود بالنقود .

-ها ما رأيك؟

فأجاب الآخر بحذق:

-خلاص. الليلة نكون عندك.

فأكّد له:

-في بيت عبد الحسن.

فقال:

-خلاص. عن كل نفر مائة وخمسون دينار.

فأجابه جلال:

-لا يهم.

ثم ودّعه وذهب ليلحق بالآخرين الذين كانوا يسيرون ببطء. ومن الفضاء، أتتهم أصوات طائرات. نظروا إلى الأعلى، فصاح جلال:

fb/the.boooks

-آخ إنّها سوداء.

فعلق عدنان ساخراً:

-هل هناك صفّارة إنذار؟

حاول عبد الحسن انتزاع ابتسامة من شفتيه لكنه لم يستطع سوى التعليق بوهن بالغ:

-إنّ الطائرة أسرع. لقد عشت ذلك قبل أيام في البصرة. فكيف هنا؟ في البصرة لا يسمع الناس صوت الصفّارة إلا عندما تكون الطائرة قد انتهت من قصفها .

وعندما انتهى من جملته لم يضحك له سوى جلال، الذي كان مسروراً لعثوره على مُهرِّب، وكذلك لأنّه يعتقد أنّه يخبئ لهم مفاجأة ثانية.

استقبلتهما نعيمة عند باب الدار وسألت وهي تشهق:

-خير إن شاء الله..

فقال عدنان:

-لا شيء. بسيطة.

واتجهوا به إلى الغرفة. اتكأ عبد الحسن بجذعه إلى مخدة وضعها جلال خلف ظهره. مسح وجهه بمنشفة كانت بجانبه. ومن سترة عُلقت فوق رأسه سحب علبة سجائر. قدم لهم وأخذ واحدة لنفسه. تناول عدنان وجلال سيجارتين. فيما امتنع علي. أشعلوا سجائرهم، وإذ هدأ عبد الحسن بعض الشيء سأل:

-قولوا لي ما هي مشاريعكم؟ اعتبروني منذ الآن واحداً منكم.

ظلّوا صامتين. جلال ــ ربما ــ الوحيد من بينهم الذي يعرف ماذا يفعل ولكنه لم يشأ أن يبوح بمفاجأته.

قطع صمتهم عبد الحسن مرة أخرى:

fb/the.boooks

-اسمعوا. أستطيع مساعدتكم بحدود الممكن. ولكني لا أعرف كيف أساعد نفسي أيضاً. إنّ الأمر قد تعقد بعد الحرب. ففي الأيام الأخيرة كثرت دورياتهم. إنّ بقاءكم مستحيل هنا.

وبين لحظة وأخرى يتوقف عبد الحسن عن كلامه ليرى ردود أفعالهم. لقد كانوا صامتين وكأنهم رميوا أمامه. رميوا بدون عزاء أو تبرير. مغلفون بالصمت والرهبة. رميوا وكأن ليس من واجب عيونهم إلا التحديق بالفراغ. كأن ما من سلوى تستطيع تحريك قسمات وجوههم، التي تقلصت وتهالكت على بعضها، كأن التجاعيد قد انحصرت فيها منذ القدم وإلى الأبد. مقذوفون في ذلك الحي كأنهم وجُدوا في مكان بلا ريح، بلا ليل. بل بلا نهاية. حتى هذا الصباح الذي بدا نشطاً ومكتظاً بأصوات الأطفال والعاهرات والغجر لم يمنحهم عزاءً. بل العكس فقد زادهم حزناً، حزناً انحفر عميقاً في دواخلهم ليصفر هناك بصوت يفوق صوت الطائرات، التي راحت تحلق فوق الحي مرة أخرى ثم تبتعد عنه، أتت وذهبت وكأنها لا تعنيهم أبداً. لقد فقدت عيونهم البريق. وبدت وجوههم وهي تصغي لعبد الحسن كوجوه خيول جريحة تنتظر طلقة الرحمة أو كأيل سدّ الصيادون عليه الطريق، وظلّ واقفاً وسط دائرة الرجال المحيطين به وكأنه يختصر العالم عند تلك النقطة، والتي لن يغادرها أبداً. فهو يعرف أنّه، بمغادرته

هلاكاً أم نجاةً أم مماتا

ولماذا علي فقط؟ ألا يعيش هو الحالة ذاتها؟ ترى ما الذي يفعله في هذا الحي؟ حسناً لقد أحبّ نعيمة وهل يكفي ذلك؟ ولكن لو كان وضعه يختلف عما هو الآن هل تراه أذعن لاشتراطات الغجر عليه بالبقاء ومنع نعيمة من السفر معه .ولن ينفعه تفسير بقائه بوجوب اقتناعه بما يطلبه الغجر؛ لصعوبة تنازلهم عن وسيلة إنتاجهم الوحيدة وهي المرأة. وبغرابة تلك التجربة، التي استحوذت عليه برومانسيتها، زائداً وضعه غير المعروف آنذاك، فلقد كان مطلوباً من قبل السلطة، وقد سافر الكثير من رفاقه إلى المنفى، إلى أوروبا وآسيا. وهو ارتضى اختيار هذا المنفى مع عوده؛ أو على الأقل لم يختره بحرية إنما قبله. لقد قبل هذا المنفى وقبل أن يصبح عازف العود الذي يجعل الكويتيين والسعوديين وكل الخليجيين وأزلام السلطة ومقاولي العراق الجدد يطربون على أنغام وتره الذي ترقص معه نعيمة وسليمة والغجريات الأخريات. والآن يدرك كيف أتى إلى سجن آخر، لكن جدرانه من ذهب. هل يختار الهروب معهم؟ هل عليه الهروب دائماً ؟ كيف سمح لنفسه بإطراب أولئك المخمورين الذين كانوا يهزّون

fb/the.boooks

كروشهم على موسيقاه الأخيرة. الآن يدرك كم هو مؤلم هذا الجرح الذي ينفتح مرة واحدة، ويهيج كلما حاول تهدئته في الأيام، وبالقدر الذي يزيد الكابوس عليه الآن هجومه، كلما حاول صعب عليه دفع اللقمة إلى بلعومه. وفجأة شعر أنّه لا يستطيع البقاء طويلاً. توقفت يده عن تناول الطعام. وللحظة شعر بأنّ قواه تخور فأخرج صوتاً ضعيفاً:

-أخرجوني إلى البيت.

توقفوا عن الأكل. واتجه عدنان وعلي بسرعة ليغسلا أيديهم، تاركين جلال بجانبه. أمسكه بيده النظيفة. رجع عدنان وعلي، ثم رفعا عبد الحسن بصورة لم تثر صاحب المطعم وقال جلال لهم:

-سألحق بكم. سأدفع ثمن الأكل.

اتكأ عبد الحسن عليهما بالتناوب. وفي الطريق راحا يهدئانه:

-شد حيلك.

فقال يشكو:

-أشعر بوعكة ستذهب بعد لحظات.

سار على مهل في الطريق. ومن مكانه لمحهم جلال الذي كان يقف قبالة سي محمود وهو يسأله بحذر:

-تعرف مهربين إلى الكويت؟

فاستنكر سي محمود قائلاً:

-الله يا بيه. أعوذ بالله.

فأخرج جلال من جيبه كمية من النقود وهو ينظر يميناً ويساراً، ثم لوّح لسي محمود بالنقود .

-ها ما رأيك؟

فأجاب الآخر بحذق:

-خلاص. الليلة نكون عندك.

fb/the.boooks

فأكّد له:

-في بيت عبد الحسن.

فقال:

-خلاص. عن كل نفر مائة وخمسون دينار.

فأجابه جلال:

-لا يهم.

ثم ودّعه وذهب ليلحق بالآخرين الذين كانوا يسيرون ببطء. ومن الفضاء، أتتهم أصوات طائرات. نظروا إلى الأعلى، فصاح جلال:

-آخ إنّها سوداء.

فعلق عدنان ساخراً:

-هل هناك صفّارة إنذار؟

حاول عبد الحسن انتزاع ابتسامة من شفتيه لكنه لم يستطع سوى التعليق بوهن بالغ:

-إنّ الطائرة أسرع. لقد عشت ذلك قبل أيام في البصرة. فكيف هنا؟ في البصرة لا يسمع الناس صوت الصفّارة إلا عندما تكون الطائرة قد انتهت من قصفها .

وعندما انتهى من جملته لم يضحك له سوى جلال، الذي كان مسروراً لعثوره على مُهرِّب، وكذلك لأنّه يعتقد أنّه يخبئ لهم مفاجأة ثانية.

استقبلتهما نعيمة عند باب الدار وسألت وهي تشهق:

-خير إن شاء الله..

فقال عدنان:

-لا شيء. بسيطة.

fb/the.boooks

واتجهوا به إلى الغرفة. اتكأ عبد الحسن بجذعه إلى مخدة وضعها جلال خلف ظهره. مسح وجهه بمنشفة كانت بجانبه. ومن سترة عُلقت فوق رأسه سحب علبة سجائر. قدم لهم وأخذ واحدة لنفسه. تناول عدنان وجلال سيجارتين. فيما امتنع علي. أشعلوا سجائرهم، وإذ هدأ عبد الحسن بعض الشيء سأل:

-قولوا لي ما هي مشاريعكم؟ اعتبروني منذ الآن واحداً منكم.

ظلّوا صامتين. جلال ــ ربما ــ الوحيد من بينهم الذي يعرف ماذا يفعل ولكنه لم يشأ أن يبوح بمفاجأته.

قطع صمتهم عبد الحسن مرة أخرى:

-اسمعوا. أستطيع مساعدتكم بحدود الممكن. ولكني لا أعرف كيف أساعد نفسي أيضاً. إنّ الأمر قد تعقد بعد الحرب. ففي الأيام الأخيرة كثرت دورياتهم. إنّ بقاءكم مستحيل هنا.

وبين لحظة وأخرى يتوقف عبد الحسن عن كلامه ليرى ردود أفعالهم. لقد كانوا صامتين وكأنهم رميوا أمامه. رميوا بدون عزاء أو تبرير. مغلفون بالصمت والرهبة. رميوا وكأن ليس من واجب عيونهم إلا التحديق بالفراغ. كأن ما من سلوى تستطيع تحريك قسمات وجوههم، التي تقلصت وتهالكت على بعضها، كأن التجاعيد قد انحصرت فيها منذ القدم وإلى الأبد. مقذوفون في ذلك الحي كأنهم وجُدوا في مكان بلا ريح، بلا ليل. بل بلا نهاية. حتى هذا الصباح الذي بدا نشطاً ومكتظاً بأصوات الأطفال والعاهرات والغجر لم يمنحهم عزاءً. بل العكس فقد زادهم حزناً، حزناً انحفر عميقاً في دواخلهم ليصفر هناك بصوت يفوق صوت الطائرات، التي راحت تحلق فوق الحي مرة أخرى ثم تبتعد عنه، أتت وذهبت وكأنها لا تعنيهم أبداً. لقد فقدت عيونهم البريق. وبدت وجوههم وهي تصغي لعبد الحسن كوجوه خيول جريحة تنتظر طلقة الرحمة أو كأيل سدّ الصيادون عليه الطريق، وظلّ واقفاً وسط دائرة الرجال المحيطين به وكأنه يختصر العالم عند تلك النقطة، والتي لن يغادرها أبداً. فهو يعرف أنّه، بمغادرته لها أولاً، سيسقط لا محالة. لقد تداخلت الجبهة الآن بوحدتها العسكرية وجنودها ومدفعيتها وآلياتها وطياراتها لتصبح فقط هذه المساحة التي يجلسون فوقها .ولقد حيّرهم فعلاً سؤال عبد الحسن، خاصة عدنان وعلي. ماذا سيفعلون؟ الموت من أمامكم والعدو من ورائكم! لقد سخروا من تلك الجملة عندما سمعوها في دروس التاريخ. ولكن ها هم قد قُذفوا في وضع

fb/the.boooks

لا يحسدهم عليه جنود طارق بن زياد ذاته. في تلك اللحظة أيضاً بدت (إن ليس لكلهم فلبعضهم على الأقل) كم حقيرة ودجّالة كتب التاريخ التي لم تذكر بتاتاً أولئك الذين بكوا أو انتحروا أو تمردوا. لم يسمعوا سوى عن عظمة أولئك الجنود مثلما تتحدث الجرائد الآن عن معجزة الجندي العراقي، الذي استطاع قتل مجموعة كبيرة من الإيرانيين عندما باغتوه وهو يغتسل؛ فلوّح لهم بالصابونة التي ظنّوها قنبلة يدوية. ترى ماذا ستكتب كتب التاريخ؟ بل ماذا يقول البلاغ العسكري هذا اليوم؟ هل يذكر الجنود الثلاثة الجالسين الآن في حي الطرب؟ ربما بعد سنوات، يسأل أحدهم (إذا ما حدثت حرب أخرى) عنهم؟ يقيناً سيفكر أحد بهم، أحد سيعيش حالة شبيهة بحالتهم .سيُقذف مثلما قُذفوا هم الآن. مع كل دقة في الساعة يضرب نبضهم بسرعة وبحماسة موجعتين. لقد أعلنت قلوبهم الحرب وراحت الآلام تنتشر في الأوعية والشرايين ككتائب حرب تتوزع وتفتح أنابيب الرأس الساخنة. تشحن كل ما علق في زوايا الرأس من ذكريات الطفولة والشباب. لقد استنفر عبد الحسن بسؤاله حواسّهم التي أخذت تعمل بصخب وحماسة منقطعي النظير. أحياناً تضغط أياديهم على رؤوسهم لتعصرها. آه لو استطاعوا لمدّوا أياديهم إلى الداخل واستلّوا ما علق هنا من عذاب ورموه بعيداً. مالت رؤوسهم في أحيان أخرى كنخلة حركتها ريح خفيفة. ومع تلك الحركة حلّقت أجسامهم قليلاً عن الأرض لا لتهرب بعيداً بل لتمسك جواباً ما انتشر هناك أو رُمي أمامهم، خلفهم، فوقهم، تحتهم. رُمي وربما لم يروه. وإذا ما قال أحد لهم هل ذلك من المنطق، فسيجيبونه (يقيناً. (وهل من المنطق أن نُقذف في هذه الحرب؟. وإذا ما رجعت أجسامهم من رحلتها القصيرة فلأن عبد الحسن أعاد عليهم للمرة الرابعة:

-ماذا في نيتكم أن تفعلوا؟

فأجاب عدنان: سنبقى هذه الليلة على الأقل. وسنقرر فيها ماذا سنفعل.

فقال عبد الحسن:

-حسناً. ابقوا في البيت أحسن. فمن الممكن أن تأتي إحدى الدوريات إذا ما ذهبتم إلى الخارج. وإذا ما جاءوا في الليل إلى هنا فلا أنصحكم بالجلوس بملابسكم العسكرية.

fb/the.boooks

ابتسم جلال، لأنّه كان مطمئناً أنّه سيفاجئهم هذا المساء بالمهربين، وسيتجهون إلى الكويت ويخلصوا. أما ماذا سيفعلون هناك؟ فهو لا يعرف جواباً محدداً. ليكن ما يكون.

أشعلوا سجائر جديدة، بعد أن رموا سجائرهم القديمة قبل لحظات.

نظر جلال إلى عدنان وسأله بحذر:

-أريد أن أسألك ولكني متردد.

تنحنح عبد الحسن وأجابه:

-خذ حريتك.

فأجابه جلال:

-ولا تهون. ما الذي حملك إلى حي الطرب؟

ضحك عبد الحسن ونظر إلى عدنان وكأنه يسأله عن جلال:

-آخ إنّها قصة طويلة.

فسأله علي:

-هل أنت هارب مثلنا؟

فقال جلال ضاحكاً:

-أرجوك لم يمض علينا أحد عشر يوماً لندخل في سجل الهروب كما هو حال العُرف العسكري.

سكتوا وحدّقوا كلهم بعبد الحسن ينتظرون أن يروي قصته. أطفأ عبد الحسن سيجارته على الأرض بجانبه. وبدأ:

-لقد جئت كما قلت قبل سنوات. كان ذلك قبل الحرب، وقبلها اشتغلت في الإذاعة. أنا فنان. كنت أعزف على العود وقد لحنت بعض الأغاني التي تعرفونها. ولكنهم أخرجوني مع الكثيرين لأنّنا لسنا في الحزب ومنعوا أغانيّ.

fb/the.boooks

فسأل جلال:

-وكيف وصلت إلى هنا؟

فأجاب:

-بالصدفة. سكرنا مرة في الأثل. وقرر الأصدقاء بعد السكر المجيء إلى حي الطرب. وهنا عشقت نعيمة. ولكن للغجر عاداتهم، فهم لايسمحون لك بأخذ المرأة معك. إذا أحببتها عليك البقاء هنا والقبول بعاداتهم. وفي المقابل ــ أقصد عندما تبقى ــ يدفعون لك أكلك وشربك وسجائرك، ولا يسمحون لأحد بالنوم مع حبيبتك. وإذا ما فعلت شيئاً آخر. إذا حاولت الهرب مع حبيبتك فالويل لك .هل رأيتم سدرة النبق الكبيرة؟

وقبل أن يجيبوا أكمل:

-هناك ربطوا سليمة لأنّها حاولت الهروب مع سلمان.

توقف قليلاً ليردف:

-الحاصل، إنّهم يعرفون ما يحصل في المدينة ولكنهم لا يعرفون ما يحصل عند الحدود العراقية الإيرانية، بالرغم من قربهم من الحدود، ومنذ سماعهم أصوات المدفعية والطائرات يعتقدون أنّه شجار سخيف عابر.

-وكيف الحياة هنا؟

هكذا سأل عدنان:

-أعني كيف يعيش الناس هنا؟

يجيبه عبد الحسن بإسهاب:

-الآن اختلف الوضع عما كان سابقاً. بعد إغلاق المنزول في البصرة في شارع بشّار، تمّ ترحيل عاهرات ساحة الميدان من مكانهن مقابل وزارة الدفاع إلى هنا. لا تنسوا إغلاق منطقة 52 في بغداد أيضاً. كل ذلك حمل الكثير من العاهرات للمجيء إلى حي الطرب. جاءت العاهرات مع عاداتهن وتقاليدهن التي تختلف عن عادات الغجر. مع مجيئهن دخلت كلمات جديدة في قاموس الغجر. ولكن المصيبة الكبرى هي مجيء المصريين إلى الحي. لقد بدأ القوادون المصريون مع عاهراتهم بمنافسة

fb/the.boooks

الناس هنا. لا تنسوا أنّهم أكثر تمرساً وحيلة. لوقت قريب كانت العداوات غير ظاهرة، ولكن مع اندلاع الحرب قلّ عدد الكويتيين والسعوديين، وبقية الخليجيين أو في الأصح قلّ عدد الزبائن بصورة عامة، الزبائن الدائمون في الفترة الأخيرة هم فقط أزلام السلطة والأمن. وكما تعرفون هؤلاء لم يتعودوا الدفع. الغجر لا يخافون لأنّهم لم يخضعوا لحد الآن لغرور وصلف أزلام السلطة، وبالنسبة لقحبات بغداد والبصرة فإنّ أزلام السلطة هم أسوأ الزبائن، وعندما يطرقون أبوابهن، فإنّهن لا يترددن في شتمهم وطردهم.

سكت. ثم قال بلهجة حاسدة:

-إنّهن جريئات بالشتم. أنتم تعرفون حسيبة. فهي أيضاً هنا. لقد خرجت إلى مسؤول الاستخبارات قائلة إذهب ونيك قائدك.

ثم سكت ليضيف هذه المرة:

-المشكلة هنا هم المصريون. فقد راحوا ينشئون علاقات جيدة مع السلطة .وعلى هذا الأساس استلموا مطاعم الحي وكراج السيارات. وسيفتحون سوقاً هنا .وقد يصبح أحدهم مسؤولاً للحزب إذا ما فتح الحزب مقراً له هنا. لحسن الحظ فهم لا يعرفون ماضيّ. فلقد كنت هنا قبل مجيء المصريين. ولقد نسجوا علاقة معي ظانّين أنّني أحد نبلاء الغجر. ولكن بإمكانهم الغدر بي إذا ما سنحت الفرصة.

حدّق الثلاثة ببعضهم ثم بعبد الحسن الذي تابع:

-لا أدري كيف ستتطور الأمور ولكني سئمت الحياة هنا. فأنا لا أريد إطراب الخليجيين ومقاولي السلطة. بعض الأحيان يأخذني الخجل والمهانة. وذلك ما يجعلني مريضاً في أكثر الأوقات. مع الأيام يزداد قرفي.

ثم سكت ليضيف بانفعال:

-أكره أنّني تعلمت عزف العود. أكره أنّني تعرفت على هذا المكان. صحيح أنّه ملجأي. لكنه عذابي أيضاً. فأنا كمن يغادر السجن ويدخل إلى قفص جدرانه من ذهب. لقد فكرت أكثر من مرة بمغادرة الحي. ولكن إلى أين. لقد قطع أهلي علاقتهم معي لأنّني بالنسبة إليهم .كاولي. ثم إنّني مطلوب. قد يملك أبي الحق، فهو فلاّح هرم من ريف العمارة. ماذا ينفعه

fb/the.boooks

ابنه الذي فكر أنّه سيعيله في شيخوخته. ولكنه انشغل بالسياسة لينتهي في مخيم للغجر. أمي لم تفهم ذلك على الإطلاق. صحيح أنّها فهمت أنّني هارب

-خذ حريتك.

فأجابه جلال:

-ولا تهون. ما الذي حملك إلى حي الطرب؟

ضحك عبد الحسن ونظر إلى عدنان وكأنه يسأله عن جلال:

-آخ إنّها قصة طويلة.

فسأله علي:

-هل أنت هارب مثلنا؟

فقال جلال ضاحكاً:

-أرجوك لم يمض علينا أحد عشر يوماً لندخل في سجل الهروب كما هو حال العُرف العسكري.

سكتوا وحدّقوا كلهم بعبد الحسن ينتظرون أن يروي قصته. أطفأ عبد الحسن سيجارته على الأرض بجانبه. وبدأ:

-لقد جئت كما قلت قبل سنوات. كان ذلك قبل الحرب، وقبلها اشتغلت في الإذاعة. أنا فنان. كنت أعزف على العود وقد لحنت بعض الأغاني التي تعرفونها. ولكنهم أخرجوني مع الكثيرين لأنّنا لسنا في الحزب ومنعوا أغانيّ.

فسأل جلال:

-وكيف وصلت إلى هنا؟

فأجاب:

-بالصدفة. سكرنا مرة في الأثل. وقرر الأصدقاء بعد السكر المجيء إلى حي الطرب. وهنا عشقت نعيمة. ولكن للغجر عاداتهم، فهم لايسمحون لك

fb/the.boooks

بأخذ المرأة معك. إذا أحببتها عليك البقاء هنا والقبول بعاداتهم. وفي المقابل ــ أقصد عندما تبقى ــ يدفعون لك أكلك وشربك وسجائرك، ولا يسمحون لأحد بالنوم مع حبيبتك. وإذا ما فعلت شيئاً آخر. إذا حاولت الهرب مع حبيبتك فالويل لك .هل رأيتم سدرة النبق الكبيرة؟

وقبل أن يجيبوا أكمل:

-هناك ربطوا سليمة لأنّها حاولت الهروب مع سلمان.

توقف قليلاً ليردف:

-الحاصل، إنّهم يعرفون ما يحصل في المدينة ولكنهم لا يعرفون ما يحصل عند الحدود العراقية الإيرانية، بالرغم من قربهم من الحدود، ومنذ سماعهم أصوات المدفعية والطائرات يعتقدون أنّه شجار سخيف عابر.

-وكيف الحياة هنا؟

هكذا سأل عدنان:

-أعني كيف يعيش الناس هنا؟

يجيبه عبد الحسن بإسهاب:

-الآن اختلف الوضع عما كان سابقاً. بعد إغلاق المنزول في البصرة في شارع بشّار، تمّ ترحيل عاهرات ساحة الميدان من مكانهن مقابل وزارة الدفاع إلى هنا. لا تنسوا إغلاق منطقة 52 في بغداد أيضاً. كل ذلك حمل الكثير من العاهرات للمجيء إلى حي الطرب. جاءت العاهرات مع عاداتهن وتقاليدهن التي تختلف عن عادات الغجر. مع مجيئهن دخلت كلمات جديدة في قاموس الغجر. ولكن المصيبة الكبرى هي مجيء المصريين إلى الحي. لقد بدأ القوادون المصريون مع عاهراتهم بمنافسة الناس هنا. لا تنسوا أنّهم أكثر تمرساً وحيلة. لوقت قريب كانت العداوات غير ظاهرة، ولكن مع اندلاع الحرب قلّ عدد الكويتيين والسعوديين، وبقية الخليجيين أو في الأصح قلّ عدد الزبائن بصورة عامة، الزبائن الدائمون في الفترة الأخيرة هم فقط أزلام السلطة والأمن. وكما تعرفون هؤلاء لم يتعودوا الدفع. الغجر لا يخافون لأنّهم لم يخضعوا لحد الآن لغرور وصلف أزلام السلطة، وبالنسبة لقحبات بغداد والبصرة فإنّ أزلام

fb/the.boooks

السلطة هم أسوأ الزبائن، وعندما يطرقون أبوابهن، فإنّهن لا يترددن في شتمهم وطردهم.

سكت. ثم قال بلهجة حاسدة:

-إنّهن جريئات بالشتم. أنتم تعرفون حسيبة. فهي أيضاً هنا. لقد خرجت إلى مسؤول الاستخبارات قائلة إذهب ونيك قائدك.

ثم سكت ليضيف هذه المرة:

-المشكلة هنا هم المصريون. فقد راحوا ينشئون علاقات جيدة مع السلطة .وعلى هذا الأساس استلموا مطاعم الحي وكراج السيارات. وسيفتحون سوقاً هنا .وقد يصبح أحدهم مسؤولاً للحزب إذا ما فتح الحزب مقراً له هنا. لحسن الحظ فهم لا يعرفون ماضيّ. فلقد كنت هنا قبل مجيء المصريين. ولقد نسجوا علاقة معي ظانّين أنّني أحد نبلاء الغجر. ولكن بإمكانهم الغدر بي إذا ما سنحت الفرصة.

حدّق الثلاثة ببعضهم ثم بعبد الحسن الذي تابع:

-لا أدري كيف ستتطور الأمور ولكني سئمت الحياة هنا. فأنا لا أريد إطراب الخليجيين ومقاولي السلطة. بعض الأحيان يأخذني الخجل والمهانة. وذلك ما يجعلني مريضاً في أكثر الأوقات. مع الأيام يزداد قرفي.

ثم سكت ليضيف بانفعال:

-أكره أنّني تعلمت عزف العود. أكره أنّني تعرفت على هذا المكان. صحيح أنّه ملجأي. لكنه عذابي أيضاً. فأنا كمن يغادر السجن ويدخل إلى قفص جدرانه من ذهب. لقد فكرت أكثر من مرة بمغادرة الحي. ولكن إلى أين. لقد قطع أهلي علاقتهم معي لأنّني بالنسبة إليهم .كاولي. ثم إنّني مطلوب. قد يملك أبي الحق، فهو فلاّح هرم من ريف العمارة. ماذا ينفعه ابنه الذي فكر أنّه سيعيله في شيخوخته. ولكنه انشغل بالسياسة لينتهي في مخيم للغجر. أمي لم تفهم ذلك على الإطلاق. صحيح أنّها فهمت أنّني هارب من السلطة. لكن أن أذهب إلى الغجر فذلك محال. لقد زرتهم مرة سراً. ونصحتني والدتي بمغادرة البيت.

صمت. أصدر آهة صغيرة ثم أضاف بصوت حزين:

fb/the.boooks

-الأصدقاء لم يبقَ منهم أحد. لقد غادروا جميعاً العراق باستثناء اثنين آخرين. الأول أصبح موظفاً كبيراً في إذاعة بغداد، والآخر يرأس تحرير إحدى المجلات، يكتب تحقيقاته عن الحرب.

سكت ونظر إليهم وكأنه يقول ليس لدي ما أقوله. رمى جلال وعدنان سجائرهما إلى جانب. ظلّوا أيضاً ساكتين وفي تلك اللحظة دخلت نعيمة إلى الغرفة وهي تسحب رجلاً كهلاً قال لها:

-على كيفك ابنتي.

نهض جلال ليساعد الرجل الكهل الذي أشار عليه أن يبقى في مكانه وقال له بمرح:

-أنا أقوى منك. لكن ظهري اليوم أوجعني كثيراً.

جلس الرجل بجانب عبد الحسن. خرجت نعيمة من الغرفة.

لقد بدا على الرجل الكهل أنّه تعب جداً. حدّقت عيناه بالجالسين، فيما راح فكّاه يلوكان لعاباً. ومع حركة الفكين تتحرك تجاعيد وجهه الذي ربما فاق الثمانين. لقد كانت التجاعيد من التعقيد بحيث أنّها لا تعلن عن عمر محدد . وحتى تلك الثمانين بدت مضحكة وغير ذات معنى لهذا الوجه الموغل في القدم.

سكت عبد الحسن عندما جلس الرجل. لم يسكت خوفاً منه، إنما احتراماً له .ليست هي المرة الأولى التي يعيشها عبد الحسن معه. فلقد كان الرجل بصوته الخشن يؤثر على حواسه ويجعله يبكي في بعض الأحيان، مثلما يضحك أو يرتجف في المرات الأخرى. وكلما جلس الشيخ أمامه يشعر عبد الحسن كأنه بحضرة مقدسة .كما كان يشعر في طفولته عندما يزور الأئمة في كربلاء والنجف ومثلما تثير أعمدة الرخام في داخله البهاء في صمتها، يثيره صوت شيخ سالم الأجّش المليء بتبغ السنين وسعال الدهر. ومثل شبح يسير في حضرة إمام، نسي عبد الحسن وعكته. من أين يجيء هذا الاحترام لشيخ سالم؟ هل هو تعويض عن أبيه الفلاّح الجنوبي الذي كان يضرب من نفسه دائماً مثلاً لعبد الحسن، والذي كان يحمل تناقضاته معه ككل الفلاّحين الجنوبيين، وهو إذ يؤكد لعدنان أولاً بأنّه كان صاحب إرادة قوية، وأنّه غادر الريف لأنّه صمّم على ذلك، وأنّه أنجز للعائلة الكثير رغم ظروف المدينة الصعبة، وثانياً لأنّه يعزو هذا الأمر إلى عدم

fb/the.boooks

تدخله في أمور لا تعنيه كالسياسة مثلاً، .والمهم بالنسبة للإنسان أن يروح ويجيء في طريقه.، وعندما قال ذات مرة:

-إنّه يناقض جدّيتك يا أبي· فإذا افترضنا أنّ الإقطاعي في ريفك قد منعك من الذهاب إلى المدينة، فهل كنت تفعل ذلك· ثانياً أعتقد أنّك أخذت هذا المثل عن المدينة وهذا سيء· ثالثاً أنّ الوحيد الذي يجيء ويذهب في طريقه هو الحمار·

مما جعل الأب يصغي لحظات ثم يجيب:

-كلامك صحيح· ولكني أعرف· أو روحي تقول لي إنّ ما تفعله خطأ·

المهم بالنسبة لعبد الحسن ليس مضمون المقارنة، إنما موضوعها· فلربما وجد في الشيخ سالم ما يذكره بأبيه· التجاعيد مثلاً· طريقة الكلام· الحكمة · ربما كل تلك التخمينات أوهام· فهو يعتقد بعض الأحيان لأنّه لم يرَ أباه منذ فترة طويلة، أن الأمر مجرد موقف عاطفي منه يذكره بأبيه الذي بلغ السبعين ·صحيح أنّه أصغر سناً من الشيخ سالم إلا أنّه يبدو طاعناً في السن أكثر منه ·لقد تعب أبوه وأجهضته السنون، ومع الوقت راح يلعن اليوم الذي أتى فيه إلى المدينة حتى أخذ يردد في الأيام الأخيرة: .ربي أرجع لنا الملك· كانت أيامه أحسن. وعندما يسأل عبد الحسن فيما إذا كان يحن لأيام الملك؛ لأنّه كان شاباً آنذاك متحسراً على شبابه الذي ضاع منه، أم لأسباب أخرى فيجيبه:

-آخ· كانت أياماً حلوة· الدنيا كانت أخرى· حتى العاهرات كنّ أحسن من هنّ الآن· لم يقبلن النوم مع الإنكليز· تصور·

فيسأله عبد الحسن:

-يعني كنّا مستعمرين؟

فيجيبه:

-آخ من أفكارك· ولكن مع ذلك كانت أياماً أحلى·

وبالفعل لا يدري عبد الحسن فيما إذا كان أبوه يحن للملك بالذات أم لأيامه التي قضاها آنذاك· المهم أنّ استنتاجاته تختلف من وقت إلى آخر، رغم أنّه يزداد اضطراباً عندما يسمع بعض الجمل منه· مثلاً:

fb/the.boooks

-آخ· حتى الشرطة في ذلك الزمان كانت تختلف· تصور لم يحدث أن يعتقل مفوض الشرطة أحد الجيران· إنما كان يعينه على الهروب قبل إلقاء القبض عليه ·

فيعلق عليه عبد الحسن:

-ولكن بعض الأحيان يكتب شرطي الناحية، عندما يجد جثة أحد الفلاّحين: ألقي القبض على المقتول والقاتل هرب· فيقول له أبوه :

-أرجوك معاون الشرطة· وهذا هو الفرق·

فيصمت· ويعرف أنّ أباه في هذه الجملة على حق· لكن ما يبغي الوصول إليه غير ما يهدف عبد الحسن إليه· ومع الأيام كان عبد الحسن يدرك أنّ أباه بحسه الفطري قد اعتاد هذه السرعة في الإجابة· سيّان أكانت سلباً أم إيجاباً ·المهم أن يطلق جملة· ألم يتعلم هو من أبيه هذه الطريقة في الحديث؟ لقد ورث عبد الحسن عن أبيه الكثير· الشفتان الغليظتان· الشعر الأسود المجعد· ثم القضيب الغليظ الكبير· لقد رأى أباه ذات مرة عارياً عندما كان في الحمام ·وفي ذلك الوقت قال له أبوه وهو يداعب عضو عبد الحسن بمرح :

-ستحبك النسوان كثيراً·

ولم يفهم ذلك· سوى أنّه سمع مرة في حمام النساء، عندما كان في السادسة، يذهب مع أمه في بعض الأحيان:

-أم عبد الحسن· أرجوك ابنك كبر· ممنوع عليه دخول حمام النسوان ···

فأجابت أمه متسائلة:

-ليش عيني، عبد الحسن طفل صغير·

فقالت صاحبة الحمام:

-عايني عضوه·

عندها لمست أمه عضوه ولم تنتبه إليه وهو ينتصب عندما لامسته حرارة لمستها فقد كانت منشغلة بحديثها:

fb/the.boooks

-أُفيش· عنكَود عنب·

وعندما حدّثت أباه بالأمر قال:

-النساء على حق يا شهية·

ضحكت أمه وقالت:

-ورثه منك·

ضحك أبوه وأمره ذلك اليوم بالخروج للعب· ثم ليختفي مع والدته في الغرفة· لم يذهب· إنما ظلّ مسمّراً في مكانه وقد أخرج قضيبه ليعاينه· ومن الغرفة سمع صوت أمه وهي تصرخ:

-بامكانك أن····

ثم سمع صوت أبيه الذي اختلط مع صوت خشخشات السرير:

-افتحي رجليك أكثر·

صمت· أصدر آهة صغيرة ثم أضاف بصوت حزين:

-الأصدقاء لم يبقَ منهم أحد· لقد غادروا جميعاً العراق باستثناء اثنين آخرين· الأول أصبح موظفاً كبيراً في إذاعة بغداد، والآخر يرأس تحرير إحدى المجلات، يكتب تحقيقاته عن الحرب·

سكت ونظر إليهم وكأنه يقول ليس لدي ما أقوله· رمى جلال وعدنان سجائرهما إلى جانب· ظلّوا أيضاً ساكتين وفي تلك اللحظة دخلت نعيمة إلى الغرفة وهي تسحب رجلاً كهلاً قال لها:

-على كيفك ابنتي·

نهض جلال ليساعد الرجل الكهل الذي أشار عليه أن يبقى في مكانه وقال له بمرح:

-أنا أقوى منك· لكن ظهري اليوم أوجعني كثيراً·

جلس الرجل بجانب عبد الحسن· خرجت نعيمة من الغرفة·

fb/the.boooks

لقد بدا على الرجل الكهل أنّه تعب جداً. حدّقت عيناه بالجالسين، فيما راح فكّاه يلوكان لعاباً. ومع حركة الفكين تتحرك تجاعيد وجهه الذي ربما فاق الثمانين. لقد كانت التجاعيد من التعقيد بحيث أنّها لا تعلن عن عمر محدد . وحتى تلك الثمانين بدت مضحكة وغير ذات معنى لهذا الوجه الموغل في القدم.

سكت عبد الحسن عندما جلس الرجل. لم يسكت خوفاً منه، إنما احتراماً له .ليست هي المرة الأولى التي يعيشها عبد الحسن معه. فلقد كان الرجل بصوته الخشن يؤثر على حواسه ويجعله يبكي في بعض الأحيان، مثلما يضحك أو يرتجف في المرات الأخرى. وكلما جلس الشيخ أمامه يشعر عبد الحسن كأنه بحضرة مقدسة .كما كان يشعر في طفولته عندما يزور الأئمة في كربلاء والنجف ومثلما تثير أعمدة الرخام في داخله البهاء في صمتها، يثيره صوت شيخ سالم الأجّش المليء بتبغ السنين وسعال الدهر. ومثل شبح يسير في حضرة إمام، نسي عبد الحسن وعكته. من أين يجيء هذا الاحترام لشيخ سالم؟ هل هو تعويض عن أبيه الفلاّح الجنوبي الذي كان يضرب من نفسه دائماً مثلاً لعبد الحسن، والذي كان يحمل تناقضاته معه ككل الفلاّحين الجنوبيين، وهو إذ يؤكد لعدنان أولاً بأنّه كان صاحب إرادة قوية، وأنّه غادر الريف لأنّه صمّم على ذلك، وأنّه أنجز للعائلة الكثير رغم ظروف المدينة الصعبة، وثانياً لأنّه يعزو هذا الأمر إلى عدم تدخله في أمور لا تعنيه كالسياسة مثلاً. والمهم بالنسبة للإنسان أن يروح ويجيء في طريقه.، وعندما قال ذات مرة:

-إنّه يناقض جدّيتك يا أبي. فإذا افترضنا أنّ الإقطاعي في ريفك قد منعك من الذهاب إلى المدينة، فهل كنت تفعل ذلك. ثانياً أعتقد أنّك أخذت هذا المثل عن المدينة وهذا سيء. ثالثاً أنّ الوحيد الذي يجيء ويذهب في طريقه هو الحمار.

مما جعل الأب يصغي لحظات ثم يجيب:

-كلامك صحيح. ولكني أعرف. أو روحي تقول لي إنّ ما تفعله خطأ.

المهم بالنسبة لعبد الحسن ليس مضمون المقارنة، إنما موضوعها. فلربما وجد في الشيخ سالم ما يذكره بأبيه. التجاعيد مثلاً. طريقة الكلام. الحكمة . ربما كل تلك التخمينات أوهام. فهو يعتقد بعض الأحيان لأنّه لم يرَ أباه منذ فترة طويلة، أن الأمر مجرد موقف عاطفي منه يذكره بأبيه الذي بلغ السبعين .صحيح أنّه أصغر سناً من الشيخ سالم إلا أنّه يبدو طاعناً في

fb/the.boooks

السن أكثر منه ·لقد تعب أبوه وأجهضته السنون، ومع الوقت راح يلعن اليوم الذي أتى فيه إلى المدينة حتى أخذ يردد في الأيام الأخيرة: .ربي أرجع لنا الملك· كانت أيامه أحسن. وعندما يسأل عبد الحسن فيما إذا كان يحن لأيام الملك؛ لأنّه كان شاباً آنذاك متحسراً على شبابه الذي ضاع منه، أم لأسباب أخرى فيجيبه:

-آخ· كانت أياماً حلوة· الدنيا كانت أخرى· حتى العاهرات كنّ أحسن من هنّ الآن· لم يقبلن النوم مع الإنكليز· تصور·

فيسأله عبد الحسن:

-يعني كنّا مستعمرين؟

فيجيبه:

-آخ من أفكارك· ولكن مع ذلك كانت أياماً أحلى·

وبالفعل لا يدري عبد الحسن فيما إذا كان أبوه يحن للملك بالذات أم لأيامه التي قضاها آنذاك· المهم أنّ استنتاجاته تختلف من وقت إلى آخر، رغم أنّه يزداد اضطراباً عندما يسمع بعض الجمل منه· مثلاً:

-آخ· حتى الشرطة في ذلك الزمان كانت تختلف· تصور لم يحدث أن يعتقل مفوض الشرطة أحد الجيران· إنما كان يعينه على الهروب قبل إلقاء القبض عليه ·

فيعلق عليه عبد الحسن:

-ولكن بعض الأحيان يكتب شرطي الناحية، عندما يجد جثة أحد الفلاّحين: ألقي القبض على المقتول والقاتل هرب· فيقول له أبوه :

-أرجوك معاون الشرطة· وهذا هو الفرق·

فيصمت· ويعرف أنّ أباه في هذه الجملة على حق· لكن ما يبغي الوصول إليه غير ما يهدف عبد الحسن إليه· ومع الأيام كان عبد الحسن يدرك أنّ أباه بحسه الفطري قد اعتاد هذه السرعة في الإجابة· سيّان أكانت سلباً أم إيجاباً ·المهم أن يطلق جملة· ألم يتعلم هو من أبيه هذه الطريقة في الحديث؟ لقد ورث عبد الحسن عن أبيه الكثير· الشفتان الغليظتان· الشعر الأسود المجعد· ثم القضيب الغليظ الكبير· لقد رأى أباه ذات مرة عارياً

fb/the.boooks

عندما كان في الحمام ·وفي ذلك الوقت قال له أبوه وهو يداعب عضو عبد الحسن بمرح :

-ستحبك النسوان كثيراً·

ولم يفهم ذلك· سوى أنّه سمع مرة في حمام النساء، عندما كان في السادسة، يذهب مع أمه في بعض الأحيان:

-أم عبد الحسن· أرجوك ابنك كبر· ممنوع عليه دخول حمام النسوان ···

فأجابت أمه متسائلة:

-ليش عيني، عبد الحسن طفل صغير·

فقالت صاحبة الحمام:

-عايني عضوه·

عندها لمست أمه عضوه ولم تنتبه إليه وهو ينتصب عندما لامسته حرارة لمستها فقد كانت منشغلة بحديثها:

-أُفيش· عنكَود عنب·

وعندما حدّثت أباه بالأمر قال:

-النساء على حق يا شهية·

ضحكت أمه وقالت:

-ورثه منك·

ضحك أبوه وأمره ذلك اليوم بالخروج للعب· ثم ليختفي مع والدته في الغرفة· لم يذهب· إنما ظلّ مسمّراً في مكانه وقد أخرج قضيبه ليعاينه· ومن الغرفة سمع صوت أمه وهي تصرخ:

-بامكانك أن····

ثم سمع صوت أبيه الذي اختلط مع صوت خشخشات السرير:

-افتحي رجليك أكثر·

fb/the.boooks

ولم يفهم آنذاك صراخ أمه الذي اختلط مع توسلاتها .على كيفك اوجعتني.، والذي استمر لينتهي بضحكة رنّانة أطلقتها بعد دقائق.

قد يبدو له الأمر مضحكاً إذا ما فكر به الآن. إلا أنّه كان مختلفاً آنذاك. ولكن هناك أمراً واحداً لم ينسه على الإطلاق. ففي تلك اللحظة التي انتهت أمه من ضحكها، خرج أبوه إلى ساحة الدار وفوجئ عندما رآه واقفاً هناك .وسأله:

-رجعت بسرعة.

لم يجبه إنما عاين عضو أبيه الذي وقف عارياً ولباسه في يده، ولا يدري عبد الحسن لماذا اتجه إلى أبيه حينها ولمس عضو؛ه فما كان منه إلا أن صفعه بقوة. أمره بالخروج فوراً من البيت. حينها غادر إلى الجّادة بسرعة. ومنذ ذلك الوقت وعبد الحسن يحمل في رأسه رهبة غير طبيعية من أبيه. لقد اختلط الأمر في ذهنه. لا يدري إذا ما كانت الرهبة بسبب عضو أبيه وبالتالي من عضوه الذي ورثه عنه، أم لأنّه في كثير من الأحيان يملك الحكمة؟ أم للأمرين معاً ؟ سيّان. لقد جالت هذه الصور في ذهنه ولم يستطع إيقافها. لماذا يعقد هذه المقارنة بين أبيه والشيخ سالم.

لا يزال عبد الحسن يذكر كيف أنّه التقى الشيخ سالم صدفة قبل أسبوع عند شجرة النبق. كان هو قد استلقى بجسمه عند تلك الشجرة. حينما لمح رجلاً كهلاً يتمايل جذعه في الهواء. يضرب الأرض بعصاه بصورة متناوبة، فيما يحمل في اليد الأخرى صرّة من الملابس. كان بإمكانه تركه يمر من دون إثارته بكلمة ما. لكنه وبفضول متحمس رفع نصف جسمه عن الأرض ونادى الرجل:

-إلى أين أيها العم .

توقف الرجل وأشار بعصاه إلى الأمام.

-أروح أدوّر ولدي. هذا هو طريق الجبهة؟

لم يصدق عبد الحسن ما سمعه فسأل متردداً:

-وهل تريد الذهاب سيراً على الأقدام؟

fb/the.boooks

لم يبدُ على الرجل أنّه لن يفعل ذلك، على العكس فقد تجلّت فيه قوة خارقة، قوة سرت في أعضائه جميعاً وجعلت تجاعيد وجهه تترك انطباعاً بالحيوية. في الوقت الذي ظهرت فيه قدماه وكأنّهما تشقان طريقهما كمحراث .كان كمن يريد أن يقول بحركاته: لا يهم أين تكون الجبهة. يوم. يومان. ثلاثة .أسابيع هل إنّ روحه أحسن من روح ابنيه؟ ابناه اللذان انقطعت أخبارهما منذ شهرين. وحتى الجنود الذين يعرفونهما يقولون إنّهم لم يروهما. ولقد سمع الشيخ من الكثيرين الذين ذهبوا بأرجلهم يسألون عن أولادهم ورجعوا بالخبر اليقين، وإن يكن مضحكاً بعض الأحيان، لقد قيل لأكثر من شخص:

-ابنك مفقود.

مفقودون بعرف الحياة يعني أنّهم ضلّوا، تاهوا. ضاعوا في مكان ما . مفقود ضمن قانون الحرب يعني ميت حتى يثبت أنّه حي. ولقد كثرت في الفترة الأخيرة أسماء المفقودين. ربما لأن السلطات لا تريد دفع التعويضات التي وعدت بها أهالي القتلى، خاصة بعد معارك المحمرة؛ إذ منذ إعلان صلاة الغائب عودت السلطة نفسها على إخبار ذوي القتلى بأنّ أولادهم مفقودون. ورغم ذلك، فإنّ كثيراً من العوائل لم تستسلم وتيأس، إنما اعتقدت فعلاً بأنّ أولادهم مفقودون. فاتجهوا إلى جبهة القتال. لقد خطر ذلك بذهن عبد الحسن عندما بدأ بالتفكير في مافعله الشيخ سالم، إذ فكر أن يذهب ويسأل عن ولديه قبل أن يسمع أنّهم مفقودون، والذي كما أخبر عبد الحسن قد غادر الزبير يوم أمس وبات ليلة على الطريق. ولمّا سأله عبد الحسن:

-لماذا لم تركب سيارة؟

فقال:

-لقد نذرت للإمام علي أن أمشي. حتى يُبقي أولادي أحياء.

كان النهار يحترق فوق سطح البيوت أمامه. تصاعدت أغنية ما قوية من الحي، بينما نعق غراب. وما هي إلا لحظات حتى أخذت الشمس تسحب نفسها باتجاه الأفق؛ ففطن عبد الحسن فجأة إلى فكرة فسأل الرجل:

-أين تغيب الشمس؟

فأجاب الرجل:

fb/the.boooks

-في الغرب!

فقال عبد الحسن:

-أنظر يا عمي الشمس أمامك. وأنت تسير باتجاهها. يعني أنّك تسير الآن باتجاه غلط.

فقال الرجل:

-عفا.

تهدلت كتفاه ببطء. اتجه ليجلس في المكان الذي غادره عبد الحسن قبل قليل. كور نفسه هناك وبدا كعملاق متحدب. تهدج صوته:

-راح أستريح حتى آخذ طريقي بعدها.

جلس صامتاً لدقائق، في تجاعيد وجهه مايشبه التورم. شكلت شمس المساء التي اخترقت أوراق الشجرة مظلة فوقه. اهتز في أعماق عينيه التماع ضعيف كأن دمعة تريد أن تشق طريقها إلى خدّه. نظر أحدهما إلى الآخر، بدون تبادل كلمة واحدة. في مكان غير بعيد عنهم برز حي الطرب حزيناً بلا ضوء ولا ظل؛ فلقد اختفى الضوء عنه مع اختفاء الشمس السريع خلف خط الأفق.

تحرك عبد الحسن ويداه خلف ظهره وقد قفزت ابتسامة خفيفة فوق شفتيه شجّعته أن يقول للرجل:

-ما رأيك أيها العم بالبقاء عندي على الأقل هذه الليلة. لربما قدمت سيارة عسكرية تأخذك معها، فمن هنا تمر بعض القوافل العسكرية.

فقال الرجل:

-ولكني نذرت.

فأجابه عبد الحسن:

لقد وفيت نذرك عندما سرت من الزبير إلى هنا.

فأذعن الرجل بعد تردد وقال:

fb/the.boooks

-مثل ما تحب ولدي.

ولم يبقَ الشيخ سالم ليلة واحدة، إنما ها هو ينتظر منذ أسبوع. ولقد انعقدت خلال هذه المدة صداقة جميلة بين الشيخ وعبد الحسن، وواظبا طوال الوقت على التحدث. ولم يُفاجأ الشيخ كثيراً بحي الطرب؛ إذ كان على علم أنّ حيّاً بهذا الاسم يقع قريباً من الزبير. ولكنه فوجئ أكثر بشخص عبد الحسن الذي قال له:

-سأعتبرك منذ الآن أبي.

وراح هو يعامله أيضاً كابن، وهذا ما راح يردده على مسامعهم هذه المرة . فلقد طغت كلمة ابني على شفتيه أكثر من مرة. حتى ظنّوا أنّ الشيخ أبوه فعلاً. ولكن عبد الحسن أوضح لهم:

-إنّه الشيخ سالم. يريد الذهاب إلى ولديه في الجبهة.

ثم قدم الآخرين إلى الشيخ:

-عدنان. علي. جلال.

نظر الشيخ إلى وجوههم وقد عاودته فكرة الذهاب إلى الجبهة. لقد فرح عندما سمع اليوم بقدومهم من نعيمة. فلم يشعر بهم بالأمس؛ لأنّه نام في مكان آخر. سكتوا للحظة. ومن الخارج بدأت أصوات الأطفال تختفي. ومن مكانهم لمحوا شمس الظهيرة وهي تدخل أجزاء الحجارة وسط ساحة الدار. أفردت الظهيرة جناحاً ثقيلاً من الحرارة خفق عند الجدران الطينية مترجرجاً. ومثلما لهثت أفكارهم. لهثت الأرض متوهجة.

وفجأة سأل جلال الشيخ سالم:

fb/the.boooks

لم يصدق عبد الحسن ما سمعه فسأل متردداً:

-وهل تريد الذهاب سيراً على الأقدام؟

لم يبدُ على الرجل أنّه لن يفعل ذلك، على العكس فقد تجلّت فيه قوة خارقة، قوة سرت في أعضائه جميعاً وجعلت تجاعيد وجهه تترك انطباعاً بالحيوية. في الوقت الذي ظهرت فيه قدماه وكأنّهما تشقان طريقهما كمحراث .كان كمن يريد أن يقول بحركاته: لا يهم أين تكون الجبهة. يوم. يومان. ثلاثة .أسابيع هل إنّ روحه أحسن من روح ابنيه؟ ابناه اللذان انقطعت أخبارهما منذ شهرين. وحتى الجنود الذين يعرفونهما يقولون إنّهم لم يروهما. ولقد سمع الشيخ من الكثيرين الذين ذهبوا بأرجلهم يسألون عن أولادهم ورجعوا بالخبر اليقين، وإن يكن مضحكاً بعض الأحيان، لقد قيل لأكثر من شخص:

-ابنك مفقود.

مفقودون بعرف الحياة يعني أنّهم ضلّوا، تاهوا. ضاعوا في مكان ما . مفقود ضمن قانون الحرب يعني ميت حتى يثبت أنّه حي. ولقد كثرت في الفترة الأخيرة أسماء المفقودين. ربما لأن السلطات لا تريد دفع التعويضات التي وعدت بها أهالي القتلى، خاصة بعد معارك المحمرة؛ إذ منذ إعلان صلاة الغائب عودت السلطة نفسها على إخبار ذوي القتلى بأنّ أولادهم مفقودون. ورغم ذلك، فإنّ كثيراً من العوائل لم تستسلم وتيأس، إنما اعتقدت فعلاً بأنّ أولادهم مفقودون. فاتجهوا إلى جبهة القتال. لقد خطر ذلك بذهن عبد الحسن عندما بدأ بالتفكير في مافعله الشيخ سالم، إذ فكر أن يذهب ويسأل عن ولديه قبل أن يسمع أنّهم مفقودون، والذي كما أخبر عبد الحسن قد غادر الزبير يوم أمس وبات ليلة على الطريق. ولمّا سأله عبد الحسن:

-لماذا لم تركب سيارة؟

فقال:

-لقد نذرت للإمام علي أن أمشي. حتى يُبقي أولادي أحياء.

كان النهار يحترق فوق سطح البيوت أمامه. تصاعدت أغنية ما قوية من الحي، بينما نعق غراب. وما هي إلا لحظات حتى أخذت الشمس تسحب نفسها باتجاه الأفق؛ ففطن عبد الحسن فجأة إلى فكرة فسأل الرجل:

fb/the.boooks

-أين تغيب الشمس؟

فأجاب الرجل:

-في الغرب!

فقال عبد الحسن:

-أنظر يا عمي الشمس أمامك. وأنت تسير باتجاهها. يعني أنّك تسير الآن باتجاه غلط.

فقال الرجل:

-عفا.

تهدلت كتفاه ببطء. اتجه ليجلس في المكان الذي غادره عبد الحسن قبل قليل. كور نفسه هناك وبدا كعملاق متحدب. تهدج صوته:

-راح أستريح حتى آخذ طريقي بعدها.

جلس صامتاً لدقائق، في تجاعيد وجهه مايشبه التورم. شكلت شمس المساء التي اخترقت أوراق الشجرة مظلة فوقه. اهتز في أعماق عينيه التماع ضعيف كأن دمعة تريد أن تشق طريقها إلى خدّه. نظر أحدهما إلى الآخر، بدون تبادل كلمة واحدة. في مكان غير بعيد عنهم برز حي الطرب حزيناً بلا ضوء ولا ظل؛ فلقد اختفى الضوء عنه مع اختفاء الشمس السريع خلف خط الأفق.

تحرك عبد الحسن ويداه خلف ظهره وقد قفزت ابتسامة خفيفة فوق شفتيه شجّعته أن يقول للرجل:

-ما رأيك أيها العم بالبقاء عندي على الأقل هذه الليلة. لربما قدمت سيارة عسكرية تأخذك معها، فمن هنا تمر بعض القوافل العسكرية.

فقال الرجل:

-ولكني نذرت.

فأجابه عبد الحسن:

fb/the.boooks

لقد وفيت نذرك عندما سرت من الزبير إلى هنا.

فأذعن الرجل بعد تردد وقال:

-مثل ما تحب ولدي.

ولم يبقَ الشيخ سالم ليلة واحدة، إنما ها هو ينتظر منذ أسبوع. ولقد انعقدت خلال هذه المدة صداقة جميلة بين الشيخ وعبد الحسن، وواظبا طوال الوقت على التحدث. ولم يُفاجأ الشيخ كثيراً بحي الطرب؛ إذ كان على علم أنّ حيّاً بهذا الاسم يقع قريباً من الزبير. ولكنه فوجئ أكثر بشخص عبد الحسن الذي قال له:

-سأعتبرك منذ الآن أبي.

وراح هو يعامله أيضاً كابن، وهذا ما راح يردده على مسامعهم هذه المرة . فلقد طغت كلمة ابني على شفتيه أكثر من مرة. حتى ظنّوا أنّ الشيخ أبوه فعلاً. ولكن عبد الحسن أوضح لهم:

-إنّه الشيخ سالم. يريد الذهاب إلى ولديه في الجبهة.

ثم قدم الآخرين إلى الشيخ:

-عدنان. علي. جلال.

نظر الشيخ إلى وجوههم وقد عاودته فكرة الذهاب إلى الجبهة. لقد فرح عندما سمع اليوم بقدومهم من نعيمة. فلم يشعر بهم بالأمس؛ لأنّه نام في مكان آخر. سكتوا للحظة. ومن الخارج بدأت أصوات الأطفال تختفي. ومن مكانهم لمحوا شمس الظهيرة وهي تدخل أجزاء الحجارة وسط ساحة الدار. أفردت الظهيرة جناحاً ثقيلاً من الحرارة خفق عند الجدران الطينية مترجرجاً. ومثلما لهثت أفكارهم. لهثت الأرض متوهجة.

وفجأة سأل جلال الشيخ سالم:

-من أي مدينة أيها العم؟

فأجاب:

-من الزبير.

fb/the.boooks

ارتعش فم جلال قليلاً وتحركت معه شواربه:

-هل تعرف عزوز في محلة العرب؟

فهتف الرجل:

-نعم· إنّه دفّان مقبرة حسن البصري·

أخرج جلال آهة وقال:

-لقد رأيت ابنه كريم يسقط أمام عيني·

انذهل الشيخ، وقبل أن يفتح فمه، تطلع إلى جلال الذي عمل حركة في الهواء بيديه موضحاً:

-تبخر في الهواء· لم يتبقَ منه سوى سائل لزج·

ضرب الرجل يداً بيد وهاج· وزعق صوته:

-أولاد الحرام· أخبروا أمه بأنّه مفقود·

لم يعلق جلال فتلك حكاية يعرفها· فاستمر الرجل:

-أعرف كريم منذ كان صغيراً· كان أكبر أخواته وإخوانه· وكان عنده طيور كثيرة· وكان كلما يجيء في إجازة ينشغل مع طيوره· وفي الإجازة الأخيرة رفض الذهاب إلى الجبهة· بقي في البيت· أمه ملكيّة فكرت بتهريبه إلى الكويت هناك تسكن عماته· رفض زوجها الفكرة· فكرت بإرساله إلى أختها الساكنة في العمارة· حتى إنّها فكرت بتزويجه من إحدى بنات أختها· لكن الملعون رجلها هدّدهم بجلب الانضباطية· لم يصدقوه لكنه فعلها· لقد قلت له عندما قرأت الفاتحة عنده ليش فعلتها يا عزوز؟ بكى وقال خفت من الحكومة يا عمي· فقلت له هذا جزاؤك· ولن يغفر لك الله· دفنت ناساً كثيرين ولكنك لم تتمكن من دفن ابنك· أما أمه فشهدت لها النساء· لقد لطمت وشقّت ثيابها· وهي لحد الآن تدور من جبهة إلى جبهة ولا تريد أن تصدق أنّه مات· تقول دائماً كريم مفقود، حتى إنّها تحدثت مع أختها في العمارة بترتيب أمور زواجه إذا ما قدم· أختها قلبه طيب مثلها·

سكت الشيخ ثم أضاف وكأنه نسي شيئاً:

fb/the.boooks

-مسكينة ملكيّة إنّه ليس ابنها الوحيد الذي فقدته. ابنها الآخر خالد أسير في إيران. لقد أرسل لها رسالة عن طريق الصليب الأحمر. أما ابنها الثالث مبارك فقد لبس قبل أسابيع.

ثم تمتم الرجل بحسرة:

-أخ. كريم كان صديق ابني مجيد الذي انقطعت أخباره وأخبار أخيه حميد منذ شهرين.

سقطت دمعة من عينيه لم يستطع إيقافها أبداً. قفزت أمامه قوية ونافرة. تذكر علي دمعة أخته الصغيرة.

فتساءل مع نفسه هل يتساوى الشيوخ والأطفال في الحرب؟

سحب الرجل كوفيته البيضاء وراح يجفف عينيه وهو يقول:

-عمي أسألكم بالله دلوني على طريق إيران. أنا مستعد أن أتوسل إليهم ليوقفوا الحرب .

فقال له عدنان:

-المشكلة ليست إيران. إنما قائدك يا عمي.

تلفت الرجل يميناً ويساراً وكأنه بُوغت. فابتسم عبد الحسن له وقال:

-لا تخاف عمي. إنّهم ليسوا من الحكومة.

تنحنح الرجل وحدّق بعدنان الذي ضحك له وقال:

-خذ حريتك أيها العم.

فأجابه وكأنه تخلص من عبء ثقيل:

-يقولون عندما كان رئيسنا صغيراً كان يحب العراك مع الأطفال الصغار .الآن كبر فيجب أن تكبر المعركة. طيارات. دبابات. أنظروا إليه عندما يطلع في التلفزيون. إنّه يريد يعارك حتى عندما يضحك. صنع هذه الحرب ونحن ندفع الثمن.

fb/the.boooks

سكت الرجل وخيم الصمت على الغرفة. تناول قدحاً من الماء من إناء استقر أمامه.

في الخارج بدأ النهار يلين، وكأن الحجارة تقيأت شمس الظهيرة هناك، التي تفتتت وتلاشت في الفضاء، فيما حملت الريح معها نسمة خفيفة لهواء العصر. بدأ الشيخ سالم مرة أخرى حديثه:

-فتيان في عز شبابهم يذهبون هدراً. في مثل أعماركم كنّا نتعارك مع الأرض ونصنع منها شيئاً. كنا نقاتل على جانبين، الأرض والإقطاع. في ذلك الوقت كانت أيضاً حرب الشمال. ولكن من اشترك فيها. قليلون الذين راحوا هناك. ولم يسجل الكثير منا أبناءهم في سجلات النفوس، خوفاً عليهم من الالتحاق بالعسكرية. وهذا جر على الناس الكثير من المتاعب. فقد أوضحت السلطات بعدها أنّ غير المقيدين هم من أصل إيراني. وسفّرت الكثير منهم في حملات تهجيره فلقد صعدوا قبل أسابيع في محلتنا اثنان من معارفنا لأنهما ليس لديهما جنسية عثمانية ولم ينفع عندما صرخا إنّنا عراقيون.

فقاطعه علي قائلاً:

-لا ينفع لقد عشت حالة شبيهة. فجيراننا أيضاً كان عليهم أن يُسفروا . وكان مجيد صديقي في العائلة مشلولاً شللاً نصفياً، وليلتها اتفقنا أن يبيت أخوه عندنا مع أخته لكي لا يُسفرا. وعندما جاء رجال الأمن إلى البيت لم يصدقوا أمه التي أكدت لهم أنّه لا يمكن تسفيره لأنّه مشلول. ثم أمرونا جميعاً بالتوجه إلى السيارة. وأصعدونا في شاحنة جارنا أبو يوسف الذي رفض أن يسوق السيارة، وقال إنّه لا يمكن أن يفعل ذلك مع جيرانه الذين عاش معهم عمره. وبعد لحظات جاءت أمي وصاحت بهم: تسفرون علي واحنا عرب. وعندما سمع رجال الأمن استنكار أهل الحي لوجودي بين المسفّرين أنزلوني. ولم أحب تلك الجملة التي أطلقتها أمي، رغم أنّني أعتقد أنّها لم تقصد بها سوى إنزالي من الشاحنة أو مجرد الدفاع عن النفس. لكنها على أية حال لم تعجبني فقلت لهم أن يتركوا صديقي المشلول فأبَوا. غير أنّهم للحظة لم يصدقوا أنّه مشلول .حتى أخرج لهم صفيحة صغيرة مملوءة ببوله رماهم بها.

توقف علي عن الكلام فسأل عبد الحسن بفضول عما حصل فأوضح علي:

fb/the.boooks

-غـادر أخـوه وأختـه بيتنـا عنـدما رأوا إصـرار رجـال الأمـن علـى تسـفير أخـيهم· لـم يريـدوا أن يتركـوه لوحـده· لقـد سـفّروهم فـي تلـك الليلـة جميعـاً · ضربوا مجيداً ضرباً مبرحاً ·

أخرج الشيخ آهة عميقة وقال:

-لقـد سـمعت بـآلاف القصـص التـي حصـلت فـي الكـوت وبغـداد والعمـارة· ولكـن مـاذا ينفـع الحـديث عنهـا· لقـد سـفّروا الكثيـرين· حتـى خطيبـة ابنـي مجيد· سفّروها وهو في الجبهة ·

ثم أخرج الشيخ مظروفاً من جيبه وقال:

-هـذه رسـالة كتبتهـا فـي ليلـة تسـفيرها· أحملهـا لمجيـد المسـكين الـذي لا أعرف ماذا سيحصل له إذا عرف· يحبها حتى العبادة·

ثم قال الرجل بسخرية مرة:

fb/the.boooks

فأجاب:

-من الزبير.

ارتعش فم جلال قليلاً وتحركت معه شواربه:

-هل تعرف عزوز في محلة العرب؟

فهتف الرجل:

-نعم. إنّه دفّان مقبرة حسن البصري.

أخرج جلال آهة وقال:

-لقد رأيت ابنه كريم يسقط أمام عيني.

انذهل الشيخ، وقبل أن يفتح فمه، تطلع إلى جلال الذي عمل حركة في الهواء بيديه موضحاً:

-تبخر في الهواء. لم يتبقَ منه سوى سائل لزج.

ضرب الرجل يداً بيد وهاج. وزعق صوته:

-أولاد الحرام. أخبروا أمه بأنّه مفقود.

لم يعلق جلال فتلك حكاية يعرفها. فاستمر الرجل:

-أعرف كريم منذ كان صغيراً. كان أكبر أخواته وإخوانه. وكان عنده طيور كثيرة. وكان كلما يجيء في إجازة ينشغل مع طيوره. وفي الإجازة الأخيرة رفض الذهاب إلى الجبهة. بقي في البيت. أمه ملكيّة فكرت بتهريبه إلى الكويت هناك تسكن عماته. رفض زوجها الفكرة. فكرت بإرساله إلى أختها الساكنة في العمارة. حتى إنّها فكرت بتزويجه من إحدى بنات أختها. لكن الملعون رجلها هدّدهم بجلب الانضباطية. لم يصدقوه لكنه فعلها. لقد قلت له عندما قرأت الفاتحة عنده ليش فعلتها يا عزوز؟ بكى وقال خفت من الحكومة يا عمي. فقلت له هذا جزاؤك. ولن يغفر لك الله. دفنت ناساً كثيرين ولكنك لم تتمكن من دفن ابنك. أما أمه فشهدت لها النساء. لقد لطمت وشقّت ثيابها. وهي لحد الآن تدور من جبهة إلى جبهة ولا تريد أن تصدق أنّه مات. تقول دائماً كريم مفقود، حتى إنّها

fb/the.boooks

تحدثت مع أختها في العمارة بترتيب أمور زواجه إذا ما قدم. أختها قلبه طيب مثلها.

سكت الشيخ ثم أضاف وكأنه نسي شيئاً:

-مسكينة ملكيّة إنّه ليس ابنها الوحيد الذي فقدته. ابنها الآخر خالد أسير في إيران. لقد أرسل لها رسالة عن طريق الصليب الأحمر. أما ابنها الثالث مبارك فقد لبس قبل أسابيع.

ثم تمتم الرجل بحسرة:

-أخ. كريم كان صديق ابني مجيد الذي انقطعت أخباره وأخبار أخيه حميد منذ شهرين.

سقطت دمعة من عينيه لم يستطع إيقافها أبداً. قفزت أمامه قوية ونافرة. تذكر علي دمعة أخته الصغيرة.

فتساءل مع نفسه هل يتساوى الشيوخ والأطفال في الحرب؟

سحب الرجل كوفيته البيضاء وراح يجفف عينيه وهو يقول:

-عمي أسألكم بالله دلوني على طريق إيران. أنا مستعد أن أتوسل إليهم ليوقفوا الحرب .

فقال له عدنان:

-المشكلة ليست إيران. إنما قائدك يا عمي.

تلفت الرجل يميناً ويساراً وكأنه بُوغت. فابتسم عبد الحسن له وقال:

-لا تخاف عمي. إنّهم ليسوا من الحكومة.

تنحنح الرجل وحدّق بعدنان الذي ضحك له وقال:

-خذ حريتك أيها العم.

فأجابه وكأنه تخلص من عبء ثقيل:

fb/the.boooks

-يقولون عندما كان رئيسنا صغيراً كان يحب العراك مع الأطفال الصغار ٠الآن كبر فيجب أن تكبر المعركة٠ طيارات٠ دبابات٠ أنظروا إليه عندما يطلع في التلفزيون٠ إنّه يريد يعارك حتى عندما يضحك٠ صنع هذه الحرب ونحن ندفع الثمن٠

سكت الرجل وخيم الصمت على الغرفة٠ تناول قدحاً من الماء من إناء استقر أمامه٠

في الخارج بدأ النهار يلين، وكأن الحجارة تقيأت شمس الظهيرة هناك، التي تفتتت وتلاشت في الفضاء، فيما حملت الريح معها نسمة خفيفة لهواء العصر٠ بدأ الشيخ سالم مرة أخرى حديثه:

-فتيان في عز شبابهم يذهبون هدراً٠ في مثل أعماركم كنّا نتعارك مع الأرض ونصنع منها شيئاً٠ كنا نقاتل على جانبين، الأرض والإقطاع٠ في ذلك الوقت كانت أيضاً حرب الشمال٠ ولكن من اشترك فيها٠ قليلون الذين راحوا هناك٠ ولم يسجل الكثير منا أبناءهم في سجلات النفوس، خوفاً عليهم من الالتحاق بالعسكرية٠ وهذا جر على الناس الكثير من المتاعب٠ فقد أوضحت السلطات بعدها أنّ غير المقيدين هم من أصل إيراني٠ وسفّرت الكثير منهم في حملات تهجيره فلقد صعدوا قبل أسابيع في محلتنا اثنان من معارفنا لأنهما ليس لديهما جنسية عثمانية ولم ينفع عندما صرخا إنّنا عراقيون٠

فقاطعه علي قائلاً:

-لا ينفع لقد عشت حالة شبيهة٠ فجيراننا أيضاً كان عليهم أن يُسفروا ٠ وكان مجيد صديقي في العائلة مشلولاً شللاً نصفياً، وليلتها اتفقنا أن يبيت أخوه عندنا مع أخته لكي لا يُسفرا٠ وعندما جاء رجال الأمن إلى البيت لم يصدقوا أمه التي أكدت لهم أنّه لا يمكن تسفيره لأنّه مشلول٠ ثم أمرونا جميعاً بالتوجه إلى السيارة٠ وأصعدونا في شاحنة جارنا أبو يوسف الذي رفض أن يسوق السيارة، وقال إنّه لا يمكن أن يفعل ذلك مع جيرانه الذين عاش معهم عمره٠ وبعد لحظات جاءت أمي وصاحت بهم: تسفرون علي واحنا عرب٠ وعندما سمع رجال الأمن استنكار أهل الحي لوجودي بين المسفّرين أنزلوني٠ ولم أحب تلك الجملة التي أطلقتها أمي، رغم أنّني أعتقد أنّها لم تقصد بها سوى إنزالي من الشاحنة أو مجرد الدفاع عن النفس٠ لكنها على أية حال لم تعجبني فقلت لهم أن يتركوا صديقي المشلول

fb/the.boooks

فـأبَوا· غيـر أنّهـم للحظـة لـم يصـدقوا أنّـه مشـلول ·حتـى أخـرج لهـم صـفيحة صغيرة مملوءة ببوله رماهم بها·

توقف علي عن الكلام فسأل عبد الحسن بفضول عما حصل فأوضح علي:

-غـادر أخـوه وأختـه بيتنـا عنـدما رأوا إصـرار رجـال الأمـن علـى تسـفير أخـيهم· لـم يريـدوا أن يتركـوه لوحـده· لقـد سـفّروهم فـي تلـك الليلـة جميعـاً · ضربوا مجيداً ضرباً مبرحاً ·

أخرج الشيخ آهة عميقة وقال:

-لقـد سـمعت بـآلاف القصـص التـي حصـلت فـي الكـوت وبغـداد والعمـارة· ولكـن مـاذا ينفـع الحـديث عنهـا· لقـد سـفّروا الكثيـرين· حتـى خطيبـة ابنـي مجيد· سفّروها وهو في الجبهة ·

ثم أخرج الشيخ مظروفاً من جيبه وقال:

-هـذه رسـالة كتبتهـا فـي ليلـة تسـفيرها· أحملهـا لمجيـد المسـكين الـذي لا أعرف ماذا سيحصل له إذا عرف· يحبها حتى العبادة·

ثم قال الرجل بسخرية مرة:

-تصـوروا الرجـل يقاتـل وخطيبتـه تسـفّر· لقـد قلـت ذلـك قبلهـا لمجيـد ولحميـد ولـم يصـدقاني قلـت لهـم علـيهم الفـرار والإختبـاء عنـد أعمـامهم فـي الهـور· لكـنهم قـالوا إنّهـا مجـرد أسـابيع وتنتهـي الحـرب· آخ لـو أشـوفهم الآن· لحملتهما معي على الفور·

سكت ثم قال بألم واضح:

-عمـي أنـا أخـاف أن يموتـوا قبـل أن أمـوت· حينهـا مـن سـيدفن جنـازتي؟ إنّهـم أكبـر أبنـائي· مسـؤول منظمـة الحـزب فـي منطقتنـا يقـول لـي بـأنّي مثـال الآبـاء الجيـدين· لأنّ لـي ولـدين فـي الجبهـة، وأنّهمـا صـنديدان مثلـي· فقلـت لـه إنّهمـا ليسـا بصـنديدين ولا بطـيخ· إنّهمـا مجبـوران علـى الإلتحـاق لـو تُـرك الأمـر لـي لجعلتهمـا يهربـان· فقـال لـي عجيـب أن تقـول هـذا المـزاح· هنـاك مـن لـن يفهمـوا مزاحـك ويتصـوروا أنـك تـتكلم بجديـة فيصـنعوا لـك المتاعـب· فقلـت لـه لمـاذا تتصـورونه مزاحـاً فأجـاب بتملـق مكشـوف ـــ فأنـا أعرفـه كيـف تسـلق بدرجتـه الحزبيـة عـن طريـق مراقبـة الآخـرين وكتابـة التقـارير ضـدهم ـــ

fb/the.boooks

أجابني بأنّه يعرف روحي الوطنية العالية. فقلت إنّك تبالغ أيها الرجل، فباستثناء حرب 48 ضد إسرائيل لم ألتحق بالتجنيد أبداً. ذهب ولم يرد عليّ. لم يشأ تصديقي .

ثم سكت الشيخ ليلقي بما يوده في النهاية:

-أولادي. أنا أنتظر منذ أسبوع أن تمر قافلة عسكرية. خذوني معكم إذا كان طريقكم الجبهة. وسكت الرجل. أخذ قدحاً آخر من الماء. وكأنه مع اندلاق الماء في بلعومه يوحي إليهم أنّه ينتظر ما هم فاعلون؟ ماذا سيفعلون؟ هم يسألون أنفسهم أيضاً ! ومرة أخرى يشعرون أنّهم مقذوفون هنا. بلا لغة بلا لسان. عيونهم ترى فقط. تلهث. نظراتهم تخبو. تصفق كالشمس التي شرعت تسحب لسانها الحاد من ساحة البيت. خطرت لجلال فكرة أن يذهب للمصري. ويقول له لقد عدلنا عن الهروب إلى الكويت. وليقود الشيخ سالم إلى حيث أبنائه. لكنه لم يفعل ذلك. عدنان بدا أكثر صمتاً في داخله. ذلك لأنّ فكرة واحدة قد استقرت في ذهنه، أن يتجه إلى البصرة. لقد ضاق ذرعاً بكل شيء. ويجب أن يفعل شيئاً .أما علي فقد كان ذهنه راحلاً في عالم آخر. كان يعقد مقارنات بين عالمه في الجبهة وعالمه في البيت والعالم هنا، ولكنه كالعادة خائف من أن يموت. لقد عذّبه تأرجحه الذي لم يصل إلى قرار. هل يبقى هنا؟ ولكن ربما سيموت هنا. لقد كان مأخوذاً بفكرة الموت. بعض الأحيان يشعر أنّ أطرافه ترتعش، شفتاه تتلكآن إذا ما زارته هذه الفكرة. وهي قد انحصرت في داخله. لعن نفسه. وتمتم .أي قدر لعين.، نهض من مكانه. عاين عبد الحسن الذي كان هو الآخر منشغلاً بنفسه، والذي شعر أن حملاً ثقيلاً قد ألقي عليه.

التقت عيون الجالسين ببعضها. لا لم تلتق ببعضها إنما كانت تتوسل بعضها. تمنح العزاء. لقد بدت نظراتهم خاوية ذابلة. ولم ترف جفونهم فقط، إنما صفرت أعماقهم. صفرت كريح تدخل من ثقب جدار متآكل. كان بإمكانهم رغم الصمت الذي هجم على المكان أن يسمعوا نواحاً داخلياً سرياً يتصاعد مع الشمس، التي بدأت تصعد أيضاً في الفضاء. ومثلما تخفق نجمة وسط ليل موحش، التمعت نظراتهم كأنها تعلن عن نهار ينهار. نهار ينأى، أو يطرد من مساء بدأ يعلن زيارته. مساء سيضاف إلى مساءاتهم السابقة. سيقذفهم مع الحيرة. مع جمر الغروب. مساء خاو آخر سيحمل أسى جديداً. كم مساء آخر سيمر. كم نهار آخر سينهار، حتى ترتاح أعماقهم، أجسادهم، متى تجد أقدامهم أرضاً صلبة. إنّهم لا يريدون تصديق أنّهم مرميون كحطام دبابة أو مدفعية أو بندقية هناك. لا يريدون

fb/the.boooks

ذلك، وإذ يصل وعيهم الجماعي هذا الأمر فلأنّهم يرفضون ما ينم عن أنّهم رُميوا في ذلك البلد، في تلك المدينة، في هذا الحي، في هذه الحرب . الحرب التي لم يدخلونها طائعين، إنما زُجوا فيها مثلما تُزج قدم في بسطال، أو ليسوا أرقاماً، فرقم علي هو 698504، ورقم عدنان هو 784112، وجلال 800222، إنّهم أرقام فقط. ولا فرق بينهم وبين أي قطعة عتاد في الجبهة .حسناً إنّهم لا يريدون الآن الاعتقاد بأنّهم مجرد أرقام في بلد ما، على جبهة ما، في كتيبة ما. نظراتهم تلتقي وتبيح ما يردده وعيهم الجماعي. إنّها ليست صدفة على الإطلاق أن يفكروا الآن بحالة متشابهة. وما يفعلونه ليس نوعاً من التضامن بقدر ما هو نوع من التفاهم المتبادل. ومثلما يتم تبادل الأسرى في الحرب، ومثلما يتم تبادل الحب بين عاشقين، يتبادلون تصوراتهم .لكن بسرية. بصورة شفهية لا تدركها سوى عيونهم التي تعاين بعضها، أو شفاههم التي انفلقت وهي تعض على بعض الجمل، أو أيديهم التي استقرت في أحضانهم وكأنها تخبئ سراً بين كفّيها. لقد كانوا مغلفين بصمتهم ينتظر كل منهم أن يبدأ الآخر حديثه. على من تدور الدورة هذه المرة؟ ظلوا هكذا في وضعهم. علي واقف. وهم جالسون. بعد برهة رجع علي يجلس في مكانه. في الخارج بدأت شمس الغروب تكتسح النهار، واكتسى الجدار الطيني حمرة بسيطة. ومن الزقاق أتت أصوات تعكر الصمت من حين إلى آخر، فيما ترامت إلى الآذان أغنية أو صوت ربابة حزينة أو صهيل حصان .

ارتعش قلب عبد الحسن. وتمتم مع نفسه آمل أن تنتهي هذه الليلة بسلام. وفجأة لمعت في ذهنه فكرة خاطفة:

-ما رأيكم أن نحتفل المساء؟

التقت نظراتهم. وأعلنت وجوههم فرحاً خفياً. فأجاب جلال:

-المهم أن تدبر لنا الزحلاوي.

ضحك عبد الحسن وقال:

-أنت في حي الطرب. فهل هناك طرب بدون زحلاوي.

نهض عبد الحسن وقال:

fb/the.boooks

-سأقول للبنات أن يهيئن المزة. سأجلب عودي. وإذا ما جاء أحد الكويتيين هذا المساء فسنرسله إلى مكان آخر. فالليلة ليلة الجمعة واحتمال مجيئهم كبير.

غادرهم عبد الحسن. نظر أحدهم إلى الآخر وأظهرت وجوههم شيئاً من التساؤل العميق رغم أنّهم لم يستطيعوا إخفاء فرحهم.

رجع عبد الحسن. دخلت خلفه سليمة ونعيمة. في أيديهن أقداح الشراب وإبريق الماء. ثم دخلت بعد لحظات رضية وهي تحمل بعض صحون المزّة. علق عبد الحسن عندما وضعت النسوة ما يحملن فوق الأرض ويخرجن بعدها:

-سنتلهى في الأول بالروبة والفستق.

وعندما انتهى من كلامه دفع قنينة الزحلاوي أمامهم. ولا يعرف لماذا قال لعلي:

-عمّرها أبو حسين.

فوجئ علي بهذا الطلب ولم يرغب أن يقول له: .كيف وأنا مستجد. إنما قبل ذلك بفرح. وبدا يعمر لهم أقداح العرق. ضحك جلال، ضربه بخفة على كتفه وأسرى له:

-لقد أصبحت محترفاً.

بادله علي الابتسامة ذاتها وصاح بعد أن رأى وقد أخذ كل واحد منهم قدحه:

-بصحتكم.

صاحوا جميعاً:

-صحتكم.

دفعوا الأقداح إلى أفواههم ليأتوا عليها دفعة واحدة، باستثناء علي الذي تردد في دفع الكمية إلى جوفه مرة واحدة، ولكنه فعل ذلك عندما رآهم يفعلون.

fb/the.boooks

نهض عبد الحسن من مكانه ليجلب بقايا المزّة، ولكنه ارتدّ إلى مكانه عندما رأى نعيمة وسليمة يدخلان بصحون السلطة والجاجيك. وزع الصحون على الجالسين ثم نهض مرة أخرى واختفى ليأتي حاملاً عوده. جلس بجانب الشيخ. بدأ يضبط أوتار العود وتذكر أن يقول للشيخ سالم:

-اعذرنا عمي.

فأجابه الشيخ:

-خذوا راحتكم. أنا أتخيل مجيد وحميد بينكم .

دخلت رضية وأخذت مكاناً بجانب عبد الحسن. كانت قد حملت كأسها في يدها. ضحكت لهم وقالت:

-راح أعمّر كأسي.

فعلت ذلك بسرعة ثم صاحت:

-بصحتكم.

فأجابوها وهم يرفعون كؤوسهم:

-بصحتك.

بدأ عبد الحسن بضرب أوتار العود. انسابت أنغامه بادئ الأمر هادئة. ومع الوقت راحت تزداد توتراً. لاحظ الجميع كيف أنّ أصابعه تتحرك بانفعال عند بعض المقاطع. لم تنفعل أصابعه فقط إنما كانت ترى، تتلمس طرقها فوق الأوتار .وأنشأ جسمه كله ينفعل. أحياناً يرفع رأسه إلى الأعلى ليفتش في عيونهم عن كلمات جديدة. كان على يقين أنّهم يطربون، بل إنّهم ينفعلون لانفعاله. إنّهم أيضاً مغلفون باضطرابهم مثله. هذا الأمر جعله ينشّد أكثر إلى لحنه، فهو للمرة الأولى بعد سنين يعزف لحنه الذي طالما حلم بغنائه. لقد لحّنه قبل سنتين، وعزفه مرة أو مرتين لنعيمة ولكن لم يكتمل آنذاك، إنّها المرة الأولى وبعد سنين يكون له جمهوره الذي يحب. آه كم يسكره هذا الخاطر فيصدح عوده حالياً، ويرتفع فوق السطوح مغطياً أصوات ربابة انبعث لحنها الحزين من البعيد أو صوت طبل خجول. كلا إنّها ليست ليالي حي الطرب القديمة. إنّه حي آخر. والآن يستعيد هذا الحي ذكرياته التي عرفها منذ سنوات. في الوقت الذي لم

fb/the.boooks

يسكنه غير الغجر، قبل أن تدخله حضارة عاهرات بغداد والبصرة، قبل أن يدخله مكر الخواجات من المصريين، أو قبل أن تشله الحرب وتحوله إلى حي حزين كئيب يقع عند مثلث أو زاوية يحاصرها الخليجيون والإيرانيون والعراقيون ٠إنّه الخراب٠ ليس الخراب الجميل الذي عاشه قبل سنوات٠ ولكنه يعرف أيضاً أنّه لا يزال يحمل الوجد ذاته إلى الحي٠ والأغنية التي كتبها قبل سنتين لم تفقد عافيتها٠ إنّها ما تزال على عنفوانها٠ آه ما تزال على عنفوانها٠ آه هل يرفع صوته أعلى٠ ليفعل ذلك٠ ها هي الأغنية تقوده من الحي إلى البصرة ٠فيردد .كل الطرق تؤدي إلى البصرة. وتستعيد البصرة

مجدها٠ يعبرها البحارة من كل أنحاء العالم٠ يحضر سوق الهنود ــ ببهاراته الحارة ــ الكورنيش الذي يصاحب السفن في رحلتها٠ رقص الهيوة والزنوج وفستق العبيد٠ تأتي .البصرة داخل. أيضاً، حيث البغايا يقفن عند عتبات البيوت، حيث يحاول الشرطي عبيد الصياح بهن، يأمرهن بالدخول فتلوح له حسيبة الكَوادة أن يتقدم٠ وليخرس بعدها عندما تمسك عضوه الذي يصبح صلباً مثل صاري سفينة ٠ثم تقدم له علبة الروثمان التي يأخذها لا ليدخنها إنما ليمنحها لمفوض الشرطة ليبقيه عند شارع بشّار ليتقي حر الصيف٠ كلهم يجيئون في لحن عبد الحسن٠ إنّه يغني وكأنه لم يغنِ منذ سنين٠ حتى لصوص .نهير الليل.، يأتون ٠ترى لماذا سمي هذا الحي الصغير بـ .نهير الليل. هل لأنّ فقراءه يدبّون إذا ما سرى الليل في المدينة، في أحياء الله الغنية ليسرقوا قوت أطفالهم؟ هل تراهم يبحرون كنهر ليلي صغير؟ كم يبدو حزيناً له الآن ذلك الحي٠ وهو يذكر عندما كان صغيراً، وعندما كان يذهب مع جدته الساكنة في سوق الدجاج إلى .المَدة. لغسل الملابس٠ كان يرى الأكواخ المنتصبة في الجهة الأخرى من الخندق٠ نهر الليل٠ تستبدل الجمل بعضها البعض بسرعة في أغنيته، ويصبح الطريق إلى البصرة، الطريق إلى نهير الليل، الطريق إلى شط العرب، إلى الخورة، الكورنيش، البصرة القديمة، حي الطرب بل حيث يسكن الخشّابة٠ كان عبد الحسن كعالم آثار يفتش في تلك الأماكن عن لوائح ووصايا مفقودة٠ عن أحلام مذبوحة٠ كان كمن يحفر على لوح من الخشب٠ لا يريد الاكتفاء بحفر اسم أو مكان٠ إنّه يريد قول كل شيء طالما كان هناك متّسع من الوقت٠ طالما تستطيع الروح الصراخ وتتقيأ كل ما خزنته هذه السنوات القليلة٠ وهو على يقين أنّهم يحفرون مثله على الخشب٠ إنّهم ليسوا مقذوفين فقط، إنّما مثله قد لبسوا قامة الهواء، ومع أنابيب الهواء التي تفتحها أغنيته الآن، يدخلون معه٠ هناك يحفرون نفقاً،

fb/the.boooks

نفقاً سيحدث دوياً خارقاً غير اعتيادي، مثلما تحدث طائرة حين تخترق حاجز الصوت. يعرفون قبل هذا، وكل على طريقته، أنّهم يتقاسمون مائدة يأس واحدة. هي جبهة حي الطرب.

لم يفكر عبد الحسن عندما زار الحي في المرة الأولى قبل سنين أنّ أرجله ستطأ الحي مرة أخرى. وإن اعتقد فإنّه لم يعتقد أنّه سيبقى منفياً هنا إلى الأبد. ولكن لماذا إلى الأبد؟ كلا حتى إذا ما اشتكى من ذلك في أحد مقاطع لحنه، فلأنّه يريد أن يقول إنّه منفى مؤقت، أو خراب مؤقت، أو خراب جميل. لا يذكر من أين يستعير هذا المقطع. وإذا ما علّق أحدهم .توقف إنّك لم تنفَ خارج العراق. فإنّه سيعترض ويقول بأنّ المنفى لا يعرف حدوداً. الوجد لا يقاس بمسافة أنّه داخلي وقاتل. إنّ الغربة والمنفى يبدآن عندما يدرك المرء أنّه وحيد ومهجور، عندما يضرب أقدامه ليبحث عن أرض يستند إليها، فتفر الأرض منه، الغربة تبدأ حين يبدأ القلب في عويله، إنّ المنفى أكبر من أن تعرفه حدود. إنّه القلب عندما يقفز من القفص الصدري. وإذا ما سأله أحد متى ابتدأ منفاك فسوف يجيب: .منذ أن تعدى عمري الثلاثين ولم أفعل شيئاً عظيماً. إنّه يبث هذا الحزن بين سطور أغنيته، رغم أنّه لم يقله مباشرة. أيه غنِّ يا عبد الحسن. غنِّ طالما يجلس هؤلاء المريبون المغفلون بالفجيعة أمامك. إنّهم الآن يسمعون لحنك. غنِّ حتى يرتج هذا الحي بكامله. غنِّ حتى تستيقظ خيوط النهار تخترق .نهير الليل. أو لتجلس في حضرتك... غنِّ حتى يسقط لحاء شجرة النبق لتحكي من جديد عن سلمان وسليمة. غنِّ أباك وأمك اللذين لم تسمع أخبارهما منذ زمن. غنِّ زوجة صديقك الذي أصبح موظفاً كبيراً في إذاعة بغداد، والتي لم تنم معها رغم توسلات عينيها. غنِّ الشيخ سالم الذي ربما داخ الآن ولا يعرف ماذا سيفعل: هل يتابع طريقه فعلاً إلى الجبهة أم أنّه يخاف أن يرحل ويجدهما ميتين. غنِّ نعيمة التي تحبك ولا تفهم الكثير مما تقوله. غنِّ خرابك الذي لا تسعه حدود. قل كل ما عندك، طالما لا تزال حنجرتك طرية. هل ستعرف أغنيتك الحدود؟ بالفعل كانت أغنيته تطول وتطول. لقد استحوذت عليه الرغبة في الغناء حتى الصباح. وهو يعرف أنّه سوف لن يكون مملاً كالآخرين. لذلك فقد كان يضيف كلمات جديدة .

للحظة توقف عن الغناء ليتحسس كأسه الجديدة التي عمّرها له علي. دفع العرق إلى بلعومه بسرعة. وعندما وضع القدح أمامه ليبدأ في الغناء مرة أخرى، فجأة توقف عندما سمع وقع أقدام وتراكضاً غير عادي. تسمّروا جميعاً في مكانهم. ورأوا نعيمة وسليمة تدخلان الغرفة وقد شحب وجهاهما. وبصوت ليس فيه حياة قالتا:

fb/the.boooks

-لقد طوقوا الحي. وهم سيأتون إلى هنا مع سي محمود.

فسأل عبد الحسن:

-من أين عرفتما ذلك؟

فأجابتا سوية:

-أخبرتنا جارتنا وردة. كانت قبل قليل في بيت سي محمود.

أراد عبد الحسن أن يسأل وردة نفسها. لكنه أدرك أنّ ذلك زائد. فهي كانت قد اختفت بسرعة. امتقع وجه جلال فلاحظه عدنان. وعندما حدّق به أدرك جلال أنّه يجب أن يبوح لهم بما فعله.

يقيناً أنّ هذا الـ .سي محمود. قد جلب رجال السلطة إلى هنا. فرك جلال عينيه وفتح فمه ليقول باعتذار:

-لقد اتفقت مع الحقير أن يهربنا إلى الكويت.

فأجاب عبد الحسن وقد فوجئ، حتى إنّ العود وقع من حضنه:

-مع سي محمود.

هزّ جلال رأسه فعقّب عبد الحسن:

-هل أنت مجنون. إنّها فرصته الذهبية. فكل المصريين يطمحون أن يأخذوا مركزا قوياً. ها قد فعلها النذل.

حدّق عدنان بعلي وقال دون أن يبغي جواباً :

-يجب أن نفعل شيئا بسرعة .

لم يفكر علي في تلك اللحظة بأنّه سيموت. لا يدري لماذا لم يستحوذ عليه هذا الهاجس. فأول ما فعله هو أنّه مدّ يده إلى بقايا شرابه في القدح ليأتي عليها مرة واحدة. ثم خطرت في ذهنه فكرة أخرى، لمعت مثلما يلمع البرق. نهض من مكانه من دون أن يقول للآخرين شيئاً.

أصبح علي بعد لحظات عند الكراج. فتح الباب وتوجه بسرعة إلى السيارة ليفتح بابها. مدّ يده إلى البنادق الخمس التي استقرت هناك. حملها. علّق

fb/the.boooks

اثنتين فوق كتفه وحمل الباقي في حضنه. لقد أدرك ساعتها أنّه مقبل على فعل خطير. لم يرتجف. لم يرف جفناه. إنما تقدم إلى الغرفة. كانوا قد وقفوا هناك باستثناء الشيخ الذي ظل جالساً، كأنهم ينتظرون، بل كأنهم قد علموا ما نوى عليه، لم يتحدثوا مع بعض، فقط عيونهم هي التي كانت ترى. كأنهم قد اتفقوا بصمت على أمر ما. تناول كل منهم بندقية. وعندما تحركوا من أماكنهم تحفز الشيخ. ونهض بصعوبة حتى إنه نسي آلام ظهره. تبعهم بصعوبة ليأخذ البندقية المتبقية التي استقرت حول كتف علي. من دون أن يسأل بعضهم البعض عما سيفعلونه ساروا إلى سطح الدار وأصبحوا في مواجهة جيش من الانضباط العسكري والمدنيين المدجّجين بالسلاح، الذين سدّوا الزقاق بسياراتهم العسكرية، وانتشروا عند كل الطرق المؤدية إلى البيت ــ انتشروا هناك كما ينتشرون على خطوط الجبهة، ولكنهم لم يحسبوا حساب أولئك الواقفين على سطح الدار المتهيئين لإطلاق النار الآن. في الجبهة الجديدة: جبهة الحرب في حي الطرب.

هامبورغ

كانون الأول 1983- مايس 1985

صفحة كتب

fb/the.boooks

نبذة عن الكاتب

نجم والي (عماريا 1956) غادر العراق أواخر 1980 ·درس الأدب الألماني في جامعة هامبورغ، والأدب الإسباني في جامعة كومبلتينسه- مدريد· من كتبه التي صدرت: .الحرب في حي الطرب. (رواية 1993 دمشق)، .ليلة ماري الأخيرة. (قصص، شرقيات القاهرة 1995)، .مكان اسمه كُمَيْت. (رواية، شرقيات القاهرة 1997)، .فالس مع ماتيلدا. (قصص، دار المدى دمشق 1999)· .تل اللحم. (رواية، طبعة أولى، دار الساقي، بيروت، لندن 2001، طبعة ثانية ميريت، القاهرة 2005)· .صورة يوسف. (رواية، طبعة أولى، دار المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، 2005، طبعة ثانية، ميريت القاهرة 2008)· .ملائكة الجنوب. (رواية، طبعة أولى، دار كليم دبي 2009، طبعة ثانية، دار المدى 2010 بغداد)· .بغداد··· مالبورو·· رواية من أجل برادلي مانينغ.، (رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، عمان ·(2012كما نقل عن الإسبانية مسرحية .خطبة لاذعة ضد رجل جالس. لغابرييل غارسيا ماركيز· هذا وتُرجمت أغلب أعماله إلى عدة لغات عالمية وصدرت عن دور نشر عالمية مرموقة، كما كتبت عنها أشهر الصحف العالمية· نجم والي الذي يُعتبر اليوم أحد أكثر الكتّاب العرب والعراقيين شهرة عالمية، يكتب العمود في الصحافة العربية (الحياة والمستقبل والمدى)، والألمانية (دي تزايت، دير شبيغيل، زوددويتشه تزايتونغ ونويه تزوريشير تزايتونغ)، كما يعمل متفرغاً للكتابة منذ 1002· يعيش اليوم في منفاه الألماني في برلين·

صفحة كتب

fb/the.boooks

WAR IN TARAB NEIGHBORHOOD

الحرب في حي الطرب

العزيز نجم والي...
صباح الخير..
ألف تهنئة على صدور روايتك «الحرب في حي الطرب»...
لن تضيع أحياؤنا إذاً، يا نجم

دمشق في 19 - 2 - 1993.

في رسالة للكاتب
من الشاعر العراقي سعدي يوسف

«الحرب في حي الطرب» لا تروي فقط قصة شباب لم يشاءوا الموت مجاناً في حروب الديكتاتور، بل تروي أيضاً قصة: «حي الطرب»، المكان ذلك الواقع في المثلث الحدودي بين العراق والكويت وإيران، والذي أسكنت الدولة العراقية الغجر فيه في أواسط السبعينات، لكي يكون لاس فيغاس العراق الذي يمتص بيترودولارالعربان، بديلاً لبيروت التي مزقتها الحرب الأهلية آنذاك.

«الحرب في حي الطرب» هي رواية الجحيم العراقي في بداياته، رواية حرب عراقية طويلة ستجر حروباً أخرى وراءها .. هي رواية الموت المجاني .. لكنها في نفس الوقت رواية البحث عن الحياة، رواية الحب حلماً، يرويها نجم والي على عادته، بوضوح وبدون التواء، كاشفاً للعالم وجهه الحقيقي...

الروائي العراقي نجم والي، الذي ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات العالمية والذي يعيش في منفاه الألماني برلين، وضع عن طريق هذه الرواية اللبنة الأولى لمشروعه الروائي الذي اختطه لنفسه بكتابة تاريخ الجحيم العراقي الحديث.

«الحرب في حي الطرب» التي كُتب عنها الكثير، لم يكن من المصادفة إذن أن تحتل ولوقت طويل قائمة البيستسيلير خاصة في ترجمتها الألمانية في حينه.

ISBN 978-614-419-283-2
9 786144 192832

fb/the.boooks